

www.alkottob.com

www.alkottob.com

القيمة في حياتنا!
لوحات تحذيرية على جدران الطفولة

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م
الطبعة الثانية
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع حراد حسي - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس ٣٩٣٤٨١٤٠ (٠٢) تليكس 93091 SHROK UN
بيروت: ص. ب. ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا طائرون - تليكس ٠ SHOROK 20175 LB

أنيس فنسود

البينة في حياتي!
لوحات تذكارية على جدران الطفولة

دار الشروق

www.alkottob.com

كلمة أولى !

من الخوف من أمي والخوف عليها ، عرفت أبي ..
ومن القلق على أبي والشوق إلى صوته الجميل يرتل القرآن ،
ويتغنى بالشعر ، ويقلب الكتب بأصابعي ، عرفت نفسي ..
هذه - إذن - ينابيعُ الشعور ، ووميضُ الفكر في طفولة كانت
الماضي الذي لا يمضي ، والحاضر الذي لا يغيب ،
وكانت الطريق الذي إذا التوى كان علامة استفهام ، وإذا
استقام كان علامة تعجب ..
والطريق لم ينته بعد ولا علامات الدهشة على جانبيه .. فلا
حدود للاستفهام والفهم ، والتعجب والاعجاب ..
هذه - إذن - صور تذكارية لشلالات القلق ، وجنادل الأرق ،
ووديان الفزع .. أعرفها .. تعرفني .. بغير نهاية ..
فالبقية ما تزال في حياتي ! ..

القاهرة ١٨ أغسطس سنة ١٩٩٠

www.alkottob.com

يارب إني خائفٌ ، كما ترى
والقلب منى حائرٌ ، كما ترى
وقبلتي ضائعةٌ ، كما ترى
فما ترى يا ربنا ، فيما ترى !؟

« . . . »

وضاقت الأرض حتى كادَ خائفُهُم
إذا رأى غيرَ شيءٍ ظنه رجلاً !
« المتنبى »

ما هذا الإنسان ؟ إنه عود من القش .. إنه أضعف المخلوقات .. ولكنه عود قش
عاقل . والكون أقوى منه . والكون ليس في حاجة إلى سلاح لكى يقتل هذا الكائن
العاقل .. قطرة ماء تقف في حلقه كافية لقتله .. ولو سحق الكون هذا الإنسان ،
سوف يبقى القتل أعظم من القاتل . لأن القتل يعرف انه أضعف ويعرف أن
الكون أعظم .. بينما الكون لا يعرف لا يفهم لا يعقل شيئاً من قوته أو من ضعف
الإنسان .. فعظمة الإنسان في فكره . ولذلك فالإنسان يجب أن يسمو بفكره وليس
بالزمان الذى يستغرقه المكان الذى يشغله .. فلنحاول أن نفكر وأن نفكر فهذا هو
الأساس الأول لحضارة الإنسان ! .

« باسكال »

www.alkottob.com

جلست أمى إلى جوار النافذة . وفنجان القهوة في يدها مثل كل يوم . ولكنها هذه المرة تبكى في صمت .. وقد امتدت فروع الأشجار إلى داخل الغرفة .. وكأنها تفعل ذلك لأول مرة . وكأن لها وظيفة أخرى هى أن تؤكد لأمى أنها ليست وحدها .. فأوراق الأشجار أكف صغيرة تواسيها أو تسبقها إلى دموعها .. ولم ألاحظ قبل اليوم أن الأشجار قريبة من النافذة . وأن فروعها قد تمددت إلى داخلها .. الأوراق شديدة الخضرة . وملابس أمى شديدة السواد .. وجه أمى أبيض .. وشعرها طويل ذهبى .. وفي كف أمى بقايا الحناء .. ونظرت إلى كفى فوجدت بعض الحناء أيضًا . فمن عادة أهل الريف أن يضعوا الحناء على أكف وأقدام الصغار والنساء .. حتى المنديل الصغير في يد أمى له أطراف سوداء . وقد تسلت أشعة الشمس من بين الأوراق وازداد وجهها اشراقًا . ولأول مرة أنظر في عينيها . بينما امتدت ذراعها ومسحت دموعه على خدى ..

وقالت لى . لن أتركك وحدك يا حبيبى .. عيب ! كيف تبكى وأنا أقول لكل الناس عنك إنك رجل .. أنت رجل البيت .. أنت عارف أنى لا أحب أحدًا أكثر منك .. لا أحب أحدًا غيرك ..

وسحبت يد أمى إلى شفتى وقبلتها . وكانت يدها ناعمة وأصابعها طويلة وأظافرها وردية .. ثم نظرت إلى وجه أمى .. مستدير أبيض .. وإلى عيني أمى فوجدتهما عسليتين وكنت أظنهما سوداوين .. وإلى الرموش فوجدتها طويلة ..

وضحكت أمى وهى تقول : هل نسيت أننى أستطيع أن أرى النجوم في الظهر ؟!

فقد كانت تتباهى بأن نظرها أقوى نظر في العائلة كلها .. ولا تفوقها إلا إحدى قريباتها .. وكانت البنات يتبارين من التي تستطيع أن ترى القمر والشمس طالعة .. أو ترى إحدى النجوم في السماء رغم وجود الشمس .. وكانت أمى هي التي تفوز في كل مرة ..

وتضحك وتقول : ماذا أعمل .. أبوك هو الذى نظره ضعيف .. ولذلك فنظرك ضعيف .. وهو .. (ثم تبكى) ..

وتضع الفئجان الذى في يدها إلى جوارها ..

ولم أستطع أن أفهم هذا الذى حدث في ذلك اليوم .. أمى جالسة ، وهي عادة لا تكف عن الحركة . وملابسها سوداء . وتبكى .. ولم أكن أتصور أن أمى تبكى أيضاً . فقد اعتادت أن تبكىنى .. أن تضربنى لاتفه الأسباب .. ولكن هذه المرة هي التي تبكى .. وهذه المرة تلف ذراعيها حولي .. وأرى وجهها وعينيها وأشعر بحضنها وأنها أمى .. وإن كان من الممكن أن أكون في أحضانها أى وقت وكل يوم لولا أنني أضطرها إلى ضربى .. ولم أعرف السبب الحقيقى الذى يجعلها تضربنى .. مثلاً أنا أصعد النخلة .. حاولت ذلك .. فقد رأيت الثعلب يصعد النخلة بظهره لكى يرى الأرض ومن عليها وحتى لا يفاجأ بأى خطر .. وككل الأطفال حاولت أن أقلد الثعلب فسقطت على الأرض .. وسال الدم من رأسى ..

وفي مرة أخرى حاولت أن أقلد طبيب العيون فكنت أمسك الأطفال الصغار بالقوة وأضع التراب في عيونهم ..

وفي مرة وجدتنى أضع يدي في جيب جاكته والدى .. وكنت أرى والدى يخرج من جيبه قطعاً من الأوراق الصغيرة . هذه الأوراق عليها آيات قرآنية وكان يعطيها لمن يشكو الصداع .. وكان الناس يشكرون والدى على ذلك .. فقد زال الألم .. حاولت أن أعرف ما هذه الأوراق .

وفي إحدى المرات وجدت إحدى قريباتنا تصرخ وتبكى . وقالوا إنها سوف تلد حالاً .. وتكاثرت النساء . وجاءت البداية .. ومعها طشت وبعض الزجاجات .. وبعض أعواد

البخور .. ودخلن جميعاً إحدى الغرف .. وأجلسوا السيدة التي سوف تلد على أحد المقاعد.. وتسلت أنا تحت السرير .. لأرى .. وعندما رأيت لحمًا ودمًا وسمعت صراخًا .. صرخت أنا أيضًا ! .

ولم تقل أمى شيئاً عن هذا الذى حاولت أن أعرفه ..

واعتدت على أن تمتد يد أمى إلى أى شىء وتضربنى به فى كل مرة أحاول أن أعرف .. مرة أخرى نزلت إلى النيل مع الأطفال . وغرقت . فأنا لا أعرف العوم . ولا أعرف كيف أخرجونى . ولا كيف أننى ملفوف بالأغطية على سرير . وكيف أننى لم أكن وحدى .. ففى سخونة الحمى كنت أرى أناسًا كثيرين فى سريري .. وكنت أرى حيوانات وطيورًا . وكنت أغمض عيني وأخفيهما تحت اللحاف .. وكنت اندهش كيف أننى عائم فى البحر .. أحيانًا فوق الماء وأحيانًا تحت الماء .. وأن أمى تحاول اغراقى بينما خالتي - أجمل من رأيت وألطف وأحب من عرفت - كانت هى التى تحاول انقاذى .. وكيف انها تمد شعرها الأسود الطويل ناحيتى .. وكيف اننى كنت أتحوّل إلى فراشة أتعلق بشعرها وعندما أصل إلى قرب خديها تمتد رجل أمى تدوسنى إلى القاع .. وأحيانًا أرانى عصفورة تقف على كتفى خالتي وتمتد يدها وتلصقنى بخديها قريبًا من عينيها الجميلتين .. عندما تخطفنى أمى وتحبسنى فى قفص مع الفئران تحت السرير ..

واعتدت أن أبكى من الوحدة ومن السخونة ومن الألم . وأحسست بيد وذراع وحضن فقلت خالتي أنا تعبان .

وسمعت أمى تقول . أنا أمك يا حبيبي أنا لا أريد أن أضربك أبدًا .. أبدًا .. أنا تعبانة يا ابني .. تعبانة وأنت صغير لا تعرف !

ورفعت رأسى لأرى دموع أمى ..

وتقول : أريدك أن تكون أحسن الناس . أنت تعرف . لا أريدك أن تلعب فى الطين وتغرق فى النيل . أريدك أن تتعلم وأن تذهب للمدرسة وأن تكون وزيرًا . حتى يقال إن أمك عرفت تعلم أولادها ! .

وتمسح العرق والدموع من وجهى .. وتقبلنى فى كل وجهى . وبكيت : ماما .. ماما ..

أين أنت ؟ كل الأطفال يقولون لى أن أمك تكركه .. وإلا لماذا هى تضربك .. بينما أمهاتنا لا تضربنا .. أمك هى التى أغرقتك فى النيل .. أمك هى التى أسقطتك من النخلة .. أمك هى التى حبستك تحت السرير ..

وحاولت أن أجلس إلى جوارها فلم أستطع . ونظرت أمدى والدموع فى عينيها : شايف أنت مريض لاية درجة .. أنت السبب يا ابنى . لماذا تضطرنى أن أضربك .. فى كل مرة أفعل ذلك أظل أبكى .. أنا أحبك .. أنهم يقولون إننى لن أنجح فى تربية أولادى .. قل لى ياصلاح - وهذا هو اسمى - ما الذى جعلك تذهب إلى ضريح جدك بالليل .. والدنيا مظلمة .. وهناك ذئاب وثعالب .. وفى الضريح ثعابين وبقاريت ..

وأحسيت رأسى خوفاً من أن تضربنى . فأكدت لى أنها لن تفعل . فقلت لها: وجدت كل الناس يذهبون ويبيكون وكل واحد يشكو لجدى من أمه ومن أبيه .. ويطلبون إليه أن يساعدهم . فأنا ذهبت وانتظرت حتى يمشى كل الناس . ودخلت وأقفلت الباب ورحت أبكى وأطلب منه أن يأخذنى ..

قاطعتنى أمدى : لا تقل يا ابنى . لا تقل .. حرام عليك .. أنا غلبانة .. وأكملت كلامى : يأخذنى عنده مثل خالى .. حتى لا يضربنى أحد ! . واحتضنتنى أمدى . وهى تبكى وتقول آخر مرة يا ابنى .. آخر مرة وحياتك أنت .. آخر مرة ..

ومرة وجدت فناجين القهوة على المناضد . وذهبت وغسلتها مساعدة لأمدى . وكانت مريضة .. ونادتنى أمدى . وأمسكت أذنى وقرصتها .. وصرخت .. وعرفت أن هذه الفناجين لجاراتنا وقد بعثن بها لكى تقرأها أمدى !.

* * *

أمدى كانت عصبية المزاج .. ومن السهل أن تغضب ومن السهل أن ترضى . وفى كل الحالات تبكى بسهولة . ولكن لم أفهم العلاقة بين حبها الشديد لى ، وضربها لى .. بيديها وبأى شىء قريب منها .. أنا فقط دون بقية أخوتى ..

ولم أجد أحداً من اخوتي يحبها مثلي . ويحرص على إرضائها . ويحزن لحزنها .
ويبكي لبكائها . فإذا هي مرضت تسللت إلى فراشها .. وإذا لم توافق نمت على الأرض
أمام سريرها . وعلى الرغم من اننى لا أستطيع أن أساعدها فى شىء فقط أن أكون قريباً
منها.. مع انها لا تطلب منى شيئاً . وأحياناً تنزل من السرير وتضع الغطاء على جسمى ..
ولا تحاول إيقاظى ..

وعندما جاءت إحدى خالاتى . سمعت هذا الحوار .

خالتى : الولد مريض . ماله ؟

أمى لا أعرف . ولكن عندما أمرض فإنه يمرض . وأنا أحاول أن أخفى مرضى عنه

ولكنه يلاحظ ذلك بسرعة .

خالتى : دعيه يسافر معى .

أمى : لن يرضى .

خالتى . سأحاول .

وبسرعة ذهبت إلى أحد الدوايب ووضعت كل ملابسى فى الماء .. وحاولت أن أتظاهر

بأننى أغسلها حتى لا أسافر مع خالتى وأترك أمى ..

وفجأة دخلت غرفة والدتى . وقلت لها : يا ماما .. شوفى لى الفنجان ا .

فضحكت أمى لأول مرة . وخالتى أيضاً . ووجدت وجه أمى يشرق وأرى أسنانها

البيضاء الجميلة . واقتربت منها . ثم أصدت إلى جوارها على السرير . وأضع رأسى على

صدرها .

وقالت لى أمى : حاضر يا حبيبى ..

وقامت خالتى وأتت بفنجان قهوة وطلبت منى أن أشربه . وأن أرجه . وأن أقلبه .

وانتظر حتى يجف . ثم ناولتها الفنجان . وراحت تديره بين أصابعها .. واشرق وجهها

وقالت لى . فنجالك حلو قوى يا ابنى .. كله سكك مفتوحة .. وفى وسط الفنجان كلمة الله ..

وهنا كلمة محمد .. الله نور ... ومحمد رجل جميل الوجه وحوله اناس كثيرون .. وهنا

كرسى كبير .. وفوق الكرسى نجمة .. نجمك أنت يا ابنى .. فوق .. ربنا يدينى طول

العمر لكى اراك فى الحقيقة كما اراك فى الفنجان .. يارب سايقة عليك النبى .. لكن يا ابنى ..
أعداؤك من دمك .. القريب منك هو الذى يحسدك .. ولكن ربنا سوف ينجيك يا ابنى ..
ربنا يكرمك .. أنا شايفة إن ربنا سوف يكرمى بك .. ألف سلامة لك من كل عين .. هذا
كل ما فى الفنجان .. مبسوط ! .
لا بد أن أمرض لتكون أمى قريبة منى .. ولا بد أن تمرض هى لأكون عند قدميها وبعد
ذلك فى حضنها ..

* * *

- صلاح .
- نعم يا ماما ..
- أخرج .. لا يصح أن تجلس مع الستات .. أخرج .. أنت رجل ..
وتقول لقربياتها . والله ابنى صلاح زى البنت . لا يرفع صوته ولا عينيه ... ولا نسمع
له صوتاً ..
وترد صاحبها الحقيقة كده .. الولد فى غاية الأدب .. ربنا يكمله بعقله .. ألن يذهب
إلى المدرسة ؟
أمى تقول ' سوف يحضر أبوه اليوم . لا بد أن يذهب . فلا أبوه فلاح ولا جده فلاح ..
ولا بد أن يكون أفندياً يذهب إلى المدرسة ويكون محامياً أو دكتوراً . هذا ما نذرتة لله ..
وربنا سوف يعوضنى خيراً ..

* * *

ولما عرفت أن والدى قادم من السفر ، غيرت ملابسى .. الجلباب الجديد .. والقباب
الخشبي . والطاقيّة .. وكان الجلباب مشقوقاً من الجانبين .. لا أعرف السبب .. وربما
كان الغرض هو أن يكون واسعاً .. وكانت هذه الفتحة يسمونها « الفراجية » أى الفرجة
الصغيرة .. وكان والدى يبدو عادة أنه قادم من بعيد .. فهو يجىء ركباً حصاناً وعلى

رأسه شمسية . ويمشى وراءه عدد من الفلاحين على أقدامهم أو راكبين الحمير .. وكان من عادة والدى إذا رأى أن يرفعنى بذراع واحدة إلى حيث هو وأجلس أمامه .. فقد كان قوياً .. وكانوا يقولون إنه أحياناً كان يحتضن الحصان الصغير بذراع واحدة ويمشى به .. ولم أر ذلك .. ولكن هذه المرة عندما ناديته صارخاً : بابا .. بابا .. لم يتوقف عن الكلام ولا مد ذراعه .. وإنما اكتفى بالنظرة ناحيتى قائلاً : احترس حتى لا يدوسك الحصان ! . ونزل أبى من فوق الحصان .. واتجه إلى البيت . وأنا الذى مددت يدي إلى يده . وضغطت عليها بأصابعى . كأننى احتضنه فأنا لم اره منذ وقت طويل .. فكان من عادته أن يغيب عنا أسبوعاً ، ولكن هذه المرة غاب شهراً أو دهرأ .. وفى كل مرة أسأل أمى عن موعد عودته فإنها لا تقول شيئاً .. أو تبكى .. ثم لا تقول شيئاً فأبكى أنا أيضاً . ودخل والدى البيت . وظللت واقفاً أمام الباب . وتعالى الحديث بين أبى وأمى . وسمعت أبى يقول : لا داعى لهذا الكلام . الولد يسمع . الولد حساس جداً . لا داعى .. ولم أسمع ما الذى تقوله أمى . ولا ما الذى يقوله أبى . واقتربت من النافذة . وسمعت . ولكن لم أفهم . وكانت أمى هى التى تتكلم أكثر . وأبى لا يرد . وأحياناً يقول عبارات لا أعرف لها معنى .. مثل : الله وحكمته .. اصبرى سوف نترك هذا البيت .. هذه آخر مرة .. هانت .. طبعاً الولد لا يد أن يدخل الكتاب يتعلم القراءة والكتابة ويحفظ القرآن .. وبعد ذلك يحلها ربنا .. وأسمع أمى تقول : لا تصدق الولد .. أنت السبب . إنه لا يحب أمى .. إنه يقلدك .. لا تصدقه ! .

أنا كذاب ؟ وأمى هى التى تقول . لم أكذب قط . لقد تعلمت منها الصدق . إذن هى التى تكذب أمى تبكى ؟ وأمى تكذب ؟ وأبى يؤكد إننى لا أكذب .. وأمى تقول له : وأنت كيف تعرفه إذا كنت لا تراه فى الأسبوع إلا مرة واحدة ولمدة نصف ساعة !؟ . أما بقية الساعات والأيام فهى التى تعلمنى وهى التى تضربنى .. وفى يوم سألت أمى : يا ماما ما الذى يعمله والدى ؟ .. وقالت لى كلاماً لم أفهمه . ولم تكن سعيدة بما تقول . ولما سألتها : ولماذا يسافر كثيراً ؟ ولماذا لا يقيم معنا فى بيت جدى ؟ .

ولم تسترح أُمى إلى هذا السؤال ولا أحببت أن تتكلم .
ولما سألتها : ولماذا جدتى لا تحب والدى ؟
قالت لى : أنت صغير أنت لا تعرف وأنت لا تفهم ..
وكنت أقول لها : ولكن بابا طيب جدًا .. يصى ويحبه الناس . كل الناس يحبون
والدى ..

وتقول . ولكن ليس له بخت يا حبيبى .

- يعنى إيه ؟

- أنت صغير ولا تعرف الآن . ولكن عندما تكبر سوف تعرف ..

وكنت أنام أمام غرفة والدى حتى إذا صحا من النوم لصلاة الفجر وجدنى . فأيقظنى
لكى أصلى معه وأتحدث إليه .. وكان أبى لا يكف عن قراءة القرآن وهو يتوضأ بعد ذلك ..
ثم يؤذن لصلاة الفجر . ثم يتلو القرآن . ثم يصى وأنا وراءه .. وبعد ذلك يقرأ القرآن
ويدعو الله أن يصلح حال أولاده .. فالأولاد كثيرون .. عددنا أحد عشر .. وكان حين يدعو
لى يضع يده على رأسى .. ثم يضعها على عنقى .. ثم على قلبى .. ويدعو لى بأن ينصرنى
على أعدائى وعلى نفسى وأن يجعلنى رحيماً بالدى وأن أكون فى أعلى المناصب .. وأن
يثبت إيمانى ويملاً عقلى بالعلم وأن يعطينى الصحة والعافية ..

وبعد ذلك يصنع الشاى بالنعناع ويحكى لى قصصاً دينية وتاريخية .. مع أبيات من
الشعر .. وكان الشعر الذى يرويه ويجعلنى أردده وراءه شعراً أخلاقياً وصوفياً . وكان
يندهش كيف أننى أحفظ الشعر .. مئات الأبيات بهذه السرعة مع إننى لا أعرف القراءة
وكان يحكى ذلك للناس وكان الناس يدعون لى بالصحة والنجاح والمزيد من العلم ..

وفى يوم سمعته يقول لخطيب المسجد : أن ولدى قد حفظ « دلائل الخيرات » كلها ..

فرد الرجل عليه : وهذا من دلائل الخيرات ! .

وأعجبنى هذا القول . ولكن لم أفهم هذه النكتة البلاغية .

وفى يوم قال لمأمور المركز ، وكان يتناول عشاءه فى بيتنا : إن ولدى قد حفظ « البردة »

للإمام البوصيرى .. ويستطيع أن يرويها كلها الآن ..

وكننت أقول والناس في زهول .. وتمتد أيديهم تباركنى وتبخلق عيونهم .. كأنهم
يرون المستقبل العظيم الذي سوف يكون من نصيبي عندما أكبر ! .
وفي إحدى المرات قلت لوالدي : بابا أنت زعلان مع ماما ؟ لماذا ؟
وكان السؤال مفاجأة لأبي . وخلق منظاره وأدنى وجهه من وجهي .. ورأيت وجهه
الأبيض وعينيه الخضراوين . وفي عينيه صفاء وطيبة وحزن . ثم احتضنني وأجلسني
على ركبتيه وراح يقبلني . ولم يقل شيئاً . ورأيت الدموع في عينيه .. حتى أبي يبكي !؟ .
ما الذي أقوله ليجعل أبي يبكي وأمي أيضاً .. لماذا كل الذي أقول يتحول إلى دموع ..
ما هذا الذي أقوله فيوجع القلب .. ما هذا الذي لا يريد أحد أن يصارحنى به ..
وعدت أقول وأنا أبكي أيضاً : من فضلك لماذا أنت وماما تقفلان الباب ثم
تتشاجران .. لماذا ؟
وكان أبي يقول لي وهو يحتضنني . كل الناس كذلك يا ولدي .
قلت . ولكني سألت واحداً من أصحابي إن كان أبوه وأمه يتشاجران فقال إنهما
لا يتشاجران .. وسألته إن كان في كل مرة يتحدث إلى أمه تبكي .. وإلى والده يبكي .. قال
إنهما لا يفعلان ذلك .
قال أبي . ومن هذا الذي تسأله يا ولدي ؟
- ابن خالي ..
- ابن العمدة ؟
قلت : نعم ..
فضحك أبي وقال لأن بيته كبير جداً .. فإذا تشاجر العمدة مع زوجته فإن ابنه
لا يسمعها ..
قلت . ولماذا لا يبكيان ؟
قال لا يبكيان أمام الأولاد وإنما في الغرفة وراء الباب .
قلت : ولماذا البكاء يا بابا ؟
قال . لأن الإنسان عندما يتألم أو يمرض أو يحزن لابد أن يبكي .

قلت : ما الذى يؤلمك يا بابا ؟

قال . ماما سوف تقول لك .. أما أنا فأريد أن أتحدث معك .. وعن المدرسة التى سوف تذهب إليها .. أنا أريدك أولاً أن تحفظ القرآن الكريم .. وبعد ذلك سوف تكون رجلاً عظيماً .. أحسن واحد في هذه القرية .. وفي الدنيا كلها .. وأنت سوف تحفظ القرآن بسهولة وفي وقت قصير .. لأنك تحفظ الشعر بسهولة . والقرآن أعظم من الشعر . والذى يحفظ القرآن لا يكذب ولا يغش . ولذلك سوف يحبك الناس ويصدقونك .. وأنا أعلم أنك سوف تكون أحسن من كل اخوتك .. لأنك طيب .. ذكى .. ولأنك رقيق عطوف .. ولازم تسمع كلام ماما يا حبيبي ..

- حاضر يا بابا ..

- انت تحب ماما ؟

- نعم .

- وانت تحبنى ؟

- طبعاً .

- إذن يجب أن تحب أباك وأمك .. لأنهما يحبانك .. أما الخلافات التى بينهما فهى طبيعية بين كل الأزواج .. وعندما تكبر سوف تفهم .. وسوف تجد لأمك ألف عذر ولو ألدك أيضاً .. فلا تشغل نفسك بنا .. انشغل بنفسك ومستقبلك يا ولدى .. وربنا يحميك وينجيك وهذه هى سعادتى أنا وأمك .. تأكد من ذلك ..

- حاضر يا بابا !

وكانت أمى تسألنى : لقد سمعتك وأنت تتكلم مع بابا . ماذا كان يقول لك ؟

- أبدأ إنه يقول شعراً وأنا أردد وراءه .

- شعر ؟

- نعم . كلام حلو .. مثلاً .

سامح أخاك إذا خلط

منه الاصابة بالغلط

وتجاف عن تعنيفه

شكر الصنيعة أم غمط

من ذا الذى ماساء قط

ومن له الحسنى فقط؟

– ما هذا ؟

– شعر .. مثل :

رأيت غصناً على كمشيب

شبيه بدرًا إذا تلالا

– ما هذا ؟ أبوك يا ابنى ليس عنده إلا هذا الكلام .. وبقدر ما عنده من كلام ليس عنده

فلوس ..

ولم أفهم ..

ولم أقل لها شعراً بعد ذلك .. مادام مثل هذا الكلام الحلو يخطف الرزق ويسبب

الفقر والبعد عن الأولاد .

www.alkottob.com

كانت أمى تغلق الباب علينا بإحكام شديد .. الترباس فوق .. والترباس تحت .. وبالمفتاح .. ثم تضع فى فتحة المفتاح قطعة من القماش .. وتدخل غرفة النوم وقد أحكمت إغلاق النافذة والباب ..

وأدخل إلى جوارها تحت اللحاف أعطى رأسى ، صيفاً وشتاءً . ولا أذكر اننى ضربت اللحاف بيدي أو برجلي فى حياتى ..

ولم أتساءل عن سبب اللحاف ولكن اعتقد أننى وجدت اللحاف فتغطيت به .. ثم إنه الخوف .. الليل هو الخوف .. وكل شىء أمام الباب ووراء النافذة مخيف .. ففى الليل تسمع أصواتاً كثيرة ، غريبة أمام الباب .. وتحت النافذة وفوق السطوح .. أشياء تدب .. إناس .. أو كلاب أو ذئاب . وتسمع وقع أقدام فوق السطوح .. وصوت الدواجن تصيح فزعاً .. وتتعالى الصيحات .. وأخرج برأسى من تحت اللحاف وأسأل أمى فتهمس إنها العرسة .. تخنق الدجاج .. أو هو الثعلب يخطف البط .. أو هو الذئب .. أو هو أحد اللصوص . ولكن أمى لا تنهض من السرير .. ولا تفتح الباب .. ثم تطلب منى أن أنام .. فأقترب منها وأعانقها وأخفى رأسى وأنام ..

وأنهض من النوم خائفاً حتى من سؤالها عن الذى حدث بالأمس ويتكرر كل ليلة ..

واسمع عن قصص اللصوص فى الليل .. وعن المجرمين .. وعن الذئاب التى خطفت الأطفال .. وعن الذئبة الأنثى التى جاءت تنتقم من رجل قتل زوجها .. وعن العفاريت التى تقلد الناس فى ملابسهم وأصواتهم وتخطف الأطفال .

وكل شيء يتلاشى عند طلوع الفجر وشروق الشمس .. ويظل الإنسان آمناً طوال النهار ، حتى إذا جاء الليل فإنه الخوف والرعب يصبح خيمة فوق القرية والمدينة .. ويحاول أن يتسلل من ثقب الباب أو من تحت الباب أو من تحت النافذة .. والنهار للناس ، والليل لكل الوحوش والعفاريت .

وأحياناً كنت أسمع أن النهار أيضاً للعفاريت . فالقطط التى فى البيوت هى عفاريت أيضاً أخذت شكل الحيوانات .. وبعض القطط تنظر إليك كأنها تحدثك .. أو كأنها تنقل لك رسالة من إنسان مات .. وكذلك الكلاب .. أما الفراشة التى تدخل من الجنية إلى النافذة وتحط على السرير فهى روح قريب لنا مات . ويريد أن يطمئن على الناس فى الدنيا .. ولذلك يجب ألا تطرد قطة أو تضرب كلباً أو تقتل فراشة ..

ولا أذكر أننى وجدت باب بيتنا مفتوحاً . ولا أذكر أن أحداً دق على الباب دون أن يسرى الفزع بيننا .. وقبل أن نذهب إلى فتح الباب نتساءل فى صمت ، ومن يكون هذا .. هذه الدقات على الباب غريبة عنا ..

وتقول أمى : إنه غريب .. فقد رأيت فى الفنجان أن ضيفاً عزيزاً سوف يزورنا .. أو تقول : إن باطن كفى يأكلنى .. سوف أسلم على أحد لم أره منذ وقت طويل .. ثم تقول : وقد رأيت فى الفنجان أن هذا الشخص يبكى .. نعم يبكى .. وكنت أصدق كل الذى تقوله أمى .. وكل ما تقوله يثبت انه صحيح فى نفس اليوم أو بعده بيوم ..

وبكثير من الحذر والخوف نفتح الباب وتكون إحدى خالاتى بملابسها السوداء والدموع فى عينيها ..

وتشير لى أمى أن أخرج الآن ، ولكن بشرط أن أبقى دائماً أمام الباب ولا أكلم أحداً من أولاد الجيران . إياك - تقولها محذرة مهددة .

وكان لى جار فى مثل سنى .. يرتدى القميص والبنطلون حتى فى الإجازة . وكنت أتصور أن البنطلون والقميص للمدرسة فقط .. وفى إحدى المرات دخلت الكرة إلى بيته .. فتسللت ورأيت إخوته جالسين كلهم بالبنطلون والقميص .. ولم يكن جارى هذا يفهم

لماذا أتحدث إليه همسًا .. ويسألني عن السبب ولكن لا أستطيع أن أقول له أن أمي تمنعني من الحديث مع أي أحد ..

وأحيانًا كنت أقول له . إن ماما نائمة مريضة ..

وفي اليوم التالي تجيء جارتنا لكي تطمئن على صحة والدتي .. وتفاجأ بأنها ليست مريضة ..

وتسألني أمي فأقول لها : إن ابنها حاول أن يلعب معي فقلت له ماما مريضة وأنا لا أستطيع أن أتركها ..

ويظهر الامتنان على وجه أمي ..

ولم أكن أسأل أمي عن السبب في ألا أتحدث أو ألعب مع الأطفال . ولكن رأيها أن كل الأطفال لا أدب لهم ولا أخلاق .. وأنهم يلعبون في التراب .. وأنهم يمزقون ملابسهم ..

وعلى الرغم من أن جارتنا كانت حريصة على أن تزور أمي من حين إلى حين ، فإن أمي كانت تضيق بذلك .. وفي مرة وجدت أمي تقول لها . ابني مؤدب .. وأنا لا أحب أن يلعب مع ابنك .. أنا قلت له ألا يلعب مع أحد .. وقد أمرني أبوه بأن يظل الولد في البيت لا يخرج منه لا ليلاً ولا نهارًا إلا للضرورة ..

وفي يوم عدت إلى البيت باكياً .. ولما سألتني أمي قلت لها : إن الأولاد أحاطوا بي وانها لوا ضربًا وهم يقولون يا ابن أمك .. وأنا لم أرد على أحد ..

وإذا ذهبت إلى السوق اشترى شيئًا . فتوجيهات أمي صريحة . لا تبص يمينًا أو شمالًا أو تكلم أحدًا . أو تتوقف لأي سبب ..

وكانت أمي تظل مشغولة طول الوقت في الغسيل والطبخ وترتيب البيت وإطعام الطيور .. فلا يكاد يجيء الليل حتى تكون مرهقة تمامًا .. والنوم يجيء بسرعة بعد ذلك ..

فليست الحيوانات المتوحشة هي مصدر الخوف ليلاً ، ولكن الناس نهارًا ..

ولم أفهم لماذا لا أتحدث إلى جاري .. لماذا لا أزوره .. لماذا لا ألعب معه .. ولماذا لا أفتح

الباب لأي أحد مهما كان السبب تافهًا ..

وكانت أمي إذا جاءنا ضيف تشير إلى أن أجلس في صمت .. فأجلس لأسمع وأرى ولا

أتكلم . إلا إذا طلبت منى أن آتيها بكوب أو أفتح الباب .. وفي بعض الأحيان تطلب منى أن أجلس بعيدًا .. أو أن أجلس أمام الباب حتى تفرغ السيدات من الكلام الخاص بهن .. وفي كل مرة تقول وهي تبارك انسحابي في صمت وطاعة : ربنا يحرسه زى البنيت لا يرفع صوته ولا عينه ..

وكنا ننتقل كثيرًا بين القرى والمدن ، والناس تتغير صورهم وأصواتهم وعلاقاتهم .. أو محاولاتهم أن تكون هناك علاقات ، ولكنهم جميعًا بعيدون جدًا .. لا ألس أحدًا بيدي .. لا أصافحه .. لا أحاول أن أكون أقرب .. لا أحاول أن أجعل الجار زميلًا والزميل صديقًا ، والصديق عزيزًا أفرح حين اراه ، وأحزن حين أفارقه .. أبدًا .. لم يحدث شيء من كل ذلك .. فالمسافة بعيدة بيني وبين الناس ..

وكل الأطفال الذين عرفتهم عن بعد في الشارع .. أو عن قرب في المدارس يتحدثون عن البيت وبيت العائلة وعن الإخوة والخالات والعمات .. والعائلة .. والأقراح وأعياد الميلاد والذهاب إلى المقابر .. ولكنى لا أجد مناسبة لأن أقول كلامًا من مثل هذا .. أو حتى وجدتني أقول : أبى .. أو عمى أو خالى أو خالتي .. ولا وجدت في بيتنا كرة أو أية أداة من أدوات اللعب ..

سألت رجلًا اعتاد أن يجلس أمام بيتنا لأن بيته ملاصق لبيتنا . ما معنى وزير ؟

- قصدك خفير ؟

- لا .. وزير ...

- يا ابنى يبقى رجل عظيم جدًا ..

- طويل قوى .

- لا ليس ضروريًا ..

- سمين جدًا ..

- لا ..

- إذن ما معنى وزير ..

- واحد عنده بيت كبير .. وعنده فلوس كثيرة .. وعنده خدم في البيت .. وكل يوم يأكل

فراخًا وبطًا وأوزًا .. وله عائلة كبيرة جدًا .. والناس عندما يرونه يقفون له . وإذا أمر بشيء ، لابد أن ينفذ ..

- هل بابا وزير ؟

- لا .

- ولكنه طويل وعريض وكبير ويركب حصانًا والناس يحبونه ويصلون وراءه .. ويقول شعراً وهو طيب ويحب الناس .. وماما تريدني أن أكون وزيراً .. ولا أدري ما الذى أعمله ..

وضحك الرجل وهو يمسح رأسى بيده ويقول . ربنا كريم يا ابنى .. يعنى الوزير كان أصله ماذا ؟ كلهم إناس عاديون .. وأحياناً أقل .. ربنا يجعلك وزيراً يا ولدى ! .
وسمعت صوت أمى ينادى من الداخل . وأخذت تلومنى كيف أتحدث إلى رجل غريبة .. رجل أكبر منى فى السن .. ونحن لا نعرفه ..

وإذا قدم لى أحد شيئاً فأئننى لا أتناوله .. وإذا زرنا أحداً وقدموا طعاماً ، فأئننى أقول: عندنا فى البيت الطعام .. ومهما حاولوا فأئننى لا أمد يدي إلا إذا ماما قالت لى .. ومن النادر أن تفعل . وكانت فى بعض الأحيان تقول : إنه حر .. فليأكل وليشرب كما يريد فأنا لا أمنعه ! .

وكنت لا أفعل .. فعيناها تقولان : لا ..

وفى كل مرة يجىء الطبيب إلى والدتى تقول له : أريده طبيباً ..

وكان الطبيب يقول إن شاء الله ..

وتقول أمى سيكون بالمرضى رحيماً .. لأنه لا يطيق أن يرى أحداً مريضاً دون أن يتأثر لذلك .. وهو الذى يعمل الينسون .. وهو الذى يضع الماء على النار .. وهو الذى يعطى الدواء .. وهو الذى يوقظنى لكى آخذ الدواء فى مواعده .. وهو الذى ينام فى فراشى إذا كنت مريضة ..

ويضحك الطبيب ويقول : ولكن الطبيب لا يستطيع أن يفعل ذلك مع كل المرضى ! .
وعندما يزورنا أحد أعمامى وكان استاذاً فى الأزهر . كان يجدىنى اقرأ أى شىء .. أية

ورقة على الأرض أو لفافة .. كان يقول لوالدتي . يجب أن يذهب إلى الأزهر..
وكانت أمى دون مجاملة للرجل تقول . أعوذ بالله .. أبدًا ! .
ويندهش عمى لذلك فيقول لها : أنا أمامك محترم .
فترد وكأنها وجدت له عذرًا أنقذها من الحرج : يقولون إنهم يصابون بالعمى من
كثرة القراءة في الكتب ! .

ويضحك عمى لسذاجة أمى ويقول : بعضهم .. وأنا أمامك نظرى ستة على ستة ! .
ويسألنى عمى : عندك كم سنة الآن ؟
فأقول : أحد عشر عامًا .
وأمى تقول : الأول في المدرسة دائمًا ! .
ويسألنى : ماذا تقرأ الآن ؟
أقول : كتاب (أدب الدنيا والدين) .
فيرد عمى : ياه .. أنت مثل والدك تحب الحكايات والشعر ..
وتقول أمى : إنه قد حفظ القرآن الكريم ..
عمى سعيدًا : ماشاء الله .. الحمد لله .. ربنا يطرح فيك البركة يا ولدى ! .
وعندما كنت أجلس إلى جوار والدى يسألنى عن المدرسة والمدرسين ثم يسألنى .
وماذا تريد أن تكون يا ولدى عندما تكبر ؟
فكنت أقول له : مثلك يا بابا ..
- لا .. لا .. يا ابنى ..
- لماذا ؟

- لا .. لا .. يا ولدى .. فعملى متعب جدًا .. فأنا آخذ الأرض البور وازرعها.. عمل شاق
جدًا .. ثم إن أحدًا لا يقدر هذا العبء الثقيل .. لا .. لا .. أية وظيفة في الدنيا إلا هذه
الوظيفة ..
- لماذا ؟

- هل تحب إذا كانت لك زوجة وأولاد ، أن تكون دائمًا بعيدًا عنهم .. هل تحب بعد

- موتى أن تعمل بعيدًا عن ماما .. ولا تراها إلا مرة كل أسبوع ..
- ولماذا تموت يا بابا ..
- يا ابنى كل الناس سوف تموت .. لا .. لا .. يجب أن تكون لك وظيفة أفضل .. هذه الوظيفة تجيء بعد أن تكون تعلمت فى المدرسة وفى الجامعة ..
- لكى أكون وزيرًا ؟
- لتكون وزيرًا ..
- ولكن كيف يا بابا .. وبعد كم سنة ..
- بعد أن تتعلم وتتوظف وتجتهد فى عملك .. هل رأيت لما نجحت وكان ترتيبك الأول كيف كنت سعيدًا .
- لم أكن سعيدًا ..
- لم تفرح ؟
- لم أفرح ..
- والناس كلهم يقولون لك مبروك ..
- لم يقل أحد ..
- ماما قالت لك مبروك ..
- ماما نسيت لأنها مريضة وأنت لم تقل لى .
- مبروك يا حبيبى .. أنت عارف مدى حبى لك ..
- قل لى يا بابا لماذا نحن خائفون ؟
- من أى شىء ؟
- لا أعرف ..
- أنت خائف ؟
- نعم ..
- من أى شىء ؟
- من كل شىء ..

- أنت الآن خائف؟

- نعم .

- من ماذا؟

- من أن تسافر فلا تعود ..

- ولكنى أعود يا ولدى .

- من أن يأكلنى الذئب .

- الذئب؟ أى ذئب؟

- الذى يأكل الفراخ كل ليلة ..

- كل ليلة؟

- من قال لك ذلك؟

- ماما ..

- وهل رأيت الذئب .

- لا .. ولكنى سمعته وهو يقتل الدجاج .. وكذلك الثعلب .. والثعبان .. والعرسة

والعفاريت ..

- العفاريت؟

- من قال لك ذلك .

- ماما .. إنها تعرف كل شىء .. وما تراه فى الفنجان صحيح .. هى التى قالت إنك

سوف تجيء اليوم .. وسوف تكون معك أقفاص وصناديق .. وسوف يكون معك كلب

صغير ..

- هى قالت ذلك؟

- أى والله العظيم ..

- متى؟

- من ثلاثة أيام .. وقالت لى عشرين مرة إننى سوف أكون وزيرًا .. ولن أكون طبيبًا ..

ولا عمدة ولا مهندسًا .. ولن أكون فى الأزهر مثل عمى .. ولن أكون مثلك أبدًا ..

- هي التي قالت ذلك .

- نعم .

- متى ؟

- كل يوم وأمام كل الناس ..

فأمرى سيدة عارفة بكل شيء . وهي قوية . فكل أخواتها يلجأن إليها ويسألنها .
ويأخذن برأيها .. وكانت إذا غضبت مع واحد من أخوتها لا تذهب إليه .. بل هو الذى
يجيء ويعتذر ويقبل رأسها .. إن واحداً من أخوتها كان مريضاً . وقالوا إنه على وشك أن
يموت . ويريد أن يراها . فكانت تقول : يأتى على نقالة إلى هنا ويعتذر أولاً ! .
وتساند خالى هذا على إخوته وجاء واعتذر ! .

وأخذنى والدى من يدي وقال لى : تعال معى نتفرج على هذه الأرض المزروعة قطعاً ..
وكان أبى من حين إلى حين ينحنى على الأرض ويلتقط الأعشاب ويقلب فيها . ثم
يرميها على الأرض .

ويشير لى أن احترس وأنا أعبر إحدى القنوات .. ويمد يده يقبل فى زهرات القطن وفى
أوراقه .. وينظر إلى الورقة باهتمام .. ثم يخرج عدسة زجاجية من جيبه ليرى الدودة
والفقس والحشرات الأخرى ..

ثم انطلق عيار نارى فسقطت على الأرض . أبى هو الذى كان يحمل بندقية .. ولم
انتبه إلى أنه انزلها من كتفه وأطلق النار .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها
وأسمع عياراً نارياً .. ونظرت إلى والدى بخوف واحتراس .. ووجدت السدخان يخرج من
فوهة البندقية . وقال والدى . لا تخف . تعال لكى أفرجك على الذئب ! .

لقد أطلق النار على أحد الذئاب فأرداه قتيلاً . وجعل يشرح لى الفرق بين الكلب
والذئب . وكنت خائفاً . ولكن أبى هادئ الأعصاب .. وازددت تمسكاً بيده . وكلما نظرت
إليه وجدته هادئاً . وبعض السعادة على وجهه .. ثم أشار إلى كل شجرة . وجلس وأسند
ظهره إلى شجرة كبيرة وأسندت ظهرى إليه ..

ونمت . ووجدته ضاحكاً يقول : نوم العافية .. أنت نمت يا ولدى .. هل أخافك العيار

النارى ؟

قلت : نعم .. ولكن معك لا أخاف يا بابا .
والتفت ناحيتي يقول : لحظة واحدة .. انتظرني لحظة واحدة .
وبسرعة دخل حقل القطن .. ووجدت شيئاً يتلوى في يده .. ولف هذا الشيء في الهواء
ورماه على الأرض .. ثم ناداني . وذهبت خاتفاً . لقد أمسك ثعباناً من ذيله .. وبسرعة لفه
في الهواء ثم هوى به على الأرض . ومات الثعبان .. وهذه هي المرة الأولى في حياتي التي
أرى ثعباناً .. وإن كنت سمعت عنه عشرات القصص ..
أما كيف كانت صورة والدي في عيني .. فهو رجل طويل عريض قوى .. يقتل الذئب
ويقتل الثعبان .. الذئب يطلق عليه النار ، والثعبان هو الذي ينطلق وراءه ..
يفعل كل ذلك ويظل هادئاً لطيفاً رقيقاً ..
وفي الطريق استوقفه رجل يتوكأ على عصا . وقال يا عم محمد .
والدي يقول نعم ..
- الصداق سوف يفلق رأسي نصفين .. ربنا يجعل في أصابعك الشفا يا عم محمد ..
واقترب والدي من الرجل وراح يدعك جانبي الرأس بأصابعه .. ثم يتمتم بشيء من
القرآن الكريم . ثم يستخرج ورقة من جيبه ويكتب عليها .. ويطبّقها ويعطيها للرجل ..
وهو يقول له : باسم الشافي المعافي .. باسم بركة قوله تعالى : ونجيناه من الغم وكذلك
ننجي المؤمنين ...
وأبى أيضاً يشفي المرضى بفضل من الله وأسرار آياته الكريمة ..
وعند مدخل البيت وجدنا إناساً كثيرين .. وهم يمسون بطفل يبكي ويتمرغ في
الأرض ..
الأب يقول : يا عم محمد .. الولد عليه عفريت .. كاره يروح البيت .. وأمه حتموت
عليه .. يا عم محمد بركتك ساعدنا الله يساعذك على أيامك ..
ويقترب والدي من الطفل الذي استسلم تماماً . واقترب والدي وراح يلعب في شعر
الطفل . ثم يربت على خديه .. وينهضه ويحتضنه ويتمتم في أذنيه .. ثم يمسح وجهه وهو
حانئ الرأس يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

ورجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ونجيناك من الغم .. ونجيناك من الغم ..
ورجعناك ونجيناك .. ببركة هذه الآية الكريمة .. اللهم أعده إلى أمه كما أعدت موسى عليه
السلام ..

ونهبذ الطفل مع والديه !٩ .

والناس يقولون وكأنهم يهتفون ربنا يبارك فيك ويبارك لك يا عم محمد ...
تمنيت لو سألتنى أحد من الأطفال من هو أبى .. تمنيت لو رأى كل الناس ما الذى
فعله والذى الذى يؤذن للصلاة ويرتل القرآن الكريم ويحفظ الشعر.. وبأصابعه يخفف
الصداع ويشقى المرضى ويعيد الأطفال إلى أمهاتهم .. ولو رأت أمى ذلك .. أتمنى لو أقول
لها كل ما حدث .. أه لو رأت وسمعت ما رفعت صوتها على والدى فيسكت ولا يقول
شيئاً . وإذا قال فكلمة أو كلمتان .. ويغيب بعدها أسبوعاً أو أسبوعين .. ولكن لا بد أن
أمى تعرف كل ذلك .. ومن يدرى لعله عالج والدها أو اخوتها أو أمها .. من يدرى . ولكن
عندى رغبة قوية أن أقول لأمى كل الذى رأيت وأنى سعيد وفخور بكل ذلك..

وعندما جلست للطعام لم أمد يدي .. وإنما ظللت أتطلع إلى أبى ذلك الرجل الطيب
العظيم .. وكما سألتنى : لماذا لا تأكل ؟

أقول : شعبان ..

- ولكنك لم تأكل ..

- شعبان .

فما الذى رأيتة أشبعنى .. ملأ عيني وأذنى ومعدتى وعقلي .. مليون .. كلى مليون .. لقد
ملأ أبى كل مشاعرى .

وتسألنى أمى فأقول لها : تعبان ..

- تعبان ؟

- ثم تنظر إلى والدى كيف انه لم يعالجنى ..

ويسألنى أبى : مالك يا حبيبى ..

- تعبان .

ويضع يده على جبهتى ويقول : فعلاً .. أنت سخن ..
وينهض أبى من الطعام . وانفرد بها فأقول لها : يا ماما .. بابا أطلق النار على الذئب ..
مات الذئب .. وأمسك الثعبان فمات الثعبان .. وكل واحد شكوا من الصداع شفاه .. وكل
ولد هربان من المدرسة أعاده إلى المدرسة .. اليوم رأيت ذلك كله .. إنه أعظم رجل فى
الدنيا .. أكبر من أى وزير ..

أمى : عندك زجاجة الخل على الرف (وتقول ذلك لوالدى) .
وجاء أبى واقترب منى ورحت أقبل يديه .. ثم ملابسه .. وأبكى ..
وصرخت أمى : إيه المياعة دى يا ولد .. خليك راجل .. قل له يعمل زى الرجالة .. الولد
خرج معك مشوارًا واحدًا فرجع بالشكل ده .. ماذا عملت له .. ماذا قلت له .. كل الذى
أبتيه فى أسبوع تهدمه فى ساعة .. مد يدك للطعام وإلا قلبت الطعام فوق دماغك !
ونكست رأسى ولم أشعر بيدي ولا شفتى ولا بالطعام !

- ماما موجودة ؟

.. .-

- أنت لا ترد ؟ لماذا أنت زعلان على طول كده ..

ولم أكن زعلان . وإنما هو سؤال لا معنى له . فأمى موجودة دائماً . ثم إن التى تسأل عنها لا تنتظر حتى أجيب .. وإنما تدخل وبسرعة تجد نفسها فى وجه أمى .. ويبدأ الكلام الذى لا ينتهى . بعضه أسمع ولا أفهم موضوعه .. وبعضه همس .. والبعض الآخر يجب ألا أسمعه .. وبإشارة من يد أمى مع تكشيرة يكون معنى كل ذلك أن أخرج وأن أجلس أمام الباب ولا أبعد فقد تحتاجنى .. أو أبعد فاتحدث إلى بنات الجيران .. وكنت أحب ذلك .. وكان صمتى ووجهى فى الأرض هو الذى يغرى البنات بالكلام معى .. فهذا الصمت يغرى بالتحدث معى .. أو هو يغرى بالشعور بالأمان فأنا مختلف عن كل الأولاد .. أمى تقول ذلك وأنا حريص على هذا المعنى وهذا السلوك - أى انحناء الرأس مع الصمت ..

- يا صلاح ..

- نعم يا ماما ..

ثم تقول لى أى حاجة .. المهم أنها تتأكد من وجودى أمام الباب وحدى .

وكنت أتمنى أن تجيء جارتنا أم البنتين الجميلتين .. فالأم حلوة .. لها ابتسامة حلوة .. وعيناها جميلتان فيهما مودة وفيها دعوة لأن اقترب .. وكانت إذا تحدثت اقتربت منى

جدًا حتى تمنيت لو أنها احتضنتني ولو مرة واحدة .. وكنت ألاحظ ما الذى تقول ابنتها لها ، وفجأة أجد الأم تحتضن البنيتين سعيدة بذلك .

سألتنى : ماما جوه ؟

- أيوه تفضلى حضرتك .. أهلاً وسهلاً ..

وكانت لجارتنا أم البنيتين طريقة لطيفة في الكلام . فهي تضحك أولاً .. وكأنها تهين من يستمع إليها إلى أنها سوف تحكى شيئاً فكاهياً .. فتقول : والله هم يضحك وهم يبكى .. أبو العيال قال إيه بعث جواباً أمس يقول فيه لا تنتظرونى سوف أجيء يوم الخميس القادم .. وهل يظن أن أحداً ينتظره .. إنه رجل مفقود على طول .. داهية لا ترجعه ! .

وبسرعة تبكى . وبسرعة تقول لها أمى : ولكن فنجانك يا سعدية حلوقوى .. طيب إيه رأيك إنه يمكن يجىء اليوم وليس يوم الخميس .. والله أنا شايقة واحد مثله طول بعرض وعصاه في يده .. ووراءه واحد يحمل سلة كبيرة .

- بجد يا ست أم صلاح .. يا اختى تبقى لك الحلاوة ..

وفجأة تدخل إحدى بنتيها : يا ماما يا ماما .. بابا جه ! .

- أهى دى بقى مش معقولة يا ست أم صلاح .. باسم الله الرحمن الرحيم .. اللهم

صلى عليك يا نبى ! .

وحاولت أن أرى هذا الزوج الذى تشكوه ليلاً ونهاراً .. وتضحك من نوادره وتبكى بسرعة وتتهامس مع أمى وأرى التكشيرة على وجهيهما فأخرج بسرعة أمام البيت ! .

وأصبحت لا أتنبه كثيراً إلى من يدخل بيتنا من الأقارب والجارات .. هل أصبحت شيئاً مملاً . أو أن النوم كان يغلبنى وأنا جالس على الكرسي .. وهل هذا هو السبب فى أن جاراتنا يداعبننى داخلات خارجات .. هذه تمسكنى من أنفى .. وهذه من أذنى وهذه تقرصنى ..

وكانت تعجبنى السيدة عنايات .. إنها سمينة متوسطة القامة .. بيضاء ولها روائح غريبة تسبقها .. غريبة ولكنها لا تضايقنى .. وكانت تضع الغوايش الذهبية فى ذراعيها ..

وفى عنقها عقد ذهبي .. وتلم شعرها فى منديل أحمر بنقط زرقاء .. وكانت لها شنة ورنه ..
فعلًا تدخل بهيصة وتتكلم بصوت مرتفع ولا يمكن ألا يشعر بها أحد .. وأعتقد أن معظم
جاراتنا يستمعن إليها .. فصوتها عال وواضح الذبرة .. فهى قبل أن تدخل تدق الباب
المفتوح وتقول : أين كنتم بالأمس .. انتظرناكم على العشاء ..

وهى لا تتوقع منى أى رد .. وتدخل .. وتسلم وتجلس وهى تقول : قلت أقابل
الحيابىب عندك .. مادام أنت كسلت أمس ..
تقول أمى . أبدًا والله أنا كنت تعبانة ..
- أنا قلت كده ..

- وأنت كيف حالك ؟

- حالى زفت بعيد عنك .. المنيل على عينه بعث لى الفلوس مع أخيه وعامل عيان عند
الست الجديدة .. يقطعه ويقطعها .. أنا فى يوم من الأيام كنت جديدة .. وبكره هية كمان
تطلع لها واحدة جديدة .. ما هو المنيل زى أبوه .. اتجوز أربع مرات ولا خمس مرات ..
عينه فارغة .. والواد محروس ابنى امبارح سمعته يقول لأخته : لما أكبر حتجوز عشر
مرات .. حيجييه منين ؟ زى أبوه وأبوه زى جده ؟ . قطيعة الجواز والخلفة والرجالة ..
جات لك أم عليش الدلالة ..
- لا .. يمكن النهارده ..

والدلالة هذه هى أهم شخصية .. فهى سيدة لطيفة عندها حكايات من كل مكان
تنقل ما تراه وما تسمعه من بيت إلى بيت .. وتقسم دائمًا أن الذى تراه سوف يبقى سرًا
وأن الذى تسمعه سوف يبقى سرًا .. وعندما تجيء الدلالة انطلق أنا إلى جارتنا أم حسنين
وجارتنا الست عنايات .. وجارتنا الست دولت .. وانهى إليهن الخبر السعيد بمجىء
الدلالة الست حلاوتهم .. وحكايات وأخبار الدنيا أهم كثيرًا جدًا من الأقمشة والجلاليب
والعقود والأقراط والشباشب التى تحملها على رأسها .. وتحملها ابنتها وراءها ..
وأنا أجد متعة فى حضور الدلالة فهى تحكى عن إناس لا أعرفهم . وأمى تنشغل
تمامًا بهذه الحكايات فلا تنتبه إلى وجودى ..

وفي إحدى المرات سمعتها تسأل أمى . وبسلامتها إزيها دلوقت ..
وترد أمى مهمومة : والله ما أنا عارفة يا حلاوتهم .. قالوا لى عيانة وأمى تراها من حين
إلى حين .. وأبوها لا يريد لها أن تجىء لزيارتى .. وقلبى واجعنى عليها ..
- أنا زرتها امبارح .. بتسلم عليك وتبوسك من هنا ومن هنا .. وفرحت جداً بالفستان
الذى بعثت به .. وتشكرك .. ولما سألتها أبوها عن مصدر الفستان قالت له : أمى هى التى
اشترته .. فقال لها : أحرقيه بالجاز .. فقالت : أنا سأحرق نفسى قبل أن أحرق
الفستان .. وأنت تعرفين ماذا حدث بعد ذلك .. ضربها بالقلم وألقى بها على الأرض ..
- يا حبيبتى يا بنتى .. قدر ومكتوب يا حلاوتهم .. وأنت فاكره إن بعدها عنى سهل ..
والله دمعتى على خدى كل ليلة ..

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أعرف منها أن لى أختاً غير شقيقة .. ولا أعرف كم
تبلغ من العمر .. لا بد أنها أكبر منى .. ولكن لا أمى ذكرتها ولا أحد من أقاربنى .. وتمنيت
أن أراها .. لى أخت .. كيف هى .. شكلها .. لونها .. لماذا لا تعيش معنا .. أراها وأتحدث
إليها .. فكل الأطفال لهم اخوات بنات ..

وبعد أن سمعت الدلالة وهى تعرض بضائعها على أمى وصاحباتها هجمت عليها
وأقول لها : أريد أن أرى أختى .. أريد أن يكون لى أخت ..
واندهشت السيدات .. ولكن أمى فى هدوء وارتياح قالت : سوف آتى بها هنا
يا جيبى .. غالى وطلبه رخيص ! خلاص إن شاء الله .. أنا عارفة انك سوف تحبها .. أنت
طيب وهى طيبة يا ابنى .

وكل يوم أسأل أمى : هل هى شبهك يا ماما ..

- نعم .. ولكنها سمراء ..

- طويلة ؟

- أطول منك .

- وعيناها ..

- جميلتان .

- وشعرها ..

- طويل على كتفها .. يا واد انت حتجوز أختك ..

- هل تحبني يا ماما ؟

- سوف تحبك ..

- ولماذا لا تجيء .. أو لماذا لا أذهب إليها ..

- إذا جاء خالك .. فإذهب معه لترها ..

وكان هذا أهم حدث في حياتي في ذلك الوقت .. لى أخت .. حلوة .. أطول منى وأكبر منى .. أنها أمى الصغيرة .. إنها صديقتى سوف أحكى لها .. وتحكى لى .. ونجلس معًا أمام الباب ونذهب معًا إلى المدرسة .. وسوف أنظر إليها بلا خوف .. وكل من يسألنى فيأتنى سوف أقول له : إنها أختى ..

ولى اخوة غير أشقاء .. ولكن لا أراهم كثيرًا .. ولا يدور بيننا حديث .. ولا أعرف لماذا لا يجيئون إلى بيتنا . ولا أعرف أين بيتهم . ولم أحاول أن أذهب إلى بيتهم . لا حاولت ولا دعانى أحد لذلك . وفى إحدى المرات لاحظت أمى اننى قد أمسكت بواحد من إخوتى فى طريقنا إلى بيته . ولكن أمى فى صوت رادع قوى : لا تذهب إياك أن تذهب ! .

ومعنى ذلك أن اخوتى يجب أن تظل علاقتى بهم هنا فى بيتنا . لا أبعد ولا أعمق .. زوار مثل كل الزوار .. زيارة وتنتهى العلاقة . ولكنهم اخوتى .. ولم أفهم لهذه العلاقة معنى . ولا حرصت على ذلك .. فهم مثل كل الناس الذين أراهم فى البلاد التى تنتقل إليها ونسأهم عند سفرنا .. ولا أعرف لهم اسمًا ولا رسمًا ولا من الضرورى أن أشتاق إليهم .. أو أسف على تركهم .. إنهم إناس يمرون فى حياتى ، أو تمر بهم حياتى .. ويكون الدور نسيانًا سريعًا .. فلا صديق ولا جار ولا أخ ..

إلا أختى هذه فأنا الذى أريد أن أراها وأن تكون معى ..

أما أسعد الأيام فهى عندما تجيء خالتى « أم أحمد » .. وليس لها ابن اسمه أحمد .. وهى أجمل من رأيت فى كل حياتى قبل وبعد ذلك .. وأعمق من أحببت .. لقد كانت أمى فى حضور أمى وفى غيابها . وكنت أجد نفسى فى حضنها .. وأمام أمى أنام على ركبتيها ..

وأمام أمى وكل الناس أقبل يديها .. وأجلس ملاصقًا لها .. فتلف ذراعيها وتقول : أنت ابنى ..

وأنا أقول لها : وأنت أمى ..

وتقول لى : أمال أمك دى تبقى إيه ..

فأقول لها : ولكن أنت أمى أكثر وأكثر ..

وتضحك خالتي وتقول : واحدة سكر شوية .. وواحدة سكر زيادة ..

كنت أرى وجه خالتي مستديرًا مضيئًا .. والله كان مضيئًا .. لا أعرف كيف .. والله لم يكن هذا الذى يجرى تحت بشرتها إلا نازًا هادئة مضيئة دافئة .. أما عيناها فسبحان الله .. واسعتان عسليتان .. ورموشها طويلة سوداء .. وهذه غمازة هنا وواحدة هناك .. وحسنة على الجانب الأيسر من وجهها .. وأذناها حمراوان .. وعنقها فى لون بشرتها مضيء أيضًا ..

أما إذا غنت خالتي فأجمل صوت .. فى صوتها بحة انثوية .. وكلامها العادى كأنه غناء أيضًا . وكنت أجد نفسى دون شعور منى أضع أذنى على صدرها أسمع صوتها .. الذى يخرج من أعماقها .. وكانت تضحك خالتي وتقول لى . الواد بيلعب فى بطنى ..

وتقول أمى : إن شاء الله ربنا يرزقك باللى يشرح قلبك ..

وكانت خالتي لا تنجب ..

ولم تكن سعيدة ..

وفى يوم سألتها : خالتي عندك أولاد ؟

- لا يا حبيبي .

- لماذا ؟

- حكمة ربنا .

- يعنى إيه .

- ربنا مش عاوز !

- ومش عاوز ليه ؟

- فيه حد يسأل ربنا .. دى حكته ..
- مش فاهم ..
- ولا أنا يا حبيبي !
أمى تصرخ : أسكت . امش اطلع بره !
خالتي . لا .. لا يا شيخه وهوه قال حاجة غلط .. مهما كان عييل .. اقعد يا حبيبي ..
أنت ابنى .. وأنا مبسوطة .. أنت مش عارف انى أحبك .
- عارف ..
- أكثر من أى حد فى الدنيا .
- وأنت كمان .. أنت أكثر من أى حد فى الدنيا .. أنا عاوز أعيش معاك يا خالتي ..
- ونسيب ماما ؟
- أزورها كل يوم ..
- تزورها ..
- يا خالتي أنا عاوز أتكلم معك .. أريد أن أتكلم .. وأن أسأل وأن أعرف .. ماما
لا تريدنى أن أتكلم ولا أن أخرج ولا أن أتكلم مع أى أحد ..
- إنها تخاف عليك يا حبيبي .. الناس وحشين ..
- كل الناس ؟
- لا .. مش كل الناس .. لكن لأنك صغير فأنت لا تفرق بين الكويس والوحش .. عندما
تكبر افعل ما يعجبك يا حبيبي .. ألسنت تحب ماما ..
- أحبها جدًا ..
- هل تتركها وحدها .. أنت رجل البيت فى غياب بابا ..
- طيب أعمل ايه إذا كنت عاوز ابقى معاك ومعاه ؟
- أسهل اننى أجيء لك كل يوم وأجلس معك لحد ما تزهد منى ؟
- بالليل يا خالتي إننى أنهض من نومى والدموع على خدى ولا أعرف السبب .. وفى
أحلامى أجدنى كل ليلة ملقى فى بئر مظلمة والحبال التى تتدلى كلما أمسكتها تقطعت

وأصحو من نومى صارخًا .. كل يوم ..

- بسم الله الرحمن الرحيم ..

وتنظر إلى أمى .. وأمى تهز رأسها بالموافقة على أن يبخرونى ويرقونى من عين رأت

ولم تصل على النبى ..

وبسرعة توضع بعض الأخشاب فى علبة صفيح ويلقى عليها بعض الجاز وتضع

خالتي البخور وتطلب منى أن أخطو سبع مرات فوق النار .. ثم تأخذنى فى حضنها

وتقول لى : خلاص يا حبيبي .. ألف سلامة لك ! .

وتتردد أمى كثيرًا فى زيارة بنت خالة لها تسكن عند نهاية الشارع . ولكنها تستعد

لهذه الزيارة بأن أرتدى جلبابًا نظيفًا جدًا . وجوربًا أبيض . وجزمة سوداء لامعة . وأمى

ترتدى فستانًا جديدًا . وفى كل مرة تذهب لهذه الزيارة تقول لى هذا واجب يا ابنى ..

وهذه سيدة كلامها كثير . أهى زيارة والسلام ..

وقبل أن تصعد السلم تقول دائمًا : أنت عارف أن عندها بنتين .. وبناتها من بنات

اليومين دول .. وأنت يا ابنى مستقيم وطيب وتصلى وتخاف ربنا .. وحافظ القرآن وربنا

يحميك .. والبنات دول يضحكون على عقول الشبان .. وأنا عارفه أن ربنا معاك .. فأنا

أدعو لك ليلاً ونهارًا وربنا سوف يكرمى بك ويعوضنى عن صبرى .. دروسك فقط

يا ابنى .. ولن ينفعك فى الدنيا كلها إلا عملك وإلا مركز وأخلاقك وفلوسك .. وأنت أمامك

طريق طويل يا ابنى . وإذا كان ربنا حفظك حتى الآن فلأنك لم تنشغل بأى شىء عن

الكتب .. لا تنس يا ولدى .. إنهم أغنياء .. وممكن أولادهم يسقطوا سنة وعشرين .. ولكن

أنت يا ولدى يجب ألا تسقط فى الدراسة أبدًا .. أبدًا . وربنا معك ..

ولم أكن أفهم ماذا يمكن أن عمله بنت إذا رأيتها أو إذا تكلمت معها .. لم أسمع واحدة

تقول لى : لا داعى للمذاكرة .. أو اترك الكتب .. أو اترك المدرسة .. لم تقل واحدة لماذا لا

نلتقى .. إننى أتذكر كل ما تقوله الفتيات إذا جلست إليهن .. وأعيد كل ما قلن كلمة كلمة ..

ولا أجد شيئاً يدعو إلى الخوف .. ولا أفهم مخاوف أمى ..

مرة واحدة لاحظت أمى إننى أحمل قرطاسًا من البلح الزغلول وسألتنى : لمن هذا ؟

فأشرت بيدي إلى الضيفة التي عندنا ..

قالت : ست انشراح ؟

قلت : نعم .

- وما الذى أتى به هنا ؟

- ابنتها أميرة تركته معى ثم ذهبت إلى البقال وسوف تعود بعد لحظات ..

- هذه آخر مرة .. لا تفعلها مرة أخرى !

- حاضر يا ماما ..

ولم أفهم ما هى الغلطة التي ارتكبتها وإن كنت وعدتها ألا أعود . ولكن أمى لا تريد أن

تكون لى أية صلة بالبنات من أى نوع وفى أى وقت !

وقد لاحظت أن زملائى يتكلمون مع البنات ويضحكون . ويأكلون السندوتشات .

ويقفون فى الشارع وأمام باب المدرسة .. وقد أقسمت لأمى أنى رأيت ابن عمى وهو

جالس مع فتاة على عتبة بيتها هى ويتكلم معها .. بينما أمها لم تقل لها شيئاً .. ولا أمه

قالت له أى شىء .

ثم أتيت بالمصحف وأقسمت أننى لا أكذب . وقلت لها : والله العظيم والله العظيم ..

والا أروح النار .. لقد أعطاهما نصف السندوتش وأخذته وأكلته .. تصورى !

وكأننى لم أقل شيئاً . فاقتربت أمى وهى تقول : أنت شكل تانى يا ولدى .. هل تريد

أن تغضب عليك أمك !

- لا .

- إذن ؟

- حاضر يا ماما ..

- يحضر لك الخير يا ابنى !

www.alkottob.com

عند أمى نوعان من الناس ..

الأقارب أسوأ الناس ..

والجيران أقل سوءا ..

ولكنها تفضل المسيحيات . لماذا ؟ لم أفهم ..

فإذا التقت بالست أم عزيز سألتها : لماذا لا تزورينا ؟

ويكون رد أمى سريعاً . إن شاء الله بكره ..

- تشرقى وتأنسى .. بناتى تحبك كثير قوى ..

- وأنا أيضاً .. حتى ابنى يحب بناتك .. ويقول عليهم .. أجمل بنات المنصورة ..

- هوه كمان مؤدب وإن شاء الله سوف يكون شيئاً هاماً يفرح قلبك ..

- يارب ياست أم عزيز ..

وبيت الست أم عزيز يبعد عنا ثلاثة شوارع .. يعنى بعيد إلى حد ما .. ولكن أمى حريصة على أن نذهب إلى الست أم عزيز .. وأحب شىء فى بيت الست أم عزيز أن عندها بلكونة كبيرة . ثم أن الست أم عزيز تفتح الفنجان والكوتشينة . وأمى تقول إنها تتنبا بأشياء كثيرة مضبوطة .. وكانت الست أم عزيز تتقاضى أجراً عن قراءة الفنجان . ولكن بعد أن مرض ابنها عزيز قررت أن يكون ذلك لوجه الله .. وألا تعمل على الاساءة إلى أحد .. ويقال إنها كانت تبيع « العملات » - بفتح العين والميم - وأن بعض هذه العملات كان تخرب البيوت وتفرق ما بين الأزواج . ثم قررت بعد أن شفى ابنها عزيز أن تعمل الخير

فقط .. فلم يكن أحد يتوقع لابنها عزيز أى شفاء ولكنها زارت كل الأولياء وكل القديسين
وذبحت وأشعلت الشموع .. وشفى ولدها عزيز..

وأى كانت تصف الست أم عزيز بأن لسانها حلو .. كل كلامها حلو .

فأول لحظة دخولنا البيت تقول الست أم عزيز : خطوة عزيزة .. والله احنا فى سيرتك
من أول امبارح .. وأنا وعزيز ابنى قررنا أن نزورك .. فقد جاءنا بلح من الصعيد يستاهل
بقك .. وطلبت من مادلين بنتى إنها تزورك وتسال عن صحتك ..

- أيوه قسايلتها .. حلوة قوى .. ربنا يفك عقدها .. جمال وكمال . أدى العرايس والا
بلاش..

- من ذوقك ..

- والعذرا أنا لم أذق طعم البلح وقلت لازم نأكله سوا .. هات يا ألفت .. هات يامادلين..
امال صلاح فين ..

- قاعد مع حبايبه .. أنا لم أر ابنى يحب أحداً قد مادلين وألفت .. ويقول لى . يا سلام
يا ماما لو كانوا إخوانى ..

- إخوانه .. وهو أعز عليهم من أخوهم عزيز .. زيه بالضبط .. ربنا يديم المعروف ..

- أنا مش عارفه بيتكلم فى ايه .. أنا شايفاه ما يبطلش كلام ..

- دى مادلين وألفت بيقولوا لى . يا ماما .. ده عنده حكايات ونكت .. وحاجات قرأها فى
الكتب .. حاجات ما بتخلصش أبداً .

- إبنى عنده حكايات .. وعنده نكت .. والله فى البيت لا يفتح فمه بكلمة .. ولكن لما

بيجى هنا يبقى سعيد .. وعلى راحته .. ربنا يبسطه وربنا يسعدهم..

وتجىء مادلين ومعها سلة من بلح الزغلول .. وتسالها أمى : بيقول لكم إيه الواد
الغلباوى ده ..

- والله يا طانط ده عنده حكايات ملفوفة فى خيط واحد .. أنا مش عارفة بيجيب الكلام

منين .. يا بخت اللى حتتجوزه .. مش حتزهق منه أبداً ..

- والله يا بنتى أنا مستغربة .. ده فى البيت ما بيفتح بقه بكلمة واحدة . غير : حاضر

ياماما .. حاضر يا ماما ..

- منتهى الأدب يا طانط .. ربنا يحميه .. مقيش أولاد بالشكل ده دلوقت ..
أما طانط مارسيل فهى التى تجىء بنفسها وتسال إن كانت أمى تريد شيئاً من
السوق .. وإذا جلست ، فإنها تخرج من حقيبتها علبة وفى هذه العلبة بن مخصوص فيه
الحبهان والمستكة وأشياء أخرى لا أعرفها . وهى لا تشرب إلا هذا البن .. وهى التى تقوم
وتضعه بنفسها .. وهى أرملة . وزوجها ترك لها خمسة من الأولاد أصغرهم زميلى فى
المدرسة . وهو أسمر نحيف طويل . وأنا أكبر منه بستة شهور - طانط مارسيل هى التى
تقول - وهو لا يشتري سندوتشات من الرجل الذى يقف أمام المدرسة . وإنما أمه تضع
له السندوتشات فى البيت ويأخذها معه .. سندوتش جبنة بيضاء .. وسندوتش حلوة
طحينية .. وبعد ذلك كان يحمل معه سندوتشين من الجبنة وسندوتشين من الحلوة
الطحينية ويقول لى . ماما عملت لك دول .. هى التى عملتهم وطبعاً أنت تحب عمائل
ماما.. تفضل .

كل يوم . وإذا لم يجدنى فإنه يمر ببيتنا ويترك لى السندوتشين وهو يقول : إذا عدت
بهما إلى البيت فإن مامى سوف تفضحنى وتبهدلنى .. أرجوك !

وكانت أمى تقول : لا تكسف أخوك .. متشكرين يا حبيبى سلم على ماما ..

- وهى كمان بتسلم عليك يا طانط ..

- إزاي الست حنونة ..

- الحمد لله يا طانط .

- سلم عليها يا حبيبى وقل لها ألف سلامة .. وإن شاء الله حازورها بكره ولا بعده ..

- يوصل يا طانط ..

- أخرج معاه يا ابنى لحد الباب واشكره ..

أما صاحب البيت الذى نسكنه فهو مدرس اللغة الإنجليزية فى المدرسة وزوجته
اسمها مدام بركات .. والناس يقولون إنها يهودية ..

يعنى إيه يهودية ؟ يعنى إيه مسيحى ؟ لا أعرف .. ولكن هم أناس مختلفون . فى ماذا؟

لا أعرف .. إنهم لا يذهبون إلى المساجد وإنما يترددون على الكنائس .. ليسوا مسلمين لكن ما هو الفرق ؟ لا أعرف . ولكن هناك شيء غريب يظهر على وجوه الناس وفي كلامهم كلما تحدثوا عن واحد مسيحي أو واحد يهودي .. هل هو نوع من الاستغراب .. من الاستنكار .. من التعالي .. من الخوف .. من الكراهية .. لا أفهم . وأمى لا تقول . ولكن ألاحظ أنها تستريح إلى هذه الناس التي تختلف عنا .. تختلف والسلام ..

أما زوجة صاحب البيت فالناس ينادونها : مدام بركات .. وقد عرفت فيما بعد ذلك بوقت طويل أن اسمها مدام بوركهارت.. وهى يهودية ألمانية .. جاءت إلى المنصورة مع إبنها سام .. سامى .. ابنها الوحيد .. واشترت هذا البيت .. وزوجها مدرس اللغة الإنجليزية .. وهى تسكن الدور العلوى .. ولم يحدث أن ذهبت إليها .. فزوجها مدرس فى غاية القسوة والعنف . ثم إنه صاحب البيت .. وفى كل مرة أذهب إليه بالايجار ثمانين قرشاً فإننى أضعه بسرعة فى يد ابن مدام بركات أمام باب البيت فى الشارع .. فأنا انتظره حتى يجيء ولا أصعد إلى الدور العلوى ، خوفاً من رؤية هذا المدرس المكفهر الوجه دائماً .

وفى يوم مرضت أمى . وجاءت مدام بركات تزورها . وطلبت أمى أن أصنع لها قهوة سادة .. وقدمت لها القهوة . وطلبت منى أن أجلس إلى جوارها لأنها تريد أن تتحدث معى .. ورأيتها لأول مرة بعد أن سمعت كلاماً كثيراً عنها وعن حكاياتها .. عن كرمها وأدبها ومساعدتها للمرضى والفقراء وزيارتها لكل مريضة .. وكانت لغتها العربية فيها لهجة مختلفة .. حتى مشيتها مختلفة .. فهى طويلة عريضة شديدة البياض . وشعرها أسود . وعيناها سودوان ووجنتاها حمراوان ورقبتها ممدودة . وإذا جلست كان صدرها عالياً . وطريقتها فى الكلام واثقة أمره . ولكنها فى غاية الرقة . ومجاملة جداً . قالت لى . أنا سوف أعطيك دواء لماما .. وأنا سوف أعلمك كيف تذيبه فى الماء الدافئ وكم مرة فى اليوم وبعد الأكل . لقد جربته وأعطيته لابنى سامى وشفى فوراً . تعال معى !

ونظرت إلى أمى فقالت : روح مع مدام بركات يا حبيبى ..

وسبقتنى مدام بركات على السلم . ووجدت زوجها أمامها .. ونزلت من السلم . وهى

بسرعة تنبهت إلى ذلك فراحت تضحك وتقول . يا ابراهيم أن الولد يخاف منك .. تعال يا حبيبي لا تخف .. تعال ..

ونزلت وأمسكت يدي .. وهى تقول : مش تتعرف على ابنى سامى .. إنه يريد أن يكون له صديق مثلك .. مؤدب ويحب القراءة .. إن سامى سيكون سعيدًا جدًا لرؤيتك .. تعال ..

أول شيء رأيته فى الشقة إنها ملآنة .. فيها أشياء كثيرة جدًا ملآنة بالمقاعد والمناضد والدواليب .. والأرض مغطاة بالسجاجيد .. وعلى الجدران صور .. وفى الأركان ورد .. والجدران بيضاء .. كل شيء مضيء .. ولا أعرف مصدر النور .. وفى البيت رائحة غريبة .. لم أعرفها من قبل .. وسمعتها تنادى : يا سام .. تعال .

وقالت وهى ضاحكة : وهذا هو ابنى . وهذا هو صلاح .. يجب أن تجلسا معاً .. فهو يقرأ مثلك .. وهو مؤدب .. أخرجنا معاً وتقسحا .. واذهبا إلى المكتبة .. دقيقة واحدة .. ودخلت . ووقفت أنا وسامى وكان هو أول من تكلم فسألنى : هل قرأت قصص أندرسن ..

- لا ..

- هل قرأت كليلة ودمنة ؟

- نعم ..

- هل تعرف قصة أليس فى بلاد العجائب ..

- نعم .

- وأنت هل تحفظ شعراً ؟

- القليل بالإنجليزية والفرنسية والألمانية ..

- كل الشعر الذى أحفظه بالعربية فقط ..

- أنا أحفظ القليل بالعربية ..

- هل قرأت كتاب أدب الدنيا والدين ..

- لا .

- هل قرأت قصيدة (البرده) .

- لا .

- أنا أحفظها كاملة .. هل قرأت قصة زينات .

- لا ..

- هل قرأت (الحب والدسياسة) للشاعر الألماني شيلر ..

- لا .. أنا سوف أريك ما عندي من كتب وأنت تريني ما عندك من كتب .. وإذا أردت

أن تتعلم اللغة الألمانية أو الإيطالية فأنا سوف أدلك على من يعلمك ؟

- أتمنى .

- غذا نذهب معًا ..

وكان سام هذا هو أول طفل قريب من سننى أندھش له وأعجب به .. فهو يعرف عدة

لغات . وهو يقرأ بها .. وعنده مكتبة كبيرة . وعنده حكايات وقصص ونوادير .. وهو

نظيف الملابس .. دائماً ملابسه نظيفة .. وإذا تحدث عن أمه قال مامى .. ويقول .

حضرتها .. وأمى الحبيبة .. وحببيتى ..

وإذا اشترى شيئاً فإنه يقاسمنى .. وقبل أن يشتري أى شىء يسألنى إذا كنت أريد

نفس الشىء أو شيئاً آخر .. وفى كل مرة أرفض فإنه يصر على أن يعطينى مما يشتري .

ويرى انه عيب جداً أن أرفض ..

ودهشتى لا تنتهى من هذه النوعية الغريبة من الناس ..

وفى يوم ذهبنا إلى محل حمص ولب .. واشترى قرطاساً من اللب ثم قرطاساً من

الحمص وأعطانى .. ثم اشترى قرطاساً من السودانى بالسكر وقال هذا لطانط .. فقد

لاحظت انها تحبه عندما كانت فى زيارتنا من أسبوع ! .

شىء غريب عجيب . وسلوك غير مألوف . وهو يفعل ذلك بلا تكلف .. وإنما يرى أن

هذا عادى جداً ..

فى يوم سألته بعد أن أصبحنا أصدقاء قل لى أنت عندما تصلى تذهب إلى الكنيسة

أيضاً ..

- لا .. لنا معبد خاص . وإذا أردت أن تجيء معي ؛ فليكن ذلك غدًا عند الفجر ..
استأذن من طانط ..
وذهبنا معًا .. إنه مختلف عن الكنيسة .. ولكن لم أفهم ما هو الفرق بين هذا وذاك ..
ولا بين المسيحيين واليهود .. ولماذا هناك فرق ؟ ولم ألاحظ أن هناك فرقًا في أى شيء ..
وفي مرة قلت لإحدى خالاتي : أن صديقي عزيز .
قالت : نصراني ؟
قلت : نعم .
قالت : أعود بالله ؟
واندهشت لذلك .. فقلت لها : ولكن عزيز مؤدب ولطيف ومجامل جدًا . وأمه تحبنا
وماما تحبها .. وبناتها في غاية الجمال والأدب ..
خالتي وأنت مالك ؟
- مش فاهم .. عندهم كتب وعندهم اسطوانات ..
- لما تكبر سوف تفهم ! .
وأذكر اننى قلت لخالى وهو رجل ظريف وسيم وابن نكتة : إن لى صديقًا فى هذا البيت
اسمه سامى .. وأمه مدام بركات .. وهى يهودية .
- يهودية مرة واحدة .. يعنى من قلة المسلمين ..
- مش فاهم .
- وده بقى شكله إيه ؟
- شكله نظيف .. وكلامه حلو .. وبيقرا كتبًا كثيرة وبينكلم سبع لغات .. وأنا أحبه
وماما تحب أمه ..
- إيه الكلام الفارغ ده يا ولد .
- إيه يا خالى ! .
- يهودى ؟
- أيوه . يعنى إيه .. إنه أول واحد قلت له أن لى أختًا غير شقيقة وأننى أحبها جدًا ..

- حد يعاشر الناس دول ؟!

- ليه ..

- أنت حتقعد تسألنى ليه .. ليه .. أهو كده وخلاص !

وذهبت من فورى ودفعت باب سام وقلت له : سام أنا عاوز أقعد معاك.

- أنت ابن حلال .. أنا كنت سأناديك .. ماما سافرت .. وتركت كمية من الطعام .. ولا

أعرف أن أكل وحدى .. الحمد لله الى أنت جيت .. قل لى بقى قرأت إيه أخيرًا .

وظللنا نتناقش فى الكتب . وأراه وهو يتكلم وهو يأكل وهو يشرب .. وهو يقدم لى

الطعام .. وبعد ذلك الفوطه والصابونة . ثم الشاي .. ويأتى بعدد من الكتب .. ولا أرى

أية غرابة فى سلوكه .. إنسان طبيعى .. فى غاية الرقة .. ودود .. ولا يريد إلا أن يكون

صديقًا وأنا أيضًا !

أما صديقى عزيز فقد ورث صناعة والده فهو يصلح الساعات والمنبهات .. وفى يوم

عرض أمامى عددًا من المنبهات وكيف فكها وأصلحها .. ثم أعطانى منبهًا . وأقسم

بالمسيح وحياة طانط ألا يأخذ مليمًا .. لأن هذا المنبه جاءه .. ببلاش ..

ونظرت إلى عزيز .. له عينان وشففتان وخمسة أصابع فى كل يد .. ويتكلم العربية ..

وأمه جذابة .. وأخواته جميلات .. وبيته مفتوح فى أى وقت .. ويرحب بى ويصافحنى

ويسأل عن صحة أمى جادًا صادقًا .. ولا أجد فى سلوكه أى شىء شاذ يبعث على الشك

أو الخوف أو يدعو إلى الاحتراس والابتعاد !

لا خلاف لا اختلاف بين كل الناس من كل لون ودين .. ولكن لماذا اناس مستعدون

دائمًا لوضع فواصل وهمية ومخاوف مزيفة لتمزيق العلاقات الإنسانية .. لماذا ؟ لم

أعرف ..

وعندما رأتى واحد من أعمامى أننى أجلس فى إحدى الحدائق مع سامى وعزيز فقلت

له : سامى بوركهارت يهودى .. وعزيز قلدس مسيحي .

انزعج عمى قائلًا : ما هذا ؟ واحد يهودى وواحد قبطى ؟! وأنت إيه درزى ؟ هذا هو

السبب فى أن ابن عمك يهرب منك .. لأنك ملموم على شوية كفرة ..

قلت له : ولكن ابن عمى هذا يشتم أمه .. أنا رأيته يلقي بالطعام في وجهها !.. والله العظيم يا عمى أنا رأيته بعينى .. وهو يعاكس البنات .. وهو لا يحب الكتب ..

- من الذى قال لك ذلك ؟

- هو الذى قال ..

- إنه كذاب .. هو الذى قال لك إنه يشتم أمه ..

- لا أنا سمعته .. ولم يخجل من ذلك ولا اعتذر لها .

- يا سلام .. يا واد يا مؤدب أنت ؟ وأنت لا تتخاف مع أمك .

- لا ..

- وإذا ضربتك ؟

- حتى إذا ضربتنى ..

- والكفرة دول همه اللى علموك الأدب ؟ إياك أشوفك معاهم مرة ثانية !

- وانصرف سامى وعزيز ..

واعترضت لهما عن الذى حدث .. ووجدتنى فى حاجة إلى أن أؤكد صداقتى لهما .. وكانا أعز الأصدقاء ..

www.alkottob.com

قرأت رواية مترجمة إلى العربية عنوانها « أيام في قرىتي » .. ولا أذكر اسم مؤلفها .
واعتقد أنه كاتب فرنسي ..

وأما الاكتشاف الذى وجدته في هذه الرواية فهو أن إحدى شخصياتها كانت تنظر من
ثقب الباب على خادمة تستحم .. وكان ذلك حدثاً مثيراً جداً .. قرأت الصفحة مرة ومرة ..
واندهشت كيف أن أحداً قد اهتدى إلى هذه الحيلة لكى يرى فتاة في العشرين تلع
ملابسها وتنظر إلى نفسها في المرآة وتدور .. وترى نفسها من الأمام ومن الخلف .. وكيف
انها تتحسس جسمها بيديها . بيديها وكيف انها تلم شعرها . ثم تنشره على وجهها
وعلى كتفيها .. وكيف ترتدى ملابسها ثم تخلصها .. وتبدل ملابسها وفي كل مرة تقف
أمام المرآة .. وكيف تضع وردة في شعرها ثم في شفيتها .. ثم في صدرها .. ثم كيف تقبل
كتفها هذه وكتفها تلك .. ثم تقبل ذراعيها .. ثم تداعب نهديةا .. ثم تستدير لترى ظهرها .
ثم تتمدد على الأرض وتتقلب يميناً وشمالاً .. ثم تنام على ظهرها .. ثم على وجهها ..
لا أعرف كم مرة قرأت هذه الصفحات .. وكم مرة تخيلت .. ثم أخفيت هذا الكتاب
وكتبتاً أخرى في مكان بعيد .. لكى أعود إليها وأقرأ .. ولا أذكر أننى حدثت أحداً عن ذلك ..
وعلى الرغم من أن أمى لم تكن تعرف القراءة ، فإننى ما كنت أقرأ هذا الكتاب في
حضورها ..

واكتشفت أننى أيضاً كنت أفعل شيئاً من مثل ذلك دون أن أدري .. فكنت أجلس أمام
البيت لأرى الفتيات وهن يغسلن الملابس في الطشت .. وكانت الفتاة تضع الطشت بين
ساقين منفرجتين .. عاريتين أيضاً ..

وعرفت لماذا كان الشباب في القرية يجلسون عند الترفة .. ليشاهدوا أجمل استعراض للسباق في القرية .. كل يوم عند العصر أو قبل الغروب .. فالفتيات كلهن يذهبن يغسلن الأوعية في الترفة .. ويملأن البلايص من الطلمبة .. وكانت الفتيات يعرفن أن الشباب كله في انتظارهن هناك .. فكانت الفتاة وهى عائدة إلى البيت تحرص على أن ترفع طرف ثوبها.. ليظهر ثوب أحمر أو وردي أو أبيض ومن تحته يظهر جانب من الساق .. أما الصدر فقد كان مركز العيون كلها .. فالفتاة في الريف لم تكن قد عرفت السوتيان .. فصدرها رجراج بارز .. وكانت الفتيات يتعمدن إسقاط ماء البلاص على الصدر .. فيلتصق الثوب بالصدر ويبرز الزهدهان أكثر وأجمل ويهتزان مع كل خطوة .. أما البلاص فكان فوق الرأس .. وكانت الفتاة تتعمد أن تضع شيئاً مستديراً من القماش على الرأس .. وأن يتدلى هذا القماش قليلاً على العين .. وبذلك ترانا الفتاة دون أن يبدو أنها ترى العيون التي تأكلها منذ غادرت الماء .. ثم تتعثر وتفتعل أنها كادت تسقط وأنها لذلك صرخت لكي يلتفت إليها الشبان أكثر .. وبعض الفتيات أشد جراءة وأبرع حيلة .. فهى تأتي في يديها ببعض الحلل .. ثم تريد من يساعدها على رفع البلاص .. وهنا يتسابق الشبان .. ولكنها طبعاً تقصد واحداً لتقول له كلمة أو يقول لها .. وكان بعض الشبان يعرفون ذلك .. فيطلبون فلاناً أن يذهب بسرعة لأنها لا تريد سواء ..

وكانت هناك حكايات عن فتيات ينزلن إلى النيل بالملابس كاملة .. وكانت الجلابيب تلتصق بالجسم كله .. فيبدو كل شيء .. وتقف الفتيات في مواجهة الجميع تعرض الساقين والنهدين والردفين وجدائل الشعر الطويل .. وكان الشبان يجلسون بعيداً وراء الأشجار يرون ذلك .. والفتيات يتظاهرن بأن أحداً لا يراهن وأنهن لا يرين أحداً!.

وعرفت أنني عندما كنت أذهب لانتظار صديقي عزيز عند الكنيسة .. لم يكن ذلك إلا لكي أرى هذا العدد الكبير من الفتيات داخلات خارجات .. وكان يعجبني أكثر دخول الفتيات إلى الكنيسة .. على الوجوه مسحة هدوء وحزن وضعف .. وقد انحنت الرؤوس إلى الأم .. تماماً كما يعجبني منظر الفتيات وهن مقبلات على حلبة الرقص .. نفس الاهتمام والجدية والخفة .

مرة واحدة رأيت حفلة راقصة .. وكان ذلك من بين أشجار إحدى الحدائق . وبسرعة
جاء واحد وقال : تعال .. ادخل تفرج .. أنا أعرف إنك صاحب عزيز وشفيق ! .
وخلت . ودخلت ..

* * *

وكانت الصفحة الأخيرة من جريدة « الأهرام » بها صور لفتيات كثيرات .. ورأيت
أغلفة كتب « روايات الجيب » عليها صور وصدور وسيقان ..
وقطعت الصور واحتفظت بها ..
وفهمت لماذا قبل ذلك بسنوات كنت أترك بيتنا مبكرًا وأذهب إلى جار لنا كان ينام أمام
البيت في الصيف .. وكانت زوجته تنام إلى جواره أيضًا .. هو ينام مكمومًا بالقرب من
الحائط وهي تحتضن أحد أطفالها .. وقد تعرت إحدى ساقها . وأحيانًا الساقان ..
وأظل جالسًا إلى جوارهما حتى يصحو ويقول لى : أهلاً . هذا موعد الشاي بالنعناع ..
صباح الخير .

بعدها نصلى معًا .. الله يفتح عليك ..

بالصدفة وجدت كتابًا عنوانه (الحكايات اليومية معناها ودلالاتها الخطيرة) - أظن
هذا هو العنوان .. وهو مترجم أيضًا .. بقلم عباس أفندى دمشقية .. ولم أفهم الكثير من
تراكيبه الشامية . ولكن القليل الذى فهمته قد هزنى بعنف . فتح عيني على الآخر ..
فتحهما على أعماقى .. ثم اعتدت أن أقلب فى أعماقى .. وأن أنكش وأن أخربشها وأن
استخرجها وأعيد النظر فيها .. وقد فتحت على نفسى فتحة لم أفلح فى سدها أو تضيقها ..
وهى عادة سيئة جدًا أن أتأمل كل تصرفاتى وأن أتفهمها .. وأن أفعل ذلك مع الآخرين ..
وكنت أبالغ فى تفسير كل شىء ..

فى الكتاب أن قص الأصابع والتدخين نوع من استمرار الرضاة .. وأن الغرض من
الأحمر والأبيض عند المرأة هو لفت نظر الرجل .. وأن هذا المعنى جنسى . وأن الحيوانات
تفعل ذلك أيضًا .. فالديك له ألوان فى رأسه وحول رقبته .. وكل الذكور أجمل من الإناث ..

والغرض من هذه الألوان واستعراضها هو جذب الأنثى .. وكذلك الإنسان .. فالرجل يتألق في ملابسه ويسوى شعره وشاربه ويتألق في كلامه في حضور المرأة .. كل ذلك لكي يجذبها .. فهذا هو نداء الجنس للجنس ..

ويقول الكتاب إذا وجدت واحدة تسأل واحدة أخرى عن رجل فإنها تقول : طول بعرض .. وشعر ناعم وشنوب .. وهدومه نظيفة .. وجزمته لامعة وأصابع مسحوبة .. فلم تقل شيئاً واحداً عن أفكاره أو ثقافته .. وإنما فقط عن منظره وأناقته .. كأنها سحابة تصف ديكاً لدجاجة أخرى ..

وفي الكتاب أيضاً أن الملابس لم يخترها الإنسان لوقايتها من البرد وإنما اخترعها أيضاً لكي تبرز تفاصيل جسمه .. المرأة تختار الملابس (المحرقة) .. الملابس المكسمة لكي تبرز نهديها وردفيها وصدرها وساقها .. ولا فرق بين الرجل إذا راح يخطب امرأة ، وبينه وهو ذاهب لشراء ذبيحة .. فإنه يقلب في البقعة وفي الجاموسة ليتأكد من سلامتها وصحتها ولحمها وشحمها .

وكذلك الرجل إذا ذهب يتزوج فليس في استطاعته أن يفعل كل ذلك .. ولكنه يسأل أخته أن تدله على صفاتها .. ثم يبعث بأمه تحتضن العروس لتعرف إن كان صدرها مشدوداً .. وإن كانت لها أرادف مستديرة وإن كان خصرها نحيلاً وإن كانت ساقها جميلتين متباعدين من تحت أو ملتصقتين من أعلى .. وإن كان شعرها طبيعياً وليس باروكة .. وإن كانت أسنانها سليمة فالأم تعطيها عود قصب لتمصه أمامها .. وتتأكد كذلك من سلامة عينيها وأذنيها . ثم تتلمس ذراعيها وساقها وظهرا .. وكل ذلك تنقله إلى العريس وتقول له : عرفت تنقى يا عريس .. مبروك عليك ! .

ولم يكن ذهابي إلى المقابر إلا لكي أرى بعض الفتيات يتمرغن من الحزن على الأرض .. ويلطمن خدودهن .. ويبكين .. وبعد ذلك يهدأن تماماً .. ويأكلن ويشربن وكان العويل واللطم والسقوط على الأرض قد أراح أعصابهن تماماً فزادن جوهن جمالاً .. شىء عجيب!

وكنت أرافق أمى وخالاتى في زيارة واحدة شيخة مبروكة اسمها الحاجة « أمر الله » .

هذه السيدة تقيم عادة عند أطراف المدينة وأحياناً في ضيافة بعض الناس .. غالباً الأغنياء
أو بيت العمدة .. وتجيء إليها السيدات من كل مكان يحملن إليها السكر الناعم والسكر
الخشن وماء الورد .. ويطلبن منها البركة ..
هذه تقول لها : ظهري يوجعني يا حاجة ! .
وتمتد يد الحاجة إلى ظهرها .. وتتحسسها ثم تقرصها .. وتضحك الاثنتان وتقول لها.
يا بت ما تبقيش بعيدة عن جوزك كثيرًا ! .
فتضحك الأخرى وتقول لها : يا حاجة بعيد عنك زى الثور ! .
وتجيء واحدة وتقدم لها واحدًا من أطفالها . وتقول الحاجة . اسم الله عليه .. ماله ..
عاوز يتغذى الخير كثير .. إعملى له الفطير بالسمنة والعسل والقشطة .. اهرسيهما مع
بعض وخليه يأكله بصوابه ..
وتقول أم الطفل : غلبنا يا حاجة .. مش راضى يأكل يا حاجة .. تعبت معاه ..
- هاتيه .. قربيه شوية .. تعال يا واد أنت .. حقيقى مسعد .. وبكره تقولى الحاجة أول
واحدة شافت لك ده ..
وتضع الحاجة قطعة من السكر في فمها .. ثم تحشرها بين شفتى الطفل ..
وتلتفت الحاجة إلى أم الطفل . وأنت يا بت إيه الحلاوة دى .. تعال يا بت هاتى بوسة ..
- باستك العافية يا حاجة ..
- خلينى أشوفك ..
وتدخل أمى وتسلم على الحاجة وتبوس يدها .. وتقول لها الحاجة : خير إن شاء الله ..
- خير يا حاجة .. ابنى ده
- ماله ..
- والله ما أنا عارفه يا حاجة . يقوم من النوم مفزوع .. كل ليلة ويصرخ .. وكل يوم
أخذه في حضنى وأعطى رأسه باللحاف والبطانية .. ويقوم يرقع كل ده ويعيط . ويقول
هاتوا لى أختى .. هاتوا لى بابا ..
ولم أكن أعرف ذلك .. ولا أمى قالت لى أن هذا يحدث كل ليلة ..

سألتهما الحاجة : من إمتى ؟

- من سنوات ..

- أبوه بسلامته فين ..

- مسافر ..

- والمسافر لا يعود ؟

- يعود مرة أو مرتين فى الاسبوع ..

- وأخته فين ؟

- أخته فى بيت أبوها .. وأبوها رجل شرانى .. عارف الولد بيحبها ولكن لا يوافق على

أن تجيء إليه خوفاً من أن أحتفظ بها .. وهو لا يحبها ولكنه رجل عنيد ..

والتفتت الحاجة ناحيتى وقالت لى : تعال يا شاطر .. اللهم صلى على النبى .. النور فى

وجهك يا ابنى بكره تقول الحاجة قالت .. الواد ده خدى بالك منه ..

- اسمه أنيس واحنا بندلعه ونقول يا صلاح ..

- وهو أنيس .. وإن شاء ربي حيصلح حاله .. ويصلح حالك . ولى الحلاوة ..

حيكون أكبر من العمدة .. وأكبر من المأمور ..

- وزير يعنى ..

- إن شاء الله .. تعال .. قرب يا ابنى ..

وراحت تمسح على رأسى وعلى رقبتى وعلى صدرى .. وعلى وجهى .. ووضعت يديها

على عيني .. ثم راحت تنفخ فى عيني ..

وسمعت أمى بعد ذلك تقول لخالاتى وأقاربنا إنتى منذ زيارة الحاجة لم أعد أقفز من

نومى مذعورًا .. ولم أعد أصرخ أنادى أبى وأختى . وأن الحاجة « أمر الله » بركة من

بركات الله ..

وكنت أجيء إلى الحاجة مع خالتى الصغيرة وهى شابة تكبرنى بقليل .. وكانت هى

الأخرى ترافق عددًا من قريباتها وصديقاتها .. وكانت الحاجة تقول لهن لا بد أن تغسل

سيقانهن بماء الورد المبارك - أى الذى باركته هى .. فهذا يعجل بالزواج .. وكانت تجعل

للفتيات غرفة خاصة .. وكنت أحشر نفسي مع الفتيات لكي أرى .. وكانت الحاجة تقول .
اطلع يا واد أنت يا أبو عيون تندب فيها رصاصه ..

وكانت خالتي تقول : حرام عليك يا حاجة .. ده شيخ .. وحافظ القرآن ..
- وهو يعنى القرآن يمنع المشايخ من الشقاوة .. خليه يا اختى مادام أنت عينك منه ..
- عيني منه ؟ . ده ابن أختى يا حاجة .. ده أنت اللي شفتيه يا حاجة ولا انت ناسية ! .
وكننت أذهب وحدي .. ووجدت عددًا من الصغار في مثل سنى يذهبون سرًا .. ولكنهم
أكثر جرأة .. فبعض هؤلاء يتظاهرون بالأم في السيقان ويجلسون بين الأمهات والفتيات
ويذهبن في التمثيل لدرجة التظاهر بالوجع .. ويطلبون من الفتيات أن يساعدنهم على
الوقوف والذهاب إلى الحاجة .. ويكتفون بالجلوس والحديث مع البنات .. ثم لا يذهبون
إلى مقابلة الحاجة ..

ولم أعد أذهب للحاجة بعد أن رأيت خالتي تذهب إليها وتحمل معها طعامًا وشرابًا
وملابس لكي توزعها على الناس .. وعندما رأيت خالتي تبكى وتبكي .. وتلطم خديها ..
وتشد شعرها .. وقد حاولت أن أمنعها وأبكي مثلها .. وكانت الحاجة تقول لها سييها
تقضيض .. سييها يا واد انت .. أبعده من هنا ..

وكانت خالتي تذهب منذ الصباح ولا تعود إلا في الليل شاحبة مريضة .. وتظل تلازم
فراشها أسبوعًا وربما أكثر .. وعرفت أن خالتي تنفذ كل ما يقال لها لعلها ترزق بالطفل ..
ولم ترزق ..

ولم أعد قادرًا على أن أرى هذا الذي تفعله خالتي . وما تفعله سيدات أخريات
كثيرات .. رأيت واحدة قد غطت كل جسمها بالطين .. وذهبت ومعها طشت لكي تغسلها
الحاجة .. ثم تعبئ الماء في حبل .. وتلقى بما في هذه الحبل أمام بيتها .. وأمام بيت الذين
يكرهونها ويكون ذلك في منتصف الليل أو قبل طلوع الفجر ! .

www.alkottob.com

- يا ابني مش تقول إنك خارج ؟

- آسف يا ماما .. أنا أفكرتك نائمة ا .

وكنت كاذبًا . فأنا صرت أفعل ذلك منذ وقت طويل وعلى فترات متقطعة .. فلم أعد أرى من الضروري أن أسأل أمي إذا خرجت وإذا قررت أن أنام أو أتناول طعامي .. فأنا أفعل ذلك دون إذن منها .. لقد أحسست أن لديّ رغبة في أن أفعل كل ما يخطر على بالي .. فلم أعد صغيرًا .. أنا الذي أقول .. ولكن أمي تقول : إنك ما تزال طفلًا .. وهل يعنى ان بلوغ الثانية عشرة معناه إنك رجل .. سوف تبقى طفلاً مدى الحياة .. فأنا لا أراك قد كبرت أبدًا يا ابني .. وحتى لو كان عندك أولاد وأولادك عندهم أولاد سوف أراك صغيرًا .. فاهم .. وأقول . حاضر ..

ولا أعرف معنى هذه الكلمة .. ولا معنى الموافقة . ولكن يجب أن أصدق على ما تقوله أمي ..

ولاحظت أمي أنني أتأخر عن الساعة السابعة . ومرة عدت إلى البيت في الثامنة .. ولم أعتذر لها عن ذلك .. وكانت وحدها في البيت .. أما أخي الأصغر فكان نائمًا .. وأحيانًا أدخل الغرفة وأقفل الباب وأتفرج على الصور أو أعيد قراءة الصفحات المثيرة جنسيًا ..

وقد رأيت صديقي عزيز يقف أمام أمه ويرفع يده في وجهها ويقول لها : كفى . أنا لم أعد طفلًا .. وسوف أسهر زى ما انا عاوز وأشرب سجاير .. أنت تشربين وبابا يشرب .. وبابا شرب السجاير وهو أصغر منى بزمان .. هوه اللى قال لى كده ا .

أما أنا فلا أستطيع أن أفعل ذلك لوالدتي .. ولا أن أقول لها أى كلام من مثل هذا ..
وسمعت مدام بركات تقول لابنها سامى : يا سام .. كفاية يا حبيبي البنات .. يا أخى
واحدة كفاية .. اثنين .. لكن مش عشرين واحدة ! .

يا خبر إنها لا تمنع فى أن يعرف واحدة واثنين وهو لا يكتفى بواحدة .. تقول كل
ذلك وهى تضحك .. وسمعتها تحكى نفس الحكاية لوالدتي .. ووالدتي لا تعلق بشيء ..
وترى أن مدام بركات لأنها أجنبية تفعل بابنها ما تشاء .. ويفعل ابنها ما يشاء .. ولكننا
مختلفون . وأنا بالذات مختلف .. ولم تعلق أمى على شيء من ذلك .. فكأنها لم تسمع
وكأننى ! .

هل أنا الذى بدأت بالحديث مع فاتيما .. اسمها فاطمة .. ولكن لأنها فى مدرسة
فرنسية فإنهم ينادونها فاتيما .. لا أعتقد اننى الذى بدأت .. فأنا عادة لا أبدأ ولا أجرؤ ..
إذن هى التى نظرت وضحكت وأنا الذى أحنيت رأسى وضحكت .. وظللت كذلك إلى أن
عدت إلى البيت .. وفى نيتى أن أعود إلى نفس الشارع مرة أخرى فى نفس اليوم لعل أراها ..
أو لأننى سأراها ..

ومن بعيد رأيت واحدة تمشى مثلها .. بل كنت أقارن بين الفتيات من بعيد .. هذه
أقصر .. هذه أطول .. هذه أسرع .. هذه أكثر بياضاً .. هذه أكثر سماراً .. وفجأة وجدتها.
ورفعت رأسى أنظر إليها . وكانت الابتسامة عريضة كأنها دعوة لأن نستأنف النظر أو
كان معناها أننى تلقيت ابتسامتك وأردها الآن .. وأريد أن يبقى الابتسام والكلام
والسلام واللقاء بعد ذلك .. وعندما اقتربت منى ابتسمت أكثر وقالت لى : بونجور ..

وابتسمت ولم أقل شيئاً . وظللت أنظر إليها وهى تبتعد .. وقبل أن تتوارى عادت
فنظرت فوجدتنى فى موقعى .. فأشارت برأسها أن أتبعها .. وبسرعة ذهبت .. ولم
أجدها .. لا هنا ولا هناك .. وتضايقت جداً .. واتهمت نفسى بأننى توهمت اننى رأيتها ..
وفجأة ظهرت وكانت قد اختبأت فى مدخل أحد البيوت لعلها ترى ما الذى سوف أفعله
وتأكدت تماماً من أننى وقعت . فاقتربت منى وقالت : الليلة سوف نزوركم .. أنت تعرف
إننا أقارب ؟

ولم أعرف أن أقول ولا أن أرد ولا أن أسمع ولا أن أنتظر لقاءها .. ولم استوعب شيئاً من الذى قالته .. ولكن سمعت شيئاً يشبه هذا : ماما قريبة زوج خالتك .. وماما صاحبة مامتك .. وإذا كانت ماما ومامتك فى الداخل جلست معك فى مكتبك الساعة السابعة .. ومدت يدها وضغطت على يدي .. كهربتني .. صعقتني .. تبددت يدي فى يدها .. حتى ظننت وأنا عائد إلى البيت إننى سحابة تملأ الشارع أو اننى دون شعور حتى عندما دخلت بيتنا دخلت بالجانب كأننى انتفخت فظننت أن الباب سوف يضيق عنى ..

ماذا حدث ؟ لا أعرف . وكيف تطورت مشاعرى بهذه السرعة .. وحاولت أن أستعيد وجهها .. لا أعرف .. أن أستعيد صوتها .. مشيتها .. حركتها .. اقترابها ابتعادها .. ابتسامتها .. لم أستطع .. إنها أصغر منى ، ولكنها أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسها .. وشعرت بالخجل الشديد .. فلا بد أنها أدركت اننى ضعيف .. وإننى بلا تجربة وإنها أول واحدة .. وإنها استمدت قوتها من ضعفى .. ويقينها من اهتزازى .. وإنها نسفتنى وحولتنى إلى ذرات . ولم أعد قادرًا على جمع شتات نفسى .. لم أعد قادرًا على جمع كل هذه الشظايا فى هيكل عظمى واحد .. كيف ؟ ثم كيف هى بهذه القوة .. تكلمت وحددت وقررت . واختارت المكان الذى تجلس فيه أثناء جلوس أمها وأمى .. وكيف رأت كل ذلك بوضوح .. ولا بد انها سوف تسألنى عن عدد البنات التى أعرفها .. ولن أكذب عليها .. ولا أعرف ان كانت البنت تحب الولد الذى لم يعرف غيرها .. أو الذى يعرف .. أو الذى عرف أو الذى يطب ساكتًا أمامها .. أو الذى لا يهتم بها .. لم أعرف .. ولم أسأل أحدًا . ولا سمعت . فأمى ترى الشر امرأة . وترى الأقارب عقارب .. وترى الخراب أمام الباب .. وترى أن الذى يبتعد عن الكتاب أو الكراسى يموت غرقًا . وأن المستقبل مفروش بالكتب المدرسية والأخلاق .

ولكن عزيز الذى هو غيرى يعرف بنات كثيرة .. قد رأيت فى الكنيسة يقبل هذه ويغمز لتلك ..

وسامى يتكلم لغات لا أعرفها مع بنات ألمانيات وإيطاليات ويونانيات .. ويقبل الجميع .. ويأكلون معًا ويرقصون .. وماما تحب سامى جدًا . وتطلب منى أن أصادقه

لأنه فى غاية الأدب . ولأنه ابن ناس .. ثم ان أمى سمعت مدام بركات تشكو من كثرة البنات السلاتى يعرفهن .. وأمى تسمع كل ذلك وترى أننى مختلف . ويجب أن أظل مختلفاً.. ولا أدرى ما الذى يمكن أن تقوله أو تفعله لو رأتنى أتحدث إلى فاتيما .. أو علمت انها تداعبنى .. وهى تحب الضحك والمداعبة .. وإذا تكلمت فإنها تمسك ذراعى وأحياناً تضربنى بالبوكس .. ثم إن صوتها مرتفع وكل شىء يجعلها تضحك!

لا أعرف ماذا يحدث لى .. فكل شىء يحدث لأول مرة .. ولا أعرف ان كانت المرأة الأولى هى الأخيرة أيضاً ؟

- لماذا لا تأكل ؟

- تعبان يا ماما ..

- مالك يا حبيبي .. إنت بقى لك كام يوم مش عاجبنى .. مالك ؟

- ولا حاجة يا ماما ..

- حد قال لك إن بابا عيان .

- لا .. عيان ؟ عنده إيه من قال لك ؟

- ولا حاجة .. زكام بسيط .. ولكنه أحسن . وسوف يجىء غداً .. أمال زعلان ليه ؟

- ولا حاجة ..

- أه عرفت .. علشان أختك كان مفروض أن تيجى النهاردة .. ولكن بنت عمتها

ماتت .. كلها كام يوم وسوف تجىء .. إنها فصلت فساتين جديدة .. والله دى حاجة

تضحك .. أختك عاملة زى ما تكون عروسة جاية تقابل عريسها .. أنت تلبس لها هدوم

جديدة .. وهية محضرة هدوم جديدة ..

ولم أرد عليها . كأننى أريد أن أقول لها أن هذه هى الأسباب .. ولا توجد أسباب

أخرى .. ولم أكن أعرف أن كل ذلك قد أصبح واضحاً على ملامحى !

وطلبت منى أمى أن أذهب إلى الأجرخانة . وذهبت وهناك قابلت سامى ومعه فتاة

جميلة . وبسرعة قدمنى لها هكذا .

أعز أصدقائى .. والذى ينافسنى فى قراءة الكتب وفى تعلم اللغات .. أنا عازمه على

شأى النهاردة عندنا .. تيجى .. لازم تيجى ..

فقلت : واحدة قريبتى سوف تزورنا هى وابنتها ..

- ابنتها ؟ تعال أنت وإبنتها .. أقول لك .. أنا سوف أنزل لك وأستاذن طانط فى

دعوتكما معًا إلى الشأى ! .

يا فرج الله قد جاءنى من السماء ..

وفعلًا بعد لحظة واحدة من دخول فاتيما وأمها كان سامى يدق الباب .. ودخل إلى

أمى وصافحها وقبلها فى جبينها ويدها أيضًا وهو يقول : يا طانط .. اسمحى لهم يشربوا

شأى معانا فوق ..

طيب يا حبيبي ! .

وحتى بعد أن مضى ذلك الوقت الطويل جدًا فإننى لا أعرف كيف أصف ما حدث وما

لم يحدث .. ولا أعرف كيف أحشر المعانى فى كلمات والكلمات فى سطور ولا أعرف كيف

أربط هذه الكلمات وكأنها حيوانات وحشية لها أنياب ومخالب وقرون ..

وكان لا بد أن أضع السلم الذى صعده عشرات المرات .. ولكن أحسست كأن السلم

يصعد إلى السماء .. كل سلمة تدفعنى ترفعنى تجرنى تسبقنى إلى فوق .. وكأن السلم لا

أول له ولا آخر .. وكان السلم مظلمًا .. ولكن فجأة ظهرت لقدمى عيون ترى .. وتضىء

لنفسها كيف ترى أوضح .. ولا أعرف أية قوة غريزية دفعتنى لكى أمسك يد فاتيما ..

وذراعيها وأساعدها لكى تصعد .. وكيف ألف ذراعى حول خصرها .. ووجدتها تميل

ناحيتى ووجدتها تقترب منى .. وتقبلنى .. أعتقد أننى الذى قبلتها .. شفتها ساخنات

وأنفاسها سريعة .. هل هى التى تسللت من ذراعى .. أو أنا الذى أفقت لأجد سامى هو

الأخر يعانق صديقتة قبل أن ندخل الشقة .. ثم نظر لى سامى وهز رأسه وهو يندهش

كيف أننى خبير هكذا وأتظاهر بالبراءة والسذاجة والحياء ..

ولا أعرف ولا أدرى كيف أمضيت الوقت .. سامى يتكلم طول الوقت وينتهز كل

فرصة لكى يقبل دانيلا صديقتة .. أو هى تقبله .. أما فاتيما فكانت أكثر سعادة وأكثر

مرحًا وكانت هى التى تقدم لى الشأى والجاتوه وتدعونى إلى الكلام . ولكننى فاقد النطق

وأصبحت إنساناً آخر .. فالإنسان الذى كان فى ظلام السلم غير الذى فى ضياء الشقة ..
وانتظرت فاتيما أن أقبلها مرة أخرى ونحن عائدان ولكنى لم أفعل .. وشدتنى لكى أمسك
ذراعيها كما فعلت .. ولكنى قد عدت إنساناً آخر .. أو الإنسان الأصيلى .. وفوجئت بأن
سامى قد استودع فاتيما وقبلها .. ولم تمنع .. وجاءت دانيلا وقبلتنى .. فلم أمانع ولم
أشعر بأى شىء ..

وسارت الأحداث - إن كانت هناك أحداث - بسرعة وبعضها يتوارى فى بعض .. حتى
جاء موعد خروج فاتيما ومامتها .. وبلا شعور أو ترتيب أو تدبير منى قبلت أم فاتيما ..
تماماً كما فعل سامى مع أمى ..

فقال لى . باستك العافية يا حبيبي .. أصبحوا على خير ..
ولم تترك فاتيما هذه الفرصة .. حتى ضغطت على أصابعى وهى تصافحنى وبسرعة
اطفأت النور وقالت : أنا نسيت شنتطتى عند سامى فوق . والنبي تروح تجيبها .. آجى
معاك ..

وسبقتنى إلى السلم .. وفى الظلام وجدتنى بين ذراعيها ..
أما بقية الأحداث فلا أذكر شيئاً منها .. لأننى فقدت ذاكرتى ..

لو كانت أختى معى .. لو كانت تجلس هنا إلى جوارى .. وأقول لها ما الذى أرى
ويعجبنى ولا يعجبنى .. لو كانت ترتدى مثل هذه الفساتين من كل الألوان .. لو كانت
معى فى المدرسة .. لو كانت تصحو ونذاكر سوياً ..

ولكن لماذا إذا جلست مع أختى قال الأطفال : عريس وعروس ..

لا أفهم .. هل لأننا نجلس متجاورين دائماً يدي فى يدها .. أو يدي حولها .. أو رأسى
على صدرها أو فى حجرها .. أو نذهب إلى الترفة ونجلس على أحد الكبارى وندلى بساقينا
فى الماء .. ولما رأيت ثعباناً فى الماء يقفز من شاطئ إلى شاطئ ويطارد ضفدعة ثم يبتلعها
لم أعد أدلى بساقى فى الماء .. وإن كانت أختى ظلت تفعل ذلك دون خوف ..

وفى إحدى المرات نهضت بسرعة .. فاشتبكت ملابسها ببعض فروع الشجر التى
صنع منها الكوبرى فسقطت فى الماء .. وبسرعة خرجت وراحت تجفف ملابسها . ثم
دخلت حقل الذرة وتوارت لكى تجفف ملابسها . ونادتنى أن أساعدها فى عصر
ملابسها .. ولا شعورياً خلعت جلبابى ورحت أله حول جسمها .. ومنذ ذلك الحين
والأطفال يقولون إننا عريس وعروس .. ولم أفهم . وكانوا يتغامزون علينا .. ولكن ظلت
إذا جلسنا أن تتجاور أجسادنا وتتلاصق . ويدي فى يدها وعيني فى عينها .. وكانت هى
التى تقول حكايات كثيرة .. ولم يكن يهمنى كثيراً ما الذى تقول .. ولكن أن تظل تقول ..
فكل حكاياتها عن زوجة أبيها وماذا فعلت .. وكيف أنها صاحبة الكلمة والرأى فى البيت
وأن والدها لا رأى له .. وأن زوجة أبيها كثيراً ما طردتها وقالت لها . روجى لأمك ! .

ولكن والدها لا يسمح لها أن تجيء إلى أمى ..
وفي يوم ذهبت أنا إلى زوجة أبيها وقلت لها . لماذا لا تتركينها تذهب إلى أمها .. إننا نريدها ونحبها .. وأنتِ تكرهينها وتضربينها ..

وإذا بها تصفعنى على وجهى وتقول لى . وأضربك أنتِ أيضاً . إمشى .. لم يبق إلا العيال يتطاولون على الكبار . إمش أنتِ وأختك فى ستين داهية ! .

ثم نادى أختى . ودفعت بها إلى داخل البيت . ولم أعد أراها . ولا أسمع صوتها . ولا أعرف ما الذى تفعله فى ذلك اليوم .. أو فى كل مرة تجدها معى .. وفى يوم سألتها فقالت إنها تطلب منها غسل الأطباق والحل .. ثم غسل الملابس .. ثم كنس البيت ثم حمل رضيعها .. ومداعبته حتى ينام .. وبعد ذلك عليها أن تذهب إلى حيث الجواميس والدجاج والبط .. لتأتى بالبيض .. ثم تحلب الجأموسة .. ثم توقد الفرن وتصنع لوالدها فطيرتين وتحملهما له مع بعض القشدة والعسل ..

كل ذلك تفعله وهى تبكى . وأصبحت الدموع ملازمة للعمل .. تماماً كالعرق .. فهى تعرق وتدمع . ولا تشكو . ولما كنت أنقل كل ذلك لأمى ، فإنها لا تعلق بشيء . ويبدو أنها ترى أن هذه هى حال الدنيا . وأنها لا تقوى على عمل شيء .. وأن الآباء لا يقدرّون على الزوجات وأن الزوجات يكرهن الزوجات الأخريات وأولادهن أيضاً .. ولما كنت أحكى لخالتي كل ذلك .. فإنها تقبلنى .. وتسكت . وكل الذين حكيت لهم ذلك فإنهم يسمعون فى صمت .. ويرون اننى طفل لا أعرف الدنيا . وأن هذه هى الدنيا . وأنه خير لأختى أن تظل فى بيت والدها من أن تكون معى .. ويقولون : أبوها هو الذى سوف يجهزها ويزفها . هو المسئول عنها . أسكت أنتِ ! .

ولما وجدت أمى أننى أضع بعض السكر والشيكولاته بين المراتب سألتنى فقلت .
لأختى؟

فقلت أمى : ولكنها لن تجيء ! .

قلت : هى قالت لى إنها سوف تجيء بعد شهرين ..

وضحكت أمى وقالت : يبقى يحلها ربنا .. لن تجيء يا ولدى .. إنها تتمنى ذلك مثلك

تمامًا .. ولكن والدها لن يسمح لأن زوجة أبيها تريد أن تساعدنا في شغل البيت ..
فقلت : ولكنها يا ماما تبكى طول الوقت .. أنا رأيت دموعها .. حرام .. ولما حاولت أن
أغسل معها الأطباق طردتني .. الست التي هناك هي التي طردتني .. ولما حاولت أن
أكنس معها البيت ، طلبت من أختي أن تعيد كنس البيت .. وكانت تبكى .. ثم طردتنا نحن
الاثنين وقالت إنها لا تريد أن نقلبها جنازة ! .

ثم قلت لأمى لماذا لا أتزوجها يا ماما ؟

وضحكت أمى كثيرًا جدًا . وسمعتها تحكى هذه القصة لكل من تزورها . وكانوا
يضحكون أيضًا . وفي كل مرة تحكى أمى هذه القصة تقول : إنه يحبها .. إنه طيب ..
وحنين جدًا .. ويريد أن تكون له أخت .. وكل شيء يريد أن يحتفظ به لأخته .. الحلويات
والسكر والشيكولاته . والصور الحلوة التي يجدها في المجلات .. واشترى لها خاتمًا
وأسورة من الزجاج .. ويحاول أن يكتب لها جوابات .. ولكنها لا تقرأ ..

وفي يوم طلبت منى أن أقرأ لإحدى جاراتنا الجوابات التي كتبتها لأختي . ولم أجد
الشجاعة على قراءة الخطابات ولكنى أعطيتها الجوابات . وكن يقرآن الخطابات
ويضحكن . وبعد ذلك أجدنى فى أحضان صديقات أمى وجاراتها مع نظرات الاشفاق على
حالتى ..

وكنت أحكى ما يقوله أبى من الحكايات والنوادر . ولكنها لم تكن تحب سماع هذه
الحكايات .. ولا تجد متعة ولا اهتمامًا بالشعر .. وعندما كنت أسمع القرآن الكريم فإننى
أردده مع فقيه القرية . وكانت أختى تقول : هل ستكون مؤذنًا فى مسجد ؟ أو هل ستقرأ
على الموتى ؟

واندهشت لهذه الأسئلة . وأشعر أن أختى مختلفة عنى تمامًا . وإنما لا تعرف ما
يدور فى داخلى .. واننى لا أعرف كيف أنقل لها ذلك .. ولا أعرف كيف أحدثها عن أحلام
أمى وآمالها .. وعندما حاولت أن أحدثها عن نفسى لم تكن تبدي أى اهتمام . وإنما هى
حريصة على أن تتكلم هى .. وتظل تتكلم وأنا لا أقول شيئًا . واعتدت على أن أسمعها .. أو
أن يكون لها هذا الوجود الصوتى ، حتى إذا لم أتابع ما تقول ..

فهى تقول وأنا أنظر إلى المساحات الخضراء بين الحقول .. وإلى الظلال التى تروح وتجىء مع الناس . والجواميس والأغنام والحمير والكلاب .. وأصوات النباح والمواء والخوار والساقية والطنبور وزقزقة العصافير وأصوات الفلاحين من هنا وهناك .. ورائحة البرسيم ورائحة الخس وملابس أختى . والسمنة والدخان والحنة فى يديها.. أما وجهها فهو أجمل ما فى هذه الدنيا .. أسمر أحمر مستدير لامع والشعر أسود طويل غزير .. والعينان عسلتان فاتحتان واسعتان والرموش طويلة .. والأسنان بيضاء لامعة جميلة وشفاتها بلا أحمر ممثلتان .. وكانت وهى تتحدث ألمس شفتيها بأصابعى .. ثم ألمس شفتى أنا أيضًا .. ولا أعرف ما المعنى ولكن لعل كنت أقارن بينهما.. وإن لم أكن أتذكر شكل شفتى .. هكذا كنت أتصرف دون تفكير .. ألمسها طول الوقت .. كأننى أتأكد من وجودها .. أو كأننى لا أريدها أن تبعد عنى لحظة .. لا عن عينى ولا عن أصابعى ولا عن أذنى ولا عن أنفى . أو أننى أريد أن أكون فى حضنها دائمًا . أو أن تحتوينى بكل نظراتها وكلماتها ورائحتها .. المهم أن تكون إلى جوارى ، وأن أكون .. ثم اننى اعتدت على ما يقوله الأطفال وأحياناً الكبار عندما يروننا معاً : عريس وعروس . والنبي لا يقين لبعض .. هاها .. هاها !

لم تكن أمى بالببيت . جلست أمام الباب انتظرها . وقد أسندت رأسى للحائط .. نمت .
جاءت أمى . أيقظتنى وصرخت : مالك ؟ مريض .. ماذا عندك .. لماذا لم تذهب إلى مدام
بركات .. إنها تحبك .. وابنها صاحبك ! مالك ؟

ونقلتني أمى إلى السرير .. ونمت . ووجدت حولى : مدام بركات .. وجارتنا .. والست
أم عزيز .. وخالتي ..

وجاء طبيب .. وتقلبت أمامه .. ووضع يده على بطنى .. على صدرى على رأسى ..
ونظر إلى عيني وإلى لساني .. وقال : الحمد لله . لا شىء ولكنه يظهر إنه إرهابى .. هل
يذاكر كثيرًا .. هل تعب كثيرًا .. لعله أكل شيئًا فاسدًا . ولكنه الحمد لله .. اشتروا له هذا
الدواء ..

وانصرفت جاراتنا جميعًا . ووجدت أمى تستعد للخروج وشراء الدواء . فقفزت من
السرير وقلت لها : أنا أشتريه .. أنت لا تخرجين يا ماما .. أنا بدلاً منك .. أو أنا أذهب
معك !

وسألتنى أمى : ماذا حدث ؟

فقلت لها : أبداً .. أنا كنت فى بيت عزيز .. وفجأة وجدته يتخانق مع أمه ..

- عزيز يتخانق مع أمه ؟

- وكان يشخط فيها .. وبعد ذلك وجدته يلقي بالملوخية فى وجه أمه .

ولا أعرف بعد ذلك ماذا حدث لى ..

لقد كان الحادث صدمة عنيفة . وكانت هذه هي المرة الأولى التي أصاب فيها بمغص معوى عصبى عنيف ..

فلم أكن أتصور أن أحداً يرفع عينه في عيني أمه .. ولا أن يكلمها بصوت مرتفع .. ولكن الذى حدث كان أكبر من احتمالى .. صدمة لم أفق منها طويلاً .. ولم أنسها طول حياتى .. وانقطعت صلتى بعزیز رغم أنه حاول كثيراً أن نزل أصدقاء . وفى كل مرة يسألنى عن أسباب مقاطعتى له ، لا أقول شيئاً . وحاولت أن أعود إليه ، أو أعيده إلى نفسى، لم أستطع .. حاولت أن أنسى وأن أقول : ولكن أمه سامحته .. وأخوته قد نسوا .. ولكنى لا سامحته ولا نسيت ..

وفى كل مرة أتذكر هذه الحادثة فإننى أتمس شيئاً يتحرك فى أمعائى .. وأحياناً أشعر بمغص ، فأسرع إلى أى اسبرين .. أو إلى الانشغال بأى شىء آخر .. وحاولت أمى أن تخفف من وقع هذه الحادثة من نفسى .. فقالت لى : أنت فهمت خطأ .. إنه لم يلق الطبق فى وجه أمه .. وإنما هى قالت له أريد أن أرى شطارتك .. فى أن تلقى إلى بهذا الطبق دون أن يسقط منك على الأرض .. وهى لعبة يمارسونها كثيراً .. هو يلقى الطبق .. وهى تلتقطه منه .. ولكن يظهر أنك كنت سرحان .. وأنت تسرح كثيراً! . ويظهر أن أمى حاولت أن تجعل خالتي تحكى هذه الحادثة بطريقة مختلفة .. وأن الست أم عزیز لم تغضب من ابنها .. فهو قد اعتذر لها وباس يديها وقدميها .. وانها قد رضيت عنه تماماً .. فهو ابنها وهى أمه .. ولا يمكن للأم أن تغضب من ابنها ، ولا أن يغضب الابن من أمه .. وصافية كاللبن .. ولكنى لم أنس ولا حاولت ! .

في ساعة متأخرة من الليل سمعنا دويًا . وقفزت من السرير .. واعتدلت أُمى في جلستها .. وتولانى الفرع . ونظرت إلى أُمى اسألها . ولكنها قالت : لا شىء .. تعال إلى فراشك .. إن مدام بركات تتشاجر مع زوجها ..

ثم سمعنا صوت زجاج يتحطم عندنا .. ورقعت أُمى الغطاء .. وأضاءت النور .. ووجدنا أطباقاً مهشمة وفيها طعام .. بطاطس وصلصة .. ولحم وأرز .. كل ذلك سقط من شقة مدام بركات .. ووجدت أُمى تمشى على أطراف أصابعها وتنظر إلى أعلى .. فمدام بركات بالدور الثالث .. وهناك «منور» .. وهذا المنور تطل عليه كل الشقق .. فمن شبابيك مدام بركات سقطت كل هذه الأطعمة .. ثم تعالى صراخ مدام بركات .. وهى تتكلم بالإنجليزية أو بلغات أخرى لا أعرفها .. وزوجها مدرس اللغة الإنجليزية يشتمها باللغة العربية .. ويلعن والدها واليوم الذى رآها فيه .. ويقول إنها كانت فى الشارع وإنه هو الذى جعل منها سيدة محترمة .. ولكن لا أمل فى أن تكون زوجة نافعة .. ولا أن تتعلم الطهى .. وأن الصلصة فيها ملح زائد .. وأن اللحم ما يزال نيئاً .. وأنها مشغولة دائماً بابنها .. أما هو فلا تهتم به .. وصراخ .. وصراخ .. وبكاء وأشياء تنكسر .. ثم مدام بركات تطل من نافذتها وتنادى والدتى .. وسمعتها تنادى وتقول لى : تعال اتفرج على أستاذك المحترم كيف يبدو وحشاً كاسراً .. كيف ينطق ألفاظاً شوارعية .. تعالوا يا تلامذة اتفرجوا على البية المدرس ..

وأصوات أطباق وشوك وسكاكين وملاعق .. وصراخ وكلمات غير مفهومة .. ثم هى

تقول الولد ما ذنبه .. لماذا تضربه هو الآخر .. إنه أكثر أدبًا منك .. أبوه من أغنى الأغنياء .. ولكنها الظروف الزفت هي التي دفعته إلى أن يرافقني ويكون معي في هذه العيشة المطينة .. كفى يا مجرم .. يا كلب . يا ابن الكلب .. يا جائع يا شحان .. هذه فلوسى .. زهبي .. وأنت ماذا عندك يا بخيل يا شحيح .. إنت تعيش على أموالى ولا يعجبك .. كم دفعت فى شراء أى شىء .. من ملابسك النظيفة وأحذيتك .. من الذى يعالج أمك واختك .. أنا .. من الذى سدد ديونك ؟ أنا المغفلة .. أنا الحمامة .

ثم عادت تنادى على أمى .. وعلى الجيران ..

وارتدت أمى ملابس الخروج وصحبتنى معها وأنا أرتعش خوفًا .. ووجدنا باب الشقة مفتوحًا .. ووجدنا مدام بركات منكوشة الشعر والدم على وجهها وعلى ملابسها .. ووجدنا ابنها ملقى على الأرض .. وخرج المدرس كالوحش الكاسر قبيح الوجه منفوخ العينين مسوس الأسنان وله كرش .. ويمشى حافى القدمين .. ولم أجدنى خائفًا من مواجهته .. ولا النظر إليه .. واتجهت إلى سامى ورحت أهزه وأمسخ وجهه .. والدموع فى عيني ولما فتح عينيه ووجدنا أصابه زعر .. ثم نظر إلى أمه فوجدها واقفة عند رأسه تحكى لأمى ما حدث .. ثم نهض بسرعة .. ولكن أمه كلمته بلغة لا أعرفها . ومنعته من أن يفعل أى شىء ..

ولاحظت أمى أنني أضع يدي على بطنى .. فأشارت لى أن أعود إلى بيتنا وأن أتمدد فى الفراش وأن أنتظرها ..

وفى اليوم التالى لم أذهب إلى المدرسة .. لم أستطع ولا أريد أن أرى هذا المدرس .. ولا أعرف كيف أراه .. ولا أعرف ماذا أقول له لو سألتنى .. أو لو نظر ناحيتى أو لو استدعانى وحذرنى أن أحكى شيئًا مما رأيت لأحد ..

ووجدتني ألف مندبلاً حول رقبتى فى حصة هذا المدرس .. كأننى أريد أن أقول اننى مريض .. وأنه لا داعى لأن يقول لى شيئًا .. أو يهددنى بشىء ..

وجاءت مدام بركات إلى زيارتى وعانقتنى وقبلتني وأعطتني بعض الكتب وهى تقول: سوف تنفك عندما تكبر ..

وخرجت مدام بركات ولم أعد أراها بعد ذلك .. لقد تركت الرجل إلى حيث لا أعرف ..

مرضت أمى .. اقتربت منها وجدتها نائمة .. تسللت من غرفتها . وخرجت من البيت . وأغلقت الباب برفق . وذهبت إلى الفكهاني وقلت له . بلح وجوافة .. قال دون أن ينظر لى . سوف تدفع اليوم .. لقد نسيت أن أطلب فلوسًا من أمى .. فكل الذى كان يهمنى هو أن أنجز شيئاً بدلاً من أمى .

فقلت له : ولكن أمى مريضة وأنا لم أشأ أن أوقظها . وكان رده أن ينظر ناحيتى . آه .. سلامتها . ولكن لا تنس أن تقول إنكم لم تدفعوا شيئاً هذا الشهر ! .

وكان هناك أناس كثيرون قد استمعوا إلينا .. وبسرعة أعطانى قرطاسين .. ولكنى لم أمد يدى .. وراح ينادينى : تعال .. لم أقصد اغضابك .. ولكن ربنا هو الذى يقول : وذكر إن نفعت الذكرى ! .

وتركته وذهبت إلى الطابونة .. وظللت واقفاً حتى انفض الناس . واقتربت من البائع .. إنه فى مثل سنى وقلت له : أربعة أرغفة .. واحد طرى وأربعة مقرمشة .. الطرى علشانى أنا ..

فالتفت ناحيتى وقال لى : أليست عندك أسنان ؟

قلت : عندى ولكن أتضايق من صوت العيش المقرمش ..

.. فلوسك ؟

-إنهم يعرفون ماما ..

وذهب البائع الصغير إلى داخل المحل .. إلى والده وأشار ناحيتي .. ووجدته يهز رأسه
بما معناه : أعطه ..

وأعطاني الخبز ملفوفاً في ورقة . ثم أعطاني ورقة صغيرة وهو يقول : وهذا هو
الحساب .. ستة وخمسون قرشاً ..

وسمعت صوت والده وهو يقول : من أول الشهر .. قل لماما ! .

وتركت الخبز .. وراح يناديني ولكني لا أرد ..

ومررت بالصيدلية . إن صاحب الصيدلية له ابن زميلي في المدرسة . ويجلس إلى
جوارى . وأنا أحبه . ووجدته واقفاً أمام الصيدلية . ودخلت معه . ولما رأني أبوه قال : هل
تريد دواء ؟

ونسيت اسم الدواء . ولكنه قال لي : ماما مريضة . ما تزال تشكو من معدتها .
وتنزف . هذا الدواء الجديد .. إن شاء الله ربنا يشفيها .. وبأبأ ألم يأتي بعد ؟
قلت : اليوم سوف يحضر ..

قال : سلم على بابا .. وهذا الدواء تعطيه لماما .. وتحت أمرك يا ابني .. أرجوك تقول
لبابا إن الحساب ثقيل .. لا تنس ! .

ثم أعطاني الدواء . وارتعشت يدي . فأنا حائر بين أن أتركه وبين أن أعود به إلى
أمي .. وأخذته ..

واقترب مني زميلي وقال : أنتم لا تدفعون . لماذا ؟

قلت : بل ندفع . ولكن ماما مريضة لم تستطع أن تجيء بنفسها والدي مسافر
واليوم سيجيء ويدفع طبعا .

- ألم يحضر أبوك من شهرين .

- قلت : بل يجيء كل أسبوع مرتين وثلاثاً ..

قال : ولكنه لم يدفع الحساب .. وماما مريضة منذ وقت طويل ؟
قلت : نعم .

ووجدنى والدى نائماً أمام باب الشقة .. وأيقظنى ووجدنى أصفر الوجه . وأدخلنى
البيت ووضعنى إلى جوار أمى فى السرير ولم تكده ترانى حتى قالت : مالك يا ابنى
ياحبيبي ماذا جرى لك هذه الأيام ..ربنا يخليك يا ابنى .. كتر خورك .. انت لم تنس أن
تذهب إلى الاجزاخانة ..

وتهامس والدى والدى .. ثم قبلتنى أمى ، وقبلنى والدى ..
وسمعتهمَا يدعوان لى بالصحة والعافية والنجاح فأنا طفل طيب .. وشديد
الحساسية.. ووجدت أبى يقول . يا ابنى سوف تتعب فى حياتك كثيرًا .. فنحن فى زمن لا
قلب فيه عند أحد .. ولا حب ولا حنان .. ربنا يلف بك يا ولدى ! .

www.alkottob.com

كانت نظرتى إلى الكتب فى فزع .. ففى سن صغيرة جدًا عرفت أن « الفقر » هو
 الكتب...
 والأدب والذوق هو الفقر والكرم فقر ..
 والناس كلهم والجلوس إليهم ودعوتهم وحب الناس : فقر والملابس النظيفة والأنيقة .
 فقر .
 وشراء كل شىء . فقر .
 وشراء كل شىء وبكميات كبيرة هو الفقر السريع ..
 وكل من ليس له دكان وكل من تزوج مرة ومرتين : فقر ..
 والذى لا يملك بيتًا ، ولا يقتنى أرضًا ..
 والذى يصلى ويصوم ويخاف الله ويعيش نظيف اليد ، حسن السير والسلوك : فقر ..
 وكل هذه الصفات هى أبى ..
 ولكن لم أعرف معنى الفقر .. ومن هو الرجل الفقير ..
 فقط الرجل يمد يده للناس .. الشحاذ .. الذى يلج فى طلب الطعام والشراب ويدق
 الأبواب ويستوقف الناس ويعطيه الناس ولا يعطونه وأحيانًا يشتمونه .. وسمعت أن
 شحاذًا مات عن ست بلاليص مليئة بالفلوس .. ولم يجد أحدًا يرث هذه الفلوس فأخذها
 اللصوص فكأنه ظل طول عمره يجمع المال .. وفى لحظة واحدة أخذها أقرب الناس إليه
 عندما مات ..

ولم تكن واضحة في ذهني علاقة الكتب بالفقر .. ولا ما الذي تعمله الكتب في الناس ..
ولقد رأيت شيخ المسجد يقرأ الكتب في المسجد والناس يقبلون يديه ويطلبون منه البركة
وأن يقضى الله حاجاتهم وأن يشفيهم من المرض .
ورأيت كل التلامذة يقرأون الكتب ويحملونها من المدرسة ويحرصون عليها ..
ثم إننا غير الكتب المدرسية كل سنة ..

ورأيت بيت أحد أقاربي من الأغنياء .. وكانت الكتب على الجدران وكانت مغطاة
بنوافذ زجاجية وبعض الكتب لها غطاء من الجلد وعليه حروف من الذهب .. ثم إنهم
أغنياء عندهم حدائق وعندهم سيارات ويأكلون الدجاج كل يوم ويتصدقون على
الفقراء .

وكنت إذا وجدت كتاباً رحت أقلب فيه .. حتى قبل أن أتعلم القراءة .. وكنت اختفي
تحت السرير والكتاب في يدي .. وإذا سمعت أمي تناديني ، فأنتني لا أنطق وأحياناً
أتظاهر بأنني نائم إذا أحسست أنها سوف تعرف مكانى تحت السرير .. ثم اننى أخفى
الكتاب في ملابسى ..

وأول كتاب وجدته وكانت به صور ، كان انقلاباً .. فكنت أقلب في صفحات الكتاب
وأرى إناساً وحيوانات .. وكنت أصحو من النوم مبكراً جداً وأخذ الكتاب وأقلبه بالقرب
من المصباح .. أو أخفيه في دولاب والدي .. فإذا نهضت معه عند الفجر سحبت الكتاب
وجلست وراء والدي وهو يصلى وأتصفح الكتاب .. وكان والدي ينظر ولا يقول شيئاً ..
وكان والدي يرى دهشتي وانبهاري .. وفي نفس الوقت إننى لا أفهم .. فكان يقول رداً
على الذى أحسه ولا أعرف كيف أعبر عنه : غداً تتعلم وتحب كل هذه الكتب .. أنت الآن
أحسن من الأطفال في سنك .. أنت تحفظ القرآن الكريم .. والقرآن سوف يجعلك تحب
القراءة والكتابة .. ألا تحفظ الشعر الذى ألقنه لك ؟

وأهز رأسى بأننى على استعداد لأن أردده كله الآن .. مئات الأبيات .. لها موسيقى
ولها تراكيب غريبة جميلة . لكن لا أفهم الكثير من معانيها .. فلا أعرف معانى كلمات .
الصبر .. والحب .. والفرح والأيام .. والدهر .. والقدر .. ومعظم الشعر الذى أحفظه عن

والدى قد امتلأ بهذه الكلمات التى وضعت ضمن موسيقى لفظية جميلة .. ولكنى أحفظ وأردد .. وأحياناً يطلب منى والدى أمام الناس أن أقول .. فمثلاً يقول لى : قل سامح أخاك.

فأقول

سامح أخاك إذا خلط .. الخ .

ويهلل الناس ويدعون الله أن يفتح علىّ بالخير والبركات ..

أو إذا أراد أبى أن يضحك وأن يسلى الناس فإنه يقول لى : قل . رأيت غصناً .

فأقول :

رأيت غصناً على كئيب

شبيه بدر إذا تلالا

فقلت : ما لاسم قال : لولو

فقلت : لى لى : فقال : لا لا

ويضحك الناس .. ولكنى لا أفهم لماذا يضحكون ولا معنى الذى قلت من الشعر الذى

أضحك الناس ..

وأحياناً بعد صلاة العشاء يقول لى والدى : قل لنا شيئاً من « البردة » النبوية .

فأقول :

أمن تذكر جيران بذى سلم .. إلخ .

ويقول لى : قل يا لائى

فأقول :

يا لائى فى هواه والهوى قدر

لو شفق الوجد لم تعذل ولم تلم

محضتك النصيح لكن لست تسمعه

إن المحب عن العذال فى صمم

والناس سعداء بما أقول وأبى أكثر سعادة .

وما يدور من مناقشات عن هذه الأبيات أو المدائح النبوية ، لا أستطيع أن أفهمه ..
ولكنهم يطلبون من والدى أن يقول مزيدًا من الشعر والنكت الأدبية والبلاغية والنوادر
التاريخية .. والناس يحبون أن يستمعوا إلى والدى وينتظرونه حتى يجيء . أو يقولون .
لقد انتظرنك فى الأسبوع الماضى ولكنك تركتنا هنا كاليتامى .. الحمد لله على السلامة .
والله إننا نعد أيام غيابك ..

وكان والدى سعيدًا وكانوا أكثر سعادة ..

وكنت أجلس إلى جوار والدى وأحيانًا يغلبنى النوم . فأميل على كتف والدى . وأحيانًا
ينقلوننى إلى داخل البيت .. حتى إذا قرر والدى أن يعود أيقظونى . وأمسك يد والدى .
وكان يقول لى لماذا أنت خائف ؟

ولابد أنه لاحظ أنسى أمسك يديه بشدة .. ولم أكن خائفًا . ولكنها عادة أن أستند إلى
شئ ، أن أمسك أى شئ ، أن ألتفت ورائى ..

وسألنى والدى : ألا تلاحظ أن زملاءك فى المدرسة لا يحفظون القرآن ..

قلت : أنا فقط .

– ويحفظون الشعر ؟

– أنا فقط . ولا يحبون أن يسمعه وإذا حاولت أن أردده فأنهم يسدون فمى . وواحد
قال لى : أنت تحفظ شعر الشحاذين والعميان وإن شاء الله فى المستقبل ستكون شحاذًا
على الأبواب ..

– إنهم متغاطون يا ولدى لأنهم لا يقرأون ولا يعرفون إلا لعبة الكرة ولا بد انهم فى
المدرسة لا يجيء ترتيبهم مثلك . فأنت الأول دائمًا . وأنت أفضل . أنت أحسن .. وسوف
تكون سيد هؤلاء جميعًا . إن شاء الله ..

– ولكن ماما لا تحب الشعر .

– ولكن بابا يحب الشعر .

– وخالتى لا تفهم الشعر ..

– لأن خالتك ليس لها أب يردد على مسامعها الشعر .. ثم إنها لم تحفظ القرآن مثلك ..

ولم تذهب إلى المدرسة ..

- وهل الشحاذون يحفظون الشعر .

- لا .. ولكن لهم كلمات يحاولون أن يجعلوها موسيقية .. موزونة .. فهم يقولون .
إعطني يعطيك ربنا .. إعطني قرشاً ربنا يعطيك ألف قرش .. الغلبان له الرحمن .. وأنا
أحفظ القرآن .. وأحفظ الشعر هل أنا شحاذ .. والمأمور يحفظ الشعر وناظر المدرسة
وإمام المسجد يحفظ الشعر . وليسوا شحاذين .. !

www.alkottob.com

كان صوت أبى جميلاً إذ تلا القرآن وإذا أذن لصلاة الفجر .. وكان يؤذن في البيت قبل الصلاة . ولم يكن يصلى إلا وأنا وراءه .. وكانت أمى لا تصلى .. لأنها دائماً مرهقة أو كانت مريضة .. أو كانت لا تحب أن تصحو مبكراً ..

وكان أبى يتلو القرآن بصوت مرتفع . ولم يكن يسمعه أحد سواى .. وكان صوته ناعماً رخيماً .. وفي بعض الأحيان كنت أرى أبى يتلو القرآن ويبكي . وإذا رأيت فإنه بسرعة يمسح دموعه . ويمضى في التلاوة ..

وأحياناً كنت أسمع والدى يغنى ويقول . يا ليل يا عين ..

وكنت أسمع من أقاربي أن والدى صوته جميل إذا غنى لصالح عبد الحى والحامولى وسيد درويش .. وأنه كان حريصاً على حفلات منيرة المهدية .. وأنه كان يؤلف الأغنيات ويغنيها ويرتجلها .. وأنهم كانوا يطلبون إليه ذلك ..

وكان لى خال صوته جميل . وكان يطلب منى أن أرافقه في زيارته الليلية .. وكان خالى يغنى . وأثناء الغناء كنت أتناول العشاء وبعد لحظات أكون قد نمت .. وأجد خالى يوقظنى لكى نعود معاً إلى البيت . وكانت خالتي لها صوت جميل .. وكانت لها بحة .. وكانت تغنى المواويل الريفية وأغانى الأفراح وكانت تطبل وأحياناً تتحزم وترقص .

وقد أحببت الصوت الجميل ..

ولم أسمع أمى أبداً تغنى . ولا رأيته ترقص ولا رأيته تطبل ..

وكنت أذهب إلى الحقل لاستمع إلى أغانى الفلاحات وهن يجمعن القطن أو الأرز ..

وكننت أحب أن أستمع إلى صوت واحد من العمال . صوته قوى جميل .. وكننت أدعوه إلى الغناء .. فأقف في الشباك أو في البلكونة وهو يغنى لمحمد عبد الوهاب .. هو يغنى وأنا معه أيضًا . وكان قصير النفس ضعيفاً وكان يتخلل غناؤه نوع من السعال الذى يجعله ينكفى على الأرض .. ولكن في بعض الأحيان كان يغنى بغير سعال ..

مرة واحدة سمعت أمى تغنى وكانت في الحمام . واكتشفت أن صوتها جميل ولكن أغانيها كانت حزينة ففيها كلمات الصبر والزمن والكريم والبخيل والندل وابن الناس والذل والعين والحسد ..

وفي كل مرة يقرر والدى أن أرافقه إلى أحد الأفراح تدور مناقشات هامسة حادة بين والدى ووالدىتى .

هى تقول : لا تفسد الولد ..

هو : انه حفظ القرآن الكريم .. ومن يحفظ القرآن يحفظه القرآن .. لا تخافى أريده أن يكون رجلاً .. لا يعجبني إنه خجول أكثر من اللازم .. خائف زيادة عن اللزوم .. لا يريد أن يرى أحداً ، ولا أن يراه أحد .. يجب أن يخرج .. أن يرى الدنيا . إنه رجل .. يجب أن يكون رجلاً ثم إنه معى لا تخافى ..

- إذن لابد أن يضع جورباً وحذاء .

- الدنيا حر ..

- ولكنه يبرد بسهولة .. أخشى عليه من البرد ..

- إنتِ السبب .. الخوف من البرد .. الخوف من الزكام .. الخوف من المشى فى الظلام ..

الخوف من المشى فى الشمس .. أتركه ..

ويدور همس وكلام لا أتبينه بوضوح . ويطول الكلام .. ولا أعرف ما هو القرار ..

ثم يطلب منى والدى أن أستعد للخروج وأن أضع جورباً حتى لا أصاب بالبرد .. وأن

أرتدى ملابس ثقيلة ..

ويجندنى والدى قد ارتديت الملابس الثقيلة والجوارب والحذاء ووقفت أنتظر .

فيضحك ويقول : هاها .. أنت مستعد ؟

فلا أرد خوفًا من أمى . وأسبق والدى إلى الشارع وأمسك يده بمنتهى القوة . ويقول لى . أترك يدي أنا معك .. إلى جوارك لا تخف يا ولدى ..

ولكن إحساسى دائمًا أن والدى لا يبقى معنا إلا يومًا أو يومين يصيبنى بالخوف من اننى سوف أنام وأصحو فلا أجده .. ولذلك فأنا أجلس إلى جواره وحتى إذا ذهب ليناام جلست أمام سريره أو أمام باب الغرفة ..

وفى إحدى المرات نهضت من النوم فى حالة فزع .. فلم أجد حذاء والدى فى حضنى .. فقد اعتدت أن أخفيه فى ملابسى وأنا نائم .. حتى إذا أراد والدى أن يسافر كان لابد أن يوقظنى أولاً .. ولكن هذه المرة استطاع أن يستخرج حذاءه من ملابسى وأن يتركنى نائمًا .. ولكنى لحقت به ..

وكانت حفلة لمطرب له صوت نحيف اسمه عبد اللطيف البنا .. والناس قد تراحموا لسماعه .. فى صوان صغير محكم .. وبعض الناس جلس على المقاعد والدكك .. والباقون على الأرض .. وجاء المطرب لا أذكر ملامحه الآن .. ولكنه قصير القامة نحيف ووراءه ثلاثة من العازفين .. وجعل يغنى والناس تصرخ بأعلى الصوت . الله يا سى عبد اللطيف .. الله يا عم .. يا نبى .. الله هات من الأول .. كمان ..

وكنت أجلس على مقعد إلى جوار والدى فى الصف الأول . وإلى جوار والدى جلس العمدة والمأمور وواحد ينادونه يا سعادة الباشا .. وسقطت من فوق الكرسي على الأرض .. واصطدمت بطوية ونزف الدم من جبهتى .. وانزعج والدى والناس .. وبسرعة جاءوا بقطننة بها سبرتو ... وجاءوا بقليل من البن .. ووضعوا البن على الجرح .. ولا بد اننى بكيت . وسألنى والدى إن كنت أحب أن أوصل الفرجة والاستماع أو أنام .. أو أحد يعود بى إلى البيت . فقلت : اتفرج .. ولن أنام ! .

وقالت والدى فى الصباح إنها على حق .. فأنا أنام ولا أستمتع ولا أجد متعة .. ولا سبب فى أن يصر والدى على أن أرافقه .. ثم إننى فى كل مرة أصاب بشىء .. البرد أو الوقوع من المقعد .. أو يسقط الطعام على ملابسى .. أو تشد المسامير جوربى .. وكان والدى يقول لأمى : لابد أن يرى .. لابد أن يعرف .. وأن يجلس مع الرجال .. لا مع الأطفال

والسيدات .. ولا بد أن يمشى على التراب ثم يغسل قدميه .. لا بد أن يسمع الناس يتكلمون بصوت عال .. لا بد أن يرى زملاءه يتشاجرون ويشتم الواحد الآخر ، حتى يكره المشاجرة ويكره قلة الأدب .. ولا بد أن يشعر بتقدير الناس واحترامهم لوالده .. لا لأنه غنى ولكن لأنه يفهم في القرآن وفي الشعر وأنه لا يؤذى أحداً .. وأن الناس يقصدونه إذا أرادوا الشفاء أو إذا كانوا في ضيق .. ثم إننى لا أراه إلا قليلاً .. وأنا لا أريده أن يشعر كأنه يتيم ..

وبعد ذلك كان يدور كلام كثير طويل جداً وفي همس . وكانت أمى هى التى تتكلم عادة وتصر على ذلك .. وعلى ألا أسمع شيئاً من ذلك .. وكانت من حين إلى حين تجيء لترى إذا كنت قد نمت .. وكنت أظهار بالنوم لأسمع ماذا تقول .. ولكن أمى كانت تتكلم بصوت منخفض . وكنت لا أسمع صوتاً لأبى ..

وفي الصباح سألت أمى : هل سأدخل الأزهر ؟

وانزعجت أمى وكان عقربة قد لدغتها فنهضت واقفة من قال لك ذلك .. ينقطع لسانه ؟ من الذى قال ذلك ؟ قل لى حالاً ..

قلت : كل الذين يجلس إليهم أبى من الأزهر ..

- لن تجلس إليهم بعد اليوم . هم الذين قالوا ؟

- لا ..

- إذن من الذى أدخل فى دماغك هذه الفكرة ؟

- لا أحد . ولكنى أسأل .

- لا تكذب .

- أنا لا أكذب .

- أنا أعرف أنك لا تكذب . من يحفظ القرآن لا يكذب ..

- نعم .

- إذن من قال لك ذلك ؟

- لا أحد .

- لن تذهب إلى الأزهر يا ولدى .. لا بد أن تكون أحسن .. لماذا لا تقرأ الكتب التي عندك .. الكتب التي تضعها تحت السرير .. اخرجها يا ولدى .. واقرأ ليلاً ونهاراً .. لقد خشيت أمى أن حفظ القرآن الكريم والاكتفاء به سوف يجعلنى أدخل الأزهر .. ولذلك طلبت منى أن أقرأ كتباً أخرى ، لكى تبعدى عن الأزهر .. وكلما وجدت فى يدي كتاباً فإنها تقول . هكذا يا ولدى .. ربنا يفتح عليك ! .

وكان لأمى ابن خالة من رجال الدين .. ففى كل مرة يزورنا ويطلب منى أن أخبره ماذا تعلمت كانت تقول لى : أنا أريد أن أتكلم معه فى موضوع خاص .. أخرج انت يا ولدى .. خذ لك مقعداً وضعه تحت الشجرة .. لا تجلس على الأرض .. وخذ معك كتاباً واجلس فى الهواء .. وأنا سوف أبعث لك بالشاى ..

فقد اقتنعت أمى بضرورة الابتعاد عن كل المشايخ وأن أكون مختلفاً وألا أجلس على الأرض .. وأن يكون فى يدي كتاب .. أى كتاب .. وإذا جلست أن يكون مقعدى عالياً .. وإذا شربت أن يكون فى كوب تحته طبق .. لا بد .. وألا أغسل الكوب والطبق كما اعتدت أن أفعل .. هى التى تغسل . وأنا أقرأ فقط . وإذا وجدت معها عددًا من السيدات ، فيجب أن أكون بعيداً عن الكلام الفارغ الذى تقوله السيدات ليلاً ونهاراً . وأن أقرأ أحسن وأنفع .. أغرب من ذلك . كانت تقول لى . إمش أمامى .

وكنت قبل ذلك أمشى وراءها . دون أن أسأل إلى أين . هى خرجت وأنا وراءها . هى قامت فيجب أن أقوم . هى أكلت . هى شربت . نظرة واحدة منها تكفى لأن أبدأ فى الأكل . وأن تقف اللقمة فى فمى وأن أغسل يدي . وأن أنهض وأن أسبقها إلى الشارع لأمشى وراءها ..

ولكنها فجأة قررت أن أمشى أمامها . وأن أعرف قبل أن أمشى أين نحن ذاهبون وإذا أحسست أنا بالملل همست فى أذنها وبعد ذلك نعود فوراً إلى البيت ..

وكنت أسمعها تقول عنى : رجل البيت .. نعم رجل البيت .. ولا كل الرجال ! .

ولكن لا أعرف بالضبط ما الذى يمكن أن أفعله .. وما هى مواصفات رجل البيت ..

ولكن عرفت شيئاً واحداً أن هذه الصفات لا تقال إلا فى غياب والدى .. أى عندما يكون

هو مسافرًا فأنا الرجل الذى يحل محله فى خدمة أُمى وفى مساعدتها وفى استقبال الناس..
وفتح الباب والتأكد من إغلاقه قبل النوم .. والذهاب إلى الطابونة والفكهاى والاجزاخانة
ودفع الإيجار والسؤال عن جيراننا وأقاربنا من المرضى .. والسير فى الجنازات وشراء
المغات لكل من ولدت .. والاعتذار عن ماما بسبب السفر أو المرض .. وكنت دائمًا أقول
إنها على سفر..

وأمام الناس وجدت والدى يقول لى : لا .. لا .. إنست الذى يجب أن يقول ماذا يريد أن يكون فى المستقبل . ولا يصح أن تقول : إنك لا تعرف .. وأن ماما هى التى تعرف ! .
 وكنت قد أجبت على سؤال : ماذا تحب أن تكون فى المستقبل فقلت بمنتهى الصدق وحسن النية : لا أعرف .. ولكن ماما هى التى تعرف ! .
 وإذا سألوني : هل تحب اللحم المستوى فأقول : ماما لا تحب ! .
 وإذا سألوني : ولماذا أنت دائماً ترتدى الملابس الثقيلة . فيكون الرد : ماما هى التى تعطينى هذه الملابس ..

وسألوني . وفى الصيف تستحم أيضاً بالماء الساخن ؟
 فأقول : نعم .. ماما تصب الماء الساخن على جسمى صيفاً وشتاء ! .
 وأخذنى والدى بمنتهى الرقة والرفق . وجلسنا معاً تحت شجرة وقال لى : إسمع ياولدى .. أنا أعرف انك تحب أمك .
 - وأحبك أيضاً .

- أعرف .. وأعرف إنك لا تفارق أمك لا ليلاً ولا نهاراً .. وإنك رجل البيت .. ولكن ياولدى إذا ظللت طول الوقت تقول : ماما قالت .. ماما قررت .. ماما هى التى تعرف .. فإن الناس يشعرون بانك طفل صغير لا رأى لك ولا شخصية وإنك مربوط فى فستان أمك .. وإنك تمشى وراءها كالقط أو كالكلب .. وأنت الآن يا ولدى كبرت . سوف تصبح رجلاً .. وأنت تقرأ وتحفظ وتسمع من الرجال كلاماً لا تسمعه فى مجالس السيدات .. وأنا حريص على أن تكون مثل الرجال .. فلا تقل أبداً من رأى ماما كذا .. وليس من رأيها كذا .. وإنما يجب أن تقول رأيك أنت .. حتى لو كان ذلك هو رأىي أنا أو هو رأى أمك ..

- ولكن يا بابا أنا ليس لى رأى ..

- لا .. لك رأى .. مثلاً أنت اليوم ذهبت واشترت بعض الكتب دون أن تستأذن ماما .. وأنت اليوم لم تذهب إلى تقديم واجب العزاء فى إحدى قريبات ماما .. هى قالت لك : اذهب فوراً فأنت قررت أن تذهب مساء . وأنت قلت لها إنك تناولت طعام الغذاء ، مع إنك لم تأكل ولكنك خشيت أن ترهق ماما فترك فراشها وتقوم بتسخين الطعام .. كل هذه قراراتك إنت دون الرجوع إلى ماما .. وأنت لم تخطئ فى أى قرار منها .. ثم إن ماما طلبت منك أكثر من مرة ألا تأتى بالمطرب الغلبان الذى يعجبك صوته .. ولكنك لم تطع ماما .. وأنت لست غلطاناً فى ذلك .. فلا ضرر أن تسمع إلى صوت جميل .. فأنت لك رأى ولك قرار ولك شخصية .. وسوف تقوى شخصيتك وتصبح مختلفاً عن ماما وبابا .. وهذا طبيعى يا ولدى .. وهل نسيت اننا كنا نملك على أكتافنا ، لأنك لا تعرف المشى .. وهل نسيت إنك كنت تحبو على الأرض وتتساند على المقاعد .. والآن انت كبرت وتمشى دون أن تتساند على شىء أو على أحد .. لقد كبرت وسوف تكبر أكثر وتنضج وتبتعد وتعلو وتسمو . هذا طبيعى يا ولدى !

الله على كلامك يا بابا .. تقوله فى رقة وفى لطف .. ودون أن يبدو كأنه نصيحة . ودون أن يعمق عندى أى شعور بالغلط أو الندم .. ولذلك فإن الناس يحبون والدى .. وأنا أيضاً أكثر وأعمق !

* * *

لا أمى قالت لى ولا أبى ما الذى يعمله أبى فى هذه الدنيا .. وكان التلامذة فى المدرسة يسألون : محام ؟ طبيب ؟ مهندس ؟ فلاح ؟ تاجر ؟ ضابط ؟ وكنت لا أرد وأحياناً أقول : لا أعرف ! .
أو أقول : سوف أسأله فى المرة القادمة ! .
أو أقول : لن أقول لأحد منكم . انتم خمّنوا ماذا يعمل ؟
أو أجد إجابة مسلية : إنه رجل محترم .

ولكن تلاحقت الأسئلة : ولكن الرجل المحترم ماذا يعمل ؟

أو أقول : نعم إنه محترم . إنه يعرف سرسق وساسون وعزيز بحرى وإسماعيل صدقى باشا وعبد الفتاح يحيى باشا والوكيل باشا ومغازى باشا .. وعدلى يكن باشا .. ونعمت هانم يكن .. وعز الدين بك يكن ..

وكانت هى الأسماء التى يكررها والذى إذا جلس إلى الرجال .. فكل هؤلاء من أصحاب الأراضى الواسعة .. ولما سألت عن عمله . ضحك وقال : ياه .. لم يقل لك أحد يا ولدى .. هاها .. إنها غلطتى .. أو غلطة ماما .. تعال يا ولدى ! أنت عندك كم سنة الآن ؟ عندك أحد عشرى ، تعال .. سوف أقول لك كل شىء .. حتى لا تضيق بمن يسألك من زملائك فى المدرسة ..

وأخذنى والذى إلى الاصطبل .. وركب هو حصاناً وساعدونى على أن أركب حماراً .. وسار وراءنا ثلاثة من الخفراء وهم يقولون لوالدى : نعم يا حضرة المأمور .. أمرك يا حضرة المأمور .. على عيني يا جناب المأمور .

وكان والذى يركب حصاناً جميلاً .. نحيفاً رشيقاً بنى اللون طويل الشعر .. وكان يسمى حصانه « سرور » .. وكان إذا ناداه رفع رأسه وتوقف .. وأحياناً كان يناديه فيجىء إليه .. وكان يعطيه قطع السكر التى وضعها فى قرطاس فى جيبه .. وكان يرتدى البدلة دائماً والبرنيطة الكبيرة لوقايته من الشمس .. وكان إذا رآه الناس وكانوا جالسين وقفوا ودعوه إلى الشاي أو دعوا له .. وإذا كانوا يعملون توقفوا . وإذا كانوا يأكلون وإذا كانوا يشربون ..

وقال والذى : هذه الأرض كلها تملكها أسرة عدلى باشا يكن وكان رئيساً للوزراء .. كان شخصية كبيرة . وأنا هنا الذى يأمر الفلاحين بزراعة الأرض وريها وجمع المحصول وبيعه وإعطاء المرتبات للعمال والفلاحين .. وبقية الفلوس أسافر بها إلى القاهرة وأعطيتها لدولة الباشا .. فأنا هنا أعمل بالنيابة عن الباشا .. أنا هنا أكبر من العمدة ومن مأمور المركز ومن طبيب المركز .. أنا مأمور تفتيش عدلى باشا يكن .. أنا لا أضع يدي فى الأرض ولا أبلها بالماء ولا أستخدم المحراث ولا الساقية . الفلاحون هم

الذين يعملون طبقاً لأوامرى .. هذه وظيفتى . هل عرفت . هل هو عمل محترم .

- جداً . عظيم . أكبر واحد فى هذه الدنيا ..

- هاها .. هل أنت سبيد ؟

- نعم .

- هل تحب أن أجمع لك زملاءك فى المدرسة لتقول لهم ذلك ؟

- أنا سوف أقول لهم ..

- وأنا أسافر لأن الباشا له أرض أخرى فى أماكن مختلفة من مصر .. ولا بد أن أذهب

لأتفقد الزراعة والمحصول وجمع الأموال ..

* * *

لم تقلح الحياة فى الريف أن تجعلنى أحب الريف .. أو أطيل النظر إلى هذه الأشجار أو أتابع الطيور .. أو أتعلم صيد الأسماك ..

فلم تكن حياتنا فى الريف طويلة مستقرة .. وإنما كل شىء طريق نمر به أو نقطعه أو نتخلص منه أو نفرغ من طوله وعرضه ، ذهاباً أو إياباً من مكان آخر ..

ولم أحتفظ بكل هذه الألوان فى عيني .. ولا بكل هذه الموسيقى اليومية فى الريف .. فأنا لا أريد أن تشدنى إليها .. أن تمسكنى .. وأنا الذى أريد أن أهرب منها .. فلا شىء يمسكنى .. لا شىء يربطنى هنا فأنا مثل هذه الأشجار منزوعة الجذور تسبح على وجه الماء .. فكل شىء يمكن أن أنفضه عن ثوبى لأنه تراب .. وعن عيني لأنه كالتراب وعن أذنى لأنه غبار .. فكل شىء يجب أن أتخلص منه .. فإذا جلست فلا بد أن يلحق التراب بثوبى وبحدائى .. ولا يهب هواء لا يدفع التراب والتبن والدخان من كل اتجاه إلى كل اتجاه .. وكذلك الحقول والقنوات والطيور والبهائم والناس .. ولأن الذاكرة لا تحتفظ إلا بما له فائدة .. فأنا أحفظ الطريق لأننى سوف استخدمه من البيت وإليه .. وأنا أعرف مكان الكوب ومكان الطبق ومكان الكتاب لأننى سوف أبحث عنها .. ولكن إذا كانت كل هذه الأشياء لن أستخدمها فما فائدة أن تحتفظ بها الذاكرة .. فلا أسماء القرى ولا أسماء

الناس ولا صورهم .. فما حاجة الذاكرة إليها ..

وعلى الرغم من إننى أعتمد كثيرًا على صور الأشياء عمومًا ، وعلى رايحتها .. فأتذكر الشارع برائحته والبيوت وأحيانًا الحجرات وأحيانًا الكتب .. فإن رائحة البرسيم والمياه والأماكن الرطبة تذهب من أنفى بمجرد الانتقال من بلد إلى بلد . كأنها عبء على دماغى .. كأنها صداع أو مخص .

وفي نفس الوقت فلا أنا أكره الحياة فى الريف ، ولا أنا أحبها أيضًا . وإنما أحبها عندما أراها . ثم إذا غادرتها نسيت .. ولا أشتاق إلى الريف .

وكذلك الناس أيضًا .. أحب أن أجلس إلى الناس . أسمعهم . أكلمهم .. ولكن إذا وجدتني منزوعًا من عيون الناس وأذانهم ، أو وجدت الناس قد انسحبوا من عيني وأذني .. فما الذى أفعله ؟ إننى لا أقدر على أن أوقف الدنيا عن الدوران .. ولا أن أوقف هذا الفراق المستمر .. أو الهجرة المزمنة .. أو الخروج أو الدخول .. وعندى إحساس أن كل شىء يتحرك بعيدًا عنى .. وأنا لا أملك أن أمد يدي إلى شىء .. إن ألمس شيئًا فلا يتحرك .. أو أوقفه أو أتدخل فى حركته بعيدًا أو قريبًا ..

وأحيانًا أحس كأننى مغطى بطبقة رقيقة من شىء ما .. هذا الشىء ما لا يجعلنى أحس بالأشياء .. وإنما بينى وبينها مسافة .. بينى وبينها حائل .. عازل .. كأننى أنظر إلى الدنيا من وراء منظار غليظ .. وأسمعها من وراء عازل غليظ .. وكأننى عندما أسير أو أتحرك فبدلًا من أن أمشى فى طريق مستقيم فأننى أدور حول نفسى أمام الأشياء ثم أتقدم .. كما تفعل الأرض حول نفسها أمام الشمس . وكل الكواكب تدور .. وأنا أيضًا ! . لماذا ؟ لا أعرف كيف تولد هذا الشعور وأستمر وأستقر ..

ولكن تعودت شيئًا لا أدرى ممن تعلمته .. فلا أمى تفعل ذلك ولا أبى ولكن اعتدت أن أسند ظهري إلى الحائط وأتفرج على الناس من بعيد .. وأقول لنفسى هذا أطول من فلان وهذا أقصر وهذا أصغر .. وهذا أكبر .. وهذا له عينان واحدة أضيق من الأخرى .. وله كتفان واحدة أكثر انخفاضًا . وهذه الديوك وهذه الأرانب .. والأبقار والجواميس .. ولاحظت أن بعض الناس لهم ملامح الحيوان والطيور . وأن العشرة تجعل الكائنات

تتشابه في سلوكها .. وكنت اعقد مقارنات بين الحيوان وصاحبه .. وبين الرجل وزوجته ..
وكنت أتساءل بينى وبين نفسى إن كان فلاناً هذا قريباً لفلان لمجرد التشابه في الفم أو
الجبهة .. أو الميل أثناء المشى .. وكانت بعض ملاحظاتي صحيحة ..
وانفتحت أمامى دنيا أخرى واسعة متنوعة : الناس ..

وأول مذكرات كتبتها كانت عن ملاحظاتي عن زملاء الدراسة وعن المدرسين وبواب
المدرسة .. ثم رحلت ألاحظ كل صديقات أمى وكل قريباتى وكل أصدقاء والدى .. وكنت
أبالغ في ملاحظاتي عن الناس .. وكأني اكتشفت لعبة جديدة .. أو سلاحاً جديداً أطلقه
في كل ناحية .. أو أستخدمه حيث لا ينبغي أن أستخدمه .. كنت في بعض الأحيان استغنى
عن الملعقة والشوكة وأكل بالسكينة في قطع اللحم بالطول واستخدمها بالعرض كالملعقة
والسكينة معاً .. وقد اكتشفت لعبة أخرى وهى اننى إذا نظرت طويلاً إلى وجوه الناس أو
إلى عيونهم ، فإن الواحد بسرعة يقول : ماذا ؟ لماذا تنظر إلى وجهى هكذا ؟

وعرفت أن الناس يتضايقون ممن يطيل النظر إلى عيونهم أو وجوههم .. أو يركز
عينيه على شيء معين .. ولاحظت اننا عادة ننظر إلى وجوه الناس بصفة عامة ، ولكن ليس
إلى شيء في الوجه بصفة خاصة ..

وبالغت في هذه النظرات حتى ان إحدى السيدات شكت لأمى : الولد كبير .. إن له
نظرات جريئة . يا ولد لا تنظر لى هكذا .. كأنك تريد أن تأكلنى !
وكانت النظرات هذه سلاحاً يضايق الناس ..

واكتشفت سلاحاً آخر أيضاً في ترسانة الاهتمام بالناس وهو أن أنظر بعيداً عن الذى
يحدثنى أثناء حديثه .. فيتساءل : ألسنت معى .. ما الذى تنظر إليه هناك .. هل هذا الذى
أقول لا قيمة له .. ولماذا تتركنى هكذا أنبج كالكلب بينما أنت لست معى ؟
أو لا يكاد واحد يتحدث إلى حتى أتركه وأنظر إلى حذاء أو بعض ملابسى وانشغل عنه
تماماً .. أو أتركه إلى أى شيء آخر ..

إن هذا يضايق الناس جداً .. فمعنى ذلك إهمال وتجاهل تام .. فيشعر المتحدث كأنه
لا شيء .. أو كأنه يتحدث إلى نفسه .. أو إلى حائط .. أو إنه لا يستحق أن يهتم به أحد ..

واكتشفت سلاحًا آخر هو أن أستمع إلى أى إنسان وأنظر إليه وكأننى أتابعه مع اننى فى الحقيقة شارذ الذهن تمامًا .. فإذا حاول الشخص أن يسألنى ان كنت أتابع ما يقول .. فأؤكد له إننى سرحت بعيدًا عنه .. وإنه كان يهوهو طول هذا الوقت ..

وأسرفت كثيرًا فى استخدام « السرحان » أسلوبًا فى الوقاية من الناس ووجدته علاجًا للأحاديث المملة .. فأنا أتابع وفى الحقيقة لا أتتبع ما يقول .. ووجدت أن السرحان أحسن وسيلة لادخار الطاقة .. طاقة الرؤية والاستماع .. والاحتفاظ لنفسى بأكبر طاقة ممكنة .. والاحتفاظ بحقى فى أن أهرب من كل ما يضايقنى ..

وأصبح السرحان عادة سيئة .. هذه العادة أوقعتنى فى مشاكل كثيرة مع الناس . فأنا أقابل الشخص الواحد عدة مرات . وفى كل مرة أنظر إليه كأننى لا أعرفه . أو كأننى أراه لأول مرة .. ولذلك فبعض الناس يقول : طبعًا أنت نسيت من أنا .. أنا فلان ..

ويكون اهتمامى الشديد به ، دليلًا على اننى نسيته .. رغم انه قدم نفسه قبل ذلك عدة مرات .. وكثيرًا ما فوجئت بمن يقول لى : والله لن أقول لك من أنا .. فليس معقولاً إننى تافه لدرجة أن ترانى عشرين مرة ثم لا تعرفنى مع اننا نساكن فى شارع واحد .

ووجدت أن هذا السرحان ينقذنى من مشكلة أخرى .. فنظرى ضعيف .. وأنا لا أستطيع أن أركز فى رؤية الناس ولذلك ليس من السهل أن أعرفهم .. ولذلك كنت ألجأ إلى أن أنشغل .. أو افتعل الانشغال لأننى لا أستطيع أن أرى بوضوح .. ووجدت حلاً لهذا المأزق وهو أن ابتسم لكل إنسان أعرفه أو لا أعرفه ويكون الابتسام تحية له كأننى أعرفه .. وحتى لا يكون الابتسام مقصودًا تمامًا كأننى أعرفه ، فإن الابتسام يجيء مصحوبًا بشيء آخر .. كأن أنظر ورائى .. أو أنظر إلى شيء بعيد .. أى إننى عرفت الشخص ثم انشغلت عنه .. ولكنى لم أتجاهله ..

حتى هذا قد أوقعتنى فى مشاكل أيضًا . فأجد من يقول لى : الله يا أخى انت تضحك لى كأنك لا تعرفنى .. طيب من أنا ؟

ولذلك كان من الأسلم أن أنظر من بعيد .. وتكون النظرة واسعة شاملة .. وتكون أحجام الناس أصغر .. ويكون احتمال عدم وضوح الرؤية والخطأ كبيرًا . ولكن أدمنت

وأمعنت النظر إلى الناس .. وإلى العلاقات بينهم وأثرهم في أعماقي .. فالناس في أعماقي ..
وهمومهم همومي .. ووسيلتي إلى معرفة نفسي وإلى معرفتهم أيضًا .. وأنا أستعين على
فهم الناس بالناس ، وأتأمل الحيوان والطيور والحشرات والزواحف ، وكل ذلك في
أعماقي .. أراهم بعيني ، وأراهم بعقلي وأتابعهم بخيالي .. إنها دنيا لا أول لها ولا آخر ولا
مكان ولا زمان ولا حاضر ولا ماض ولا مستقبل .. إنهم هنا في دماغي .. وهنا في قلبي ..

كل يوم جمعة مساء نذهب من القرية إلى المركز - أنا وأخى الأصغر .. فنحن نسكن في غرفة قريبة من المدرسة . وواحد من اخوتى الأكبر سنًا يرافقنا . يعيش معنا يرعانا .. ونحن نركب حمارين ووراءنا غفير .. وأخى الأكبر يركب حمارًا . أما الغفير فقد وضع أمامه قفه بها طعامنا لبضعة أيام .. الخبز والكعك .. وبعض الأرز والسكر والشاي .. ثم حلة بها أرز بالفرن .. وبعض الفطير المشلتت ..

وكثيرًا ما كنت وأخى نصحو على أصوات غريبة في الغرفة .. وننظر من تحت اللحاف فنجد القلط تتخاطف الأسماك والكلاب تتخاطف الدجاج المسلوق .. وتقلب حلة الأرز في الأرض .. أما القلط فقد دخلت من النافذة . لقد نسينا أن نغلقها أما الكلاب فقد وجدت الباب مفتوحًا .. أما أخى الأكبر فهو سهران لم يأت بعد ..

ويتكرر ذلك كل أسبوع أو كل أسبوعين ..

ويوم الخميس بعد الظهر تجيء الحمير لتنقلنا إلى القرية .. الطريق طويل .. بين الترع والمصارف .. والليل له صوت غريب .. والكلاب تنبح بعيدًا وأحيانًا تقترب منا وتتسابق مع الحمير أو نتعلق بها ونرفع أرجلنا ونضعها أمامنا فوق الحمار وينزل الخفير لطرده الكلاب ويطلق النار في إتجاهها .. وكان الخفير يغنى طول الوقت .. وينبهنى وأخى الأ

ننام ..

وفي إحدى المرات ظهر من الحقول جماعة مسلحون وسألوا الخفير : من هؤلاء ؟
قال : أولاد جناب المأمور .

- من المأمور؟

- الله المأمور عمك محمد منصور ..

- آه .. ونعم الناس . إنه رجل طيب .. مع السلامة ! .

ثم يختفون وسط الحقول وقد تعلقت الأسلحة من أكتافهم ..

وفي إحدى المرات وجدنا واحدًا راكبًا حمارًا وقد غطى وجهه وسأل الخفير : من هؤلاء؟

قال الخفير غاضبًا : أولاد المأمور ..

- عباس .

- لا .. المأمور بتاع عدلى باشا .

- عم محمد ؟

- نعم ..

- والله صاحب فضل علينا جميعًا .. والله لقد أعطاني مهر ابنتي من جيبه ورفض أن

أعيد إليه مليًا واحدًا .. ألف سلامة يا أولاد الأمير ! .

وفي يوم مرض الخفير ولم يستطع أن يرافقنا . فتطوع خمسة من الفلاحين ورافقونا

إلى المركز .. أما أخى الأكبر فقد كان دائم السهر .. هو يخرج من هنا ، والكلاب تزورنا

والقطط .. ثم هو يرجونا أو يحذرنا أن نذكر شيئًا من ذلك لوالدي أو والدتي ! .

أما المدرسة فهي في نهاية الشارع .. وهى صغيرة . وأهم ما فى هذه المدرسة ناظر

المدرسة وهو من أقارب والدتي .. وكان رجالًا متعاليًا مكروهاً من الجميع .. فالمدرسون

عندما يتحدثون عنه يمطون شفاههم أو يهزون أكتافهم . ويتساءلون : ألم يكن واحدًا

مثلنا فى العام الماضى ؟ فمن أين جاءت هذه العنطة ؟ وكيف لا يحمل أوراقه .. إنما

يتركها للساعى ينقلها إلى الفصول ذهابًا وإيابًا .. ثم إنه يضع يده فى جيب الصديرى إذا

تكلم مع أحد .. وزوجته فى البيت تضربه بالجزمة ..

ولم أفهم فى تلك السن ما يقال عن مدرس إنه مسيحى .. شىء غريب أن أحدًا لم يقل

ما معنى ذلك .. ولا ما هو الفرق بين مسيحى وأى مدرس آخر .. لم أسأل . ولم يتطوع

أحد بأن يقول المعنى .. ومن الطلبة وجدت واحدًا اسمه جورج وقالوا مسيحى . ونظرت

إليه .. لا فرق بينه وبين أى طالب آخر .. هو مهذب أكثر .. ضاحك دائمًا .. حريص على أن يكون منعزلًا ولكننى أجد فيه صورة منى .. فأنا أيضًا إنطوائى .. وأفضل أن أجلس بعيدًا وأن أتفرج وأن أكتفى بواحد فقط أتحدث إليه .. ويكون الحديث عن الكتب .. أما جورج هذا فهو يعرف أنواع الزهور والنباتات .. فأبوه يعمل فى العطور . وهو يساعده فى عمله كل يوم بعد الظهر . وقد دعانى أن أزوره فى المحل . وكنت أحب أن أذهب إليه .. وأجلس فى داخل المحل وهو يتحدث إلى الناس ويعرف كل الزبائن ويتحرك بسرعة .. فأتى بالزجاجات الكبيرة ويفرغها فى الصغيرة . ويفتح درج الفلوس . ويكتب فى ورقة . كل شىء يتم بمنتهى السرعة . وله حكاية مع كل زبون .. وليس على لسانه إلا كلمات : حاضر .. من عينى .. تحت أمرك .. نورت .. شرفت .. ألف سلامة .. غداً تدفع على أقل من مهلك ! .

وكنت مبهورًا بجورج هذا .. فمن أين يأتى بهذه الكلمات . وكيف يعرف كل الناس ، وكيف يحب كل الناس . وهم أيضًا يحبونه .. فإذا جاء أبوه تغيرت معالم وجهه . وأصبح إنسانًا آخر . وخرج من المحل وأتبعه لكى يترك مكانه لوالده .. فإذا سرنا فى الشارع عاد تلميذًا يتكلم عن التلامذة الآخرين وعن المدرسين وعن الكتب وعن الكراريس . وعن بنات الجيران .. فلانة وفلانة .. ويسألنى إن كنت أعرف واحدة منهن . فلا أعرف . ويندهش .. إن فلانة تراك كل يوم وأنت خارج وتقول إنك فى غاية الأدب .. وإنما حاولت أن تكلمك ولكن وجهك أحمر ورفضت حتى النظر إليها .. وهى حزينة لذلك فلماذا .. وهو ينيهنى إلى ما يجب أن عمله .. وكيف أحدثها .. وأين وبعيدًا عن الناس . وعنده خطابات وعبارات وأساليب وحيل ..

وماذا أقول لو رآنى والدى أو والدتى أو حتى والدتها .. وخصوصًا أخوها الأكبر .. ومن هى أقرب الصديقات لها والتى تسكن فى البيت الملاصق لبيتنا . ويمكن أن أبعث معها برسائل من كل نوع .. إنه شخصيًا يفعل ذلك .. وهو يعرف عددًا كبيرًا من البنات لأنهن جميعًا صديقات أخته وزميلاتها فى المدرسة .. وحكى لى المطبات التى وقع فيها وكيف خرج منها ..

وكان لنا زميل اسمه لويس .. ونصحني بأن ابتعد عنه لأنه شديد التدين وهو يرى أن كل شيء في الدنيا حرام .. الوقوف مع البنات .. ومجرد النظر إليهن .. ثم إنه يريد أن يكون قسيماً عندما يكبر .. وسألني : طبعاً انت عارف أن يكون الإنسان قسيماً ؟
ولم أكن أعرف ولكنه أوضح لي ذلك بأن قال : تماماً كما يذهب الناس عندكم إلى الأزهر ويكون شيخاً ! .

وجاءت كلمة « عندكم » هذه غريبة .. أو كانت مثل سكين قطع شيئاً بيني وبينه .. عندهم وعندنا .. هم ونحن .. قساوسة ومشايخ .. شيء غريب أن يقول ذلك بسرعة ودون أن يتنبه إلى أثرها في نفسي ..

وكنا نقف بالقرب من باب المدرسة نتفرج على خادم - يقولون إنه خادم - مع انه يشبه أى واحد منا تماماً في ملابسه .. وهو صغير ونظيف ومؤدب .. وهو يحمل سلة من الطعام لاثنين من التلامذة .. وفي هذه السلة حلل صغيرة وأكواب وفاكهة .. وسندوتشات ..

والمدرسة لها حوش كبير تلعب فيه الباسكت بول .. وحوش صغير وضعت في جانب منه منضدة البنج بونج .. وكل الفصول تطل على الحوش .. وهى أعلى من مستوى الحوش . ولذلك يصعد لها بساللم . هذه الساللم مكسرة وقذرة . وإن كان السعاة يرشونها بالماء .. وخصوصاً الفصل الذى سوف يدخله حضرة الناظر ..
وعندما رأنى حضرة الناظر قال لى :

احضر والدك غداً ..

ثم دخل مكتبه بينما ظللت أبكى طول الطريق إلى البيت . فأبى ليس هنا . ولم أستطع أن أقول لحضرة الناظر .. ولا أعرف ما الذى سيفعله إذا لم يأت والدى غداً ..
وفي اليوم التالى قالوا إن حضرة الناظر مريض . ولم يأت وحمدت ربنا وتمنيت أن يظل كذلك حتى يجيء أبى ..

وسألني والدى : إن كنت أحب أن ألعب الباسكت ..

فقلت : لا .

- ولا البنج بونج ؟

- لا ..

- ولا أن تشترك في فريق الموسيقى ؟

- لا .

- غلط يا ولدى .. لا تكن وحدك . يجب أن تشترك في كل شيء .. فيكون لك زملاء وأصدقاء وتدب الحيوية والانتعاش في حياتك .. فأنت صاحب الوجه وأنت لا تأكل كما يجب لأنك لا تمارس أى نشاط يفتح الشهية على الطعام والنوم العميق وأن تكون في اليوم التالى أكثر حيوية .. لقد قلت لحضرة الناظر إننى أريدك أن تشترك في كل شيء .. ثم إنك أول المدرسة .. لا تخف إن هذا لن يعطلك عن التفوق .. صدقنى ! وأنا لا أحب أن تكون متفوقاً مريضاً هزياً .. إن الطريق أمامك طويل يا ولدى .. طويل جداً يجب أن تمشى في طريقك بصحة وعافية وأعصاب هادئة وحب للعلم والحياة والناس .. يجب يا ولدى ..

وكانت والدتى تعارض في كل ذلك .. لأنها مصاريف لا لزوم لها .. ولأنها تشغلنى عن المذاكرة .. ولأننى كثيراً ما تشاجرت مع زملائى في المدرسة .. وإننى مثل خالى وأمى لا أعرف كيف أتشاجر .. وإننى أبدو ضعيفاً . وهذا الضعف يشجع التلامذة بالاعتداء على لأننى لا أخيف أحداً .. ولأنهم يحقدون على تفوقى .. فأنا أذاكر وأقرأ ولا أشارك في اللعب ..

والمدرسون يقولون دائماً : إن اللعب سوف يذهب بهم جميعاً في ستين داهية .. أنا وحدى الطالب الذى سوف يكون له مستقبل .

وكان ذلك يضاعف غيظ التلامذة وتحرشهم وتربصهم .. وإلقاء الحبر على كتبى والطوب وأحياناً الوحل ..
ثم إننى لا أشكو لأحد ..

وإن كان بعض التلامذة يتطوعون نيابة عنى .. فإذا علم المدرسون بذلك . استدعوا التلامذة الذين ضايقونى فأداروا وجوههم إلى الحائط .. ثم طلبوا منى أن أصفعهم أو أضربهم بالشلوت .. وكنت أرفض ذلك - فيتولى المدرس ذلك وبمتهى الشدة ! .

وكانت مدرسة البنات ملاصقة لمدرستنا .. فكنت أرى البنات تنظر من النوافذ وأحياناً المدرسات .. وعرفت من عزيز أن المدرسات يعاكسن المدرسين .. ولم أفهم .. وأنه رأى واحدة منهن تلقى بخطاب لمدرس الألعاب الرياضية .. وأن هذا المدرس يسكن وحده فى آخر المدينة .. وأنه رآها ليلاً وقد غطت وجهها وهى تتجه إلى بيت هذا المدرس .. ولم تعد إلى بيتها إلا فى ساعة متأخرة .. وأنه ظل يلف حول البيت حتى يتأكد من ذلك .. وسار وراءها وأنه على يقين من كل كلمة ..

ولكنى لم آر تلميذة واحدة من هذه المدرسة لا دخولاً ولا خروجاً . وهزنى عزيز قائلاً: طبعاً لأنك أعمى ! .

كاننى لا أمشى فى الشارع وإنما أنا أدور حول نفسى .. أو أدور مثل الجاموسة فى الساقية .. وقد غطوا عينيها .. أو أنها لا تنشغل بشيء غير الدوران فى الساقية .. وأنا وضعت كتاباً على هذا الجانب من الوجه وكتاباً على الجانب الآخر .. أو انشى أنظر إلى الدنيا بعينى أسمى .. وأعصابها .. ولذلك فدنياى خالية تماماً .. أو يجب أن تكون فارغة من كل أحد ومن كل شيء .. وإننى مربوط بحبل .. أو بأستك من الجلد .. وكلما ابتعدت عن البيت شدنى بعنف .. ولذلك أخرج بصعوبة من البيت ، وأعود إليه بسهولة .. إن الجاذبية التى تشدنى ليست من تحت قدمى .. ولكنها من أنفى .. من شفتى .. من شعر رأسى ..

وأدرك والدى كل ذلك فى الساعات القليلة التى نعهدها معاً . ولذلك يحاول أن يوقظنى .. أن يهزنى لكى أصحو .. أن يستخدم السكين ليفتح عينى بالقوة .. أو يكسر الشرنقة أو المحارة التى أقبع فى داخلها .. ولكنه كان فى غاية الرفق ..

أما طريقته فهو أن أصحابه إلى رؤية أناس أكبر سنًا وإلى الاستماع إليهم .. دون أن
يتبهنى إلى الذى أسمع أو الذى يقصدون من وراء حكايتهم .. ونواديرهم .. ولا حرج على
أن أعرف أولادهم الصغار والكبار وحتى البنات وحتى زوجاتهم .. وأن أذهب إليهم دائمًا
وحدى ، ولا داعى لأن أنتظر والذى حتى يجىء ..
إن والذى قد زرعى بقوة فى أرض هؤلاء الأصدقاء - أصدقائه هو ..

www.alkottob.com

أما كيف يختار والدى أصدقاءه ، فأنا لا أعرف . ولكن يكفى أن يلتقى بأى إنسان .
كلمة من هنا وكلمة من هناك . وحكاية . والدى عنده حكاية مضحكة لكل موقف .
وبسرعة يجيء مقعد لكى يجلس عليه والدى . وأجلس أنا أيضاً . ويجيء الشاى
بالنعناع .. وبسرعة يتم الاتفاق على لقاء ..

لقد رأيت اناساً صادقهم والدى . ولم يكن يعرفهم . ولكنه يلقي ترحيباً من كل
الناس . وأنا أحب أن أنظر إلى وجه والدى . إنه لا يكاد يقترب من أحد حتى يضىء
فالاتسامة جاهزة .

والحكايات والنوادر والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشعر كلها جاهزة
عند أية إشارة منه ..

فإذا اشترى والدى فالبائع سعيد بأن يقدم له أحسن ما عنده .. ويعتذر عن قبول
الفلوس . وكان والدى يرفض .. فكان البائع يعطينى الفاكهة والحلوى فوق البيعة ..

فى ذلك الوقت كان أهم أصدقاء والدى شيخ المسجد .. إنه على موعد معه دائماً . يدق
بابه . ويخرج الرجل وقد إرتدى جلباباً وقد شمر عن ذراعيه : اتفضل اتفضل .. يا مرحبا
يا مرحبا .. هلت روائح النبى .. أهل البركات والخيرات .. أهلاً ومرحباً ..

ويفتح لنا الباب . ولا يكاد يرانى حتى يقول : أهلاً بالحبيب ابن الحبيب .. أهلاً
بباكورة الخير ..

وتدخل فوالدى يعرف الغرفة التى نجلس فيها .. ثم يظهر امام المسجد وهو يضحك

قائلاً : يا سيدى انه شغل البيت .. الست بعافية .. ولايد أن أغسل الأطباق والحل
وملابس الأطفال .. الحمد لله على الصحة والعافية .. طبعاً شاي بالنعناع . وأثناء عمل
الشاي أكون قد غيرت ملابسى وجئت بالملابس التى تليق بالمقام ..
وفى الصالون تمتد يد والدى إلى الكتب يقلبها .. وينسى وجودى .. هل أنا أخذت عنه
هذه العادة .. ثم يقرأ بصوت هامس .. ويهز رأسه .. ويبحث عن كتب أخرى .. ويبدو انه
يعرف معظم هذه الكتب ..

ويجىء الشيخ بالجبة والقفطان والشاي والأكواب الصغيرة .. والرجل طويل نحيف
أسمر وصوته غليظ .. وإذا تكلم فكأنه يخطب . وإذا ضحك كانت ضحكته مجلجلة ..
وله شكوى .

والله يا محمد يا أخويا الناس ميتة على الدنيا .. نريد إصلاح المسجد ولكن أحدًا لا
يتبرع بمليم واحد .. الرائحة كريهة تضايق المصلين .. والفئران تقفز من كل مكان
والثعابين تطاردهم والناس يهربون من الصلاة . ومنذ أيام قفز فأر صغير أعمى أو
مريض لا أعرف فإذا به يتعلق بالجبة وأنا لم أشعر بذلك فوجدت ثعبانًا واقفًا أمامى ..
فلم أملك إلا أن خرجت من الصلاة والناس ورائى .. ووجدت الفأر فى جيبى ..

ويقول إنه عمل بنصيحة والدى وذهب إلى بعض الأغنياء . ولكن كل واحد وضع يده
فى جيبه ودفع مبلغًا تافهًا . لولا أن والدى أقنع الباشا بدفع مبلغ من المال لبياض المسجد،
لظل مظلمًا كأنه كهف أو مقبرة جماعية ..

والتفت شيخ المسجد ناحيتى وقال لى اسمع يا ابنى إياك أن تفكر فى أن تكون إمامًا
لمسجد أو خطيبًا ..

وحكى لنا كيف انه سمع ابنه الصغير يقول لزملائه الأطفال إنه عندما يكبر سوف
يكون له مسجد أكبر وانه سوف يكون إمامًا مثله .. فضربه علقة حتى لا يعود إلى هذه
الأمنيات التعيسة مرة أخرى ! .

ولما حكيت لأمى هذه القصة كانت تدفعنى أن أذهب إلى بيت إمام المسجد وأن أجلس
مع أولاده وأن أستمع إليه .. لأنه رجل طيب - ومن النادر أن تصف أمى أحدًا بهذه
الصفات الفريدة ..

وفي الطريق إلى بيت القاضى الشرعى كان والدى يقول لى . إنه رجل طيب . ولكن طريقته فى الكلام لا تدل على إنه رجل غليظ القلب .. إنه لا يعرف كيف يضحك فلا تغضب منه

كل مرة ينبهنى ويحذرنى . وكل مرة أعود فى ضيق من هذا الرجل ..

ودق والدى الباب . وراح ينادى : يا فضيلة الأستاذ .. ضيوف ..

ويجىء صوته غليظاً عالياً من الداخل : أهلاً بالضيوف .. تفضلوا يا مرحباً ..

وتجىء خادمة تفتح الباب ويكون هو واقفاً وراءها .. العمامة كبيرة والجبة سوداء والقفطان أزرق مخطط بالطول .. وهو طويل وله كرش كبير ولا يكاد يرانى حتى يقول: ادخل انت يا ولد .. واذهب اجلس مع العيال .. ادخل !

وكنت لا أحب أولاده .. إنهم خمسة . إذا دخلت فإنهم يمضون فى الكلام وكأننى لست موجوداً .. حتى تجىء الأم وتطلب منهم أن يشركونى معهم فى الكلام .. وهم يأكلون دائماً .. كل واحد قد ملأ جيبه ببلح أو جواقة .. أو بعض الفطير المشلتت .. أو بعض الفول الأخضر .. يتكلمون ويأكلون ويتشاجرون .. ومن الحين والحين يقترب واحد منهم ويسألنى : لماذا لا تظهر .. إننا نلعب بالقرب من بيتكم ..

ويتساءلون .. وهل أنا مريض .. أو كنت مريضاً ! أو هل صحيح أن أختى ماتت .. أو إنها خالتي ؟

أو هل صحيح أن الذئاب هاجمت الدجاج فى بيتنا وأن والدى قتل واحداً من الذئاب ؟

ومن بعيد يجيء - عادة - صوت القاضى وينادى : تعال يا ولد .. ابعثوا به .
وتجىء الخادمة وتنتشلنى من بين هؤلاء الأطفال لأجلس مع والدى والقاضى ..
ويكون القاضى هو المتكلم دائماً . عيال عفاريت .. انت لا تعجبهم ، ولا هم يعجبونك ..
انت هادئ .. انت تحب القراءة وهم يحبون الأكل مثل أبيهم ومثل أمهم أيضاً .. هذا
الكرش من كثرة الأكل وقلة الحركة .. إياك أن تكون قاضياً شرعياً حتى لو قطعوا يديك
ورجليك .. انت صغير لا تعرف .. ولكن بابا عنده فكرة .. إياك يا ولد .. خذها منى ..
إياك !.

تصور يا سى محمد - يقول لوالدى - الولد الكبير يريد أن يقرأ فاتحة بنت خالته ..
وأمه تشجعه على ذلك .. الولد الكبير فى الابتدائية .. ويا عالم هل سينجح .. المصيبة ان أمه
وخالته متحمستان للفاتحة .. مصيبة والله .. العيال اتجننت والأمهات أكثر جنوناً .. ومع
ذلك لا أجد كلاماً أقوله لمراتى وأمها .. والمصيبة ان كل الأسرة سعيدة بقراءة الفاتحة ! .

وسأله والدى : وأنت يا سعادة القاضى ماذا فعلت فى هذه القضية .. البنت صغيرة
حقاً والولد صغير .. والكل متحمس لهذا الغلط .. وأنت أبو القانون ماذا فعلت ؟

ووقف القاضى يقول : وهل تظن اننى أعمل قاضياً فى البيت ؟

إن البيت مكان للاتهام .. أنا متهم دائماً .. متهم من أولادى بالقسوة ومن مراتى
بالإهمال .. وهم جميعاً القضاة .. وأنا الوحيد الذى فى القفص .. علم ابنك ألا يتزوج إذا
كبر .. والله العظيم ثلاثا لولا اننى قاض شرعى ما تزوجت يوماً واحداً .. وإذا ارتكبت
حماقة الزواج ما أنجبت كلباً واحداً من هذه الكلاب التى تنهش صحتى ومالى وراحتى
كل يوم ! .

وفى الطريق كان والدى يقول لى : إنه رجل ظريف ..

كانه يريد ألا أصدق ما سمعت ، أو ألا أهتم باعادة التفكير فى ذلك .. وألا أنقله إلى
والدتى ! .

وكنت ألاحظ أن والدى يتثاقل وهو فى طريقه إلى بيت ناظر المدرسة وهو من أقارب والدتى .. ويبدو أن والدى كان يلاحظ أننى أيضاً لا أحب هذا الرجل .. لا أحبه ولا أخافه. فكان يقول لى : إنه رجل جاد .. ولا يمكن أن ينجح إنسان فى إدارة عمل إلا إذا كان جاداً . وإذا هو ضحك مع الذين يرأسهم فإن احترامهم له يكون أقل .. ولذلك يجب ألا يسرف فى الهزار أو المداعبة .. أنا شخصياً لا أستطيع أن أكون كذلك .. ورئيس أى عمل يحتار بين أن يكون مخيفاً وبين أن يكون محبوباً .. والمخيف لا يحبه الناس ، والمحبوب لا يحترمه الناس .. وأنا لا أحب أن أخيف ! .

ونصعد الدرج . وتمتد يد والدى تدق الباب رغم انه مفتوح دائماً .. ولا يجىء أحد للرد على القادمين بسرعة .. إنهم يتركونه واقفاً بعض الوقت . لماذا ؟ هذا ما يحدث فى كل مرة . ويظهر حضرة الناظر . إنه أبيض طربوشه قصير أحمر . ومنظاره زجاج أبيض . وشاربه يغطى جانباً نحيفاً من شفته العليا . وصوته أجش .. والسيجارة دائماً بين أصابعه ..

وهو يتكلم بعض الوقت أمام الباب قبل أن يقول : تفضلوا .. وفى الدقائق التى نقفها أمام الباب تكون أفراد أسرته قد انتقلت من مكان إلى مكان .. سيدة ممتلئة وفتاة وطفلة وخادمة ..

ثم يتلفت حضرة الناظر وراءه ويقول : الآن تفضلوا .. وانت ؟ يقصدنى أنا .. أى اننى جئت مع والدى . جئت أو ما كان يجب أن أجىء .. وتكون

هذه البداية كافية لأن أنكمش في مكان إلى جوار والدى ولا أرفع رأسى . لا أقوى . ولعل لا أسمع أيضًا . فوالدى يتحدث عن لقائه بعدد من الناس هم أقارب حضرة الناظر . ويدخلان في مناقشات طويلة عن الأرض والمحصول . ويقول حضرة الناظر دائمًا : ولكن المحصول عندنا هذا العام أفضل .. والدودة أقل . طبعًا انت عارف؟

يقصدنى . وبسرعة يرد والدى فيقول . أبدًا . لن يعمل في إصلاح الأرض . ولا في زراعتها . ولا الجرى وراء الذى دفع والذى لم يدفع .. ووراء الدودة واللطعة .. وينزل المصرف إلى التربة .. ويتغذى عند الساقية ووراء الشادوف .. أبدًا .. وإحساسك طول الوقت انك تطارد الناس بكرباج لكى يدفعوا ما عليهم .. والناس لا يريدون أن يعطوا كما أخذوا .. بل أن يأخذوا ويأخذوا .. وينسوا حق صاحب الأرض .. وإذا أنا تغاضيت اتهمك صاحب الأرض بأنك متهاون .. وإذا أنا تشددت اتهمك الفلاحون بأنك بلا قلب .. فأنت متهم دائمًا . ولا أستطيع أن أمسك العصا واضرب الناس .. فلا هم تلامذة ولا أنا ناظر مدرسة .. أبدًا ابنى هذا لن يعمل في الأرض .. بل سوف يعيش بعيدًا عنها ألف كيلو متر .. أنا كنت قد حكيت لك عن الخولى .. انه شاب نصف متعلم .. أنا الذى أتيت به . وأنا الذى ساعدته على الزواج .. وأنا الذى طلبت من الباشا أن يساعده .. واخترت له العروس وكان أهلها يرفضونه تمامًا .. وأقنعت أهلها . وتزوج والحمد لله . هل تعرف ماذا حدث .. لقد كتب خطابًا طويلًا إلى الباشا يقول فيه إننى اتفقت مع الفلاحين ألا يدفعوا الإيجار بدعوى أن الباشا لديه فلوس كثيرة .. مع أن كل شىء مكتوب ومحسوب .. الذين دفعوا والذين سوف يدفعون والذين طلبوا التأجيل بعض الوقت .. والباشا أعطانى الخطاب . وواجهت الخولى .. فبكى وراح يبوس يدى ورجلى .. ولأن الباشا يثق فى تمامًا فقد فصله . ووقف ناظر المدرسة وقد وضع يديه فى الصديرى وقال مهددًا . إياك أن تكون قد طلبت من الباشا أن يعفو عنه .. إياك .. فأنت تفعل ذلك عادة .. وتلقى أسوأ النتائج ..

وقال والدى : هذا ما حدث فعلاً ..

فقال الناظر : وهل وافق الباشا ؟

والدى قال : طبعًا لا

جلس الناظر وهو يقول : معه حق . وهذه هى الأصول ! .
والتفت لى الناظر وهو يقول : إياك أن تتعلم من والدك هذه العادات السيئة .. والدك
طيب زيادة عن اللزوم ! .
ولأول مرة أسمع والدى يتكلم عن نفسه .. وأول مرة أسمعه يشكو الناس . وأن نقطة
الضعف فى والدى انه رجل طيب .. وانه متسامح .. وإن الناس أشرار .. فهل هذه هى
الأسباب التى تجعل الأدب والذوق والعطف على الناس هى مصدر الفقر .. هل هذا ما
تقصده والدى وقربياتها عندما يتحدثن عن الفقر .. فقرنا .. فكل من هو فى مثل أخلاق
والدى ، هو الذى يعيش ويموت فقيراً ! .

www.alkottob.com

وقبل أن يصل إلى بيت حضرة مأمور المركز يستقبلنا عدد من رجال الشرطة .. وكلهم يرفعون أيديهم بالتحية .. وهم جميعًا يعلمون العلاقة التي بين والدى وحضرة المأمور .. وكل يؤكد له أن حضرة المأمور موجود وفي انتظاره من ساعة .. وأن والدى قد تأخر .. وأنه لا أحد هناك سوى إخوة الهانم .. وإنهم جميعًا في انتظار والدى .. والمكان نظيف .. والبيت وسط حديقة .. والإضاءة قوية .. وكل من تقع عليه العين فمن رجال الشرطة .. أما حضرة المأمور فقد ارتدى ملابس الرسمية .. متوسط القامة صعيدي أصلع وفي جبهته وشم أزرق وفي ذقنه أيضًا ... وله شارب غليظ مقسوم نصفين تحت الأنف .. وقبل أن يرانا يقول : أهلاً وسهلاً .. يا ليلة بيضاء .. أهلاً والله لك وحشة يا محمد افندى .. والنجل العزيز معك . أهلاً زارنا النبي ..

ويتعانق الرجلان .. ويمد يده ناحيتي ويداعب شعري ويمسك أذني .. ويتقدمنا قائلاً : البيت بيتك والناس أهلك .. تحب تشرب ماذا ؟ وتأكل ماذا ؟ .. تستاهل الدبح ! هاهنا . هاهنا ..

ويمضى قائلاً : نحن قد ذبحنا الأوز والبيط .. ونحن مستعدون نذبح خروفًا هل استدعى لك شيخ البلد .. إنه رجل سيئ . وأنا صدقت كل كلمة أنت قلتها .. إنه رجل كذاب مخادع ورجل بخيل ولص .. ولا أعرف كيف عاش طويلاً في هذا البلد إلا إذا كان الذين معه من اللصوص .. وفعالاً كلهم لصوص . وأنا مسكت هذا الكلب الوسخ وقفلت عليه .. وضربته وأبكيته حتى عرفت منه الحقيقة .. الحقيقة مؤلمة .. يا سيدى أقدم لك

الدكتور فتحي .. وهو الأخ الأصغر لزوجتي .. لا .. لا .. الأخ الأكبر .. زوجتي ما تزال صغيرة أصغر من جميع أولادها الذين تجاوزوا العشرين .. هاها .. هاها .. هذه تعليمات زوجتي بالحرف الواحد .. إنها أصغر منى بأربعين سنة .. وأصغر من أولادها جميعًا بخمس سنين .. هاها .. هاها ..

ثم يتصدر حضرة المأمور الصالون ويلتفت لوالدي ويقول له : ماذا صنعت في الحيوان الوسخ الذي يتزوج كل يوم واحدة ويطلقها . وهل طردته من العزبة ؟ إذا لم تكن قادرًا فأنا مستعد لذلك تمامًا . فهو المسئول عن الجريمة التي وقعت من ثلاثة أيام عندك .. عندك في القرية .. عارف طبعًا ! .

ولكن والدي أكد له انه لم يسمع عن جريمة . ولا أحد قال له ذلك .. واندش المأمور ، وقال لوالدي . خافوا منك .. فأنت قد دافعت عن هذا الرجل وأنت غلطان يا محمد أفندي .. إنه لص حتى لو كان عنده مائة طفل وعشرون زوجة .. وكان مصابًا بألف مرض .. الذي أفهمه إنه لص وأنه قاتل فنحن أولى به .. المحاكم والسجون هذا هو الذي أفهمه .. إن هذا المجرم طلب من السداية وهي تولد البنات مبروكة . مبروكة بنت العمدة التي رفض أن يزوجها له .. طلب منها أن تدخل فأرًا صغيرًا في بطن البنت .. وبعيد عنك هذا الفأر بهدل الدنيا .. وماتت البنت هي والمولود .. مجرم حقيقي ! .

تولاني الرعب وأنا أنظر إلى وجه المأمور الذي لم يتغير وهو يحكى عشرات الجرائم بنفس الحماس . ووالدي وكل الحاضرين لا يعلقون بشيء . فهو الذي يتكلم طول الوقت .. وكل شيء جديد .. ينتقل من جريمة إلى جريمة .. بسرعة غريبة . وكأن هذه المنطقة ليست فيها إلا قتلة وضحايا .. وأن البوليس يقضى الليل والنهار في وضع الناس في السجون أو في المقابر ..

ونظر حضرة المأمور فوجدني خائفًا . فقال : أنا كنت مثل ابنك هذا أسمع حكايات القتل والذبح ويغمى على .. وفي يوم من الأيام لاحظت أمي انني خائف .. وانت تعرف أمي كان أبوها ضابط بوليس وقتال قتله .. فما كان منها إلا أن أتت بفرخة وذبحتها أمامي .. ولما حاولت أن أنهض صفعنتني على خدي وقالت : يا بنوته .. يا مايص .. وشوية شتائم

من الى قلبك يحبها . وأكرهتنى على الجلوس .. ثم أعطتنى السكين وأتت بفرخة وقالت لى
اذبح الفرخة .. إذا لم تذبحها أنا سوف أذبحك .. ثم وضعت يدها على رقبتى ووضعت
السكينة على أنفى .. اذبح يا ولد .. اذبح .. يا راجل .. يا ابن أبوك وأمك .. اذبح ! .
ثم استراح إلى هذه القصة وقال . أمى كانت جبارة .. وكانت بعد أن تذبح الفرخة ..
تكسر رقبتها بيديها ! .

وسأل والدى : إن كان هو الآخر يذبح ..

فأجاب والدى . نعم . طبعًا . ولكن بعيدًا عن الأولاد .

وأشار حضرة المأمور إن كنت قد أحببت هذه الهواية . فأنكر والدى تمامًا قائلاً : إنها
تحتاج إلى أعصاب قوية وإلى عناية فائقة .. وأعصابه ليست قوية ، ويجب ألا ينشغل عن
الدراسة ..

وقال المأمور : إذن لن يكون مأمور مركز .. والله هذا أحسن وأفضل وأكرم ! .

www.alkottob.com

تتغير معالم البيت عندما نعرف ان طبيب الصحة سوف يزورنا .. كل شىء يصبح نظيفاً والفاكهة تجيء . والشاى يكون جاهزاً يجب أن أقدمه فور وصول الطبيب .. وهو لا يجيء فى موعده . وإنما بعد ذلك بنصف ساعة . وله دقائق خفيفة على الباب .. ويدخل مباشرة متجهاً إلى سرير والدتى .. وبعد ذلك يجيء ويجلس معنا .. ويدور بينه وبين والدى نقاش عن العقاقير وعن الأعشاب الطبية وعن الوصفات البلدية . وإنها هى الأفضل . وأن البشرية كانت تعالج نفسها من ألوف السنين بأعشاب ومحاصيل الحقل . وكان المريض هو الطبيب .

ويسألنى الطبيب هل تحب أن تكون طبيباً ؟

فبسرعة أقول : نعم .

ويقول الطبيب : ولكن لماذا ؟ إنها مهنة شاقة جداً .. لماذا ؟

فأرد بسرعة وكأنى فى الفصل لكى أعالج ماما ..

- ابن بار بوالدته ..

ويقول والدى : وبوالده أيضاً .. ويحب كل الناس .. بل والحيوانات .. والكلاب

والقطط والطيور ..

- إذن أنت لا تصلح أن تكون طبيباً .. لأن الطبيب يحتاج إلى قلب جامد .. وإلى أن

يستبعد حكاية الحب والعطف والرحمة .. أنا شخصياً لم أكن أطيق أن أسمع صوت طفل

يبكى .. الآن أجدنى مضطراً أن أقرص الطفل ليبكى لكى أرى لسانه وحلقه وأرى تنفسه

وحركة يديه ورجليه .. دون أن اهتز ..

وعدت أقول : ولكنى أريد أن أكون طبيباً ..

ووجدت والدى يهمس قائلاً للطبيب إنه يشكو من إرهاق عام .. وعطش شديد .. وأنه
وأنه فقال له الطبيب : أخشى أن تكون مصاباً بالسكر .. هل كان أبوك مصاباً بالسكر ..
فقال والدى . لا .. جدى كان مصاباً بالسكر ..

قال الطبيب . معقول .. أولادك لن يصابوا ولكن أحفادك .. هذه هي القاعدة .. منذ
متى وأنت تشكو من الإرهاق والاعياء ..
قال والدى : منذ الأسبوع الماضى .

- ماذا حدث فى الأسبوع ؟ هل انفلعت إنفعالاً شديداً .. هل أنت تسرف فى تعاطى
الحلوى .. واضح انك تأكل كثيراً يا محمد افندى .. طبعاً الأكل السمين والدهن ثم
الانفعال الشديد .. وعدم الراحة .. كل ذلك يجعل الإصابة بالسكر ممكنة جداً .. أنت
محتاج إلى تحليل ..

وكان والدى قد أصيب بالسكر وهو لا يدري .

وسأله والدى : وهل زوجتى ؟

فأجاب : لا .. ولكن ..

ثم تهامس الاثنان .. واتفقا على أن يكملوا الحديث بعيداً عنى ..

وكان والدى يقول لى إن هذا الطبيب أبوه بواب إحدى المدارس .. ولكنه كان جاداً
متفوقاً فى دراسته .. حتى أصبح طبيبياً .. ثم هو شديد الامتنان لوالديه .. وأقسم إنه لن
يتزوج مادام أبوه وأمه على قيد الحياة .. فهو لا يريد أن تجيء زوجة تسيء معاملة
والدته .. وقد حاولت أمه كثيراً أن تزوجه بنت اختها ولكنه رفض .. وهو يعطف على
الفقراء من أقاربه .. ولكنه يقسو على إخوة له غير أشقاء .. وربما كان هذا هو العيب
الوحيد فى سلوك هذا الطبيب الماهر الطبيب ..

وسألت والدى عن معنى القسوة فى المعاملة .. فقال : إنه لا يعطيهم مالاً .. إنه يمنعهم
من دخول بيته ورؤية والدهم .. إنه ينكر أنهم إخوته .. وهو على حق فبعضهم غير مهذب
ويتزوج ويطلق .. ولا يصلى ولا يصوم .. معه حق أحياناً .. ثم إنهم كانوا فى غاية القسوة
على أمه عندما كان صغيراً لا يستطيع أن يدافع عنها ..

ثم يضع يده على كتفى ويقول : انت ما تزال صغيراً .. وسوف تعرف عندما تكبر ..

كانت ليلة ثقيلة لكثرة المصائب التي سمعتها .. وكانت سوداء لكثرة النهايات
 الحزينة .. وحمراء لما سمعت عن جرائم اشعال النيران في المخازن والحقول والبيوت ..
 فجأة ودون أية مقدمات جاء المأمور ومعه وكيل النيابة والعمدة وبعض الخفراء ..
 وأناس على وجوههم كدمات وعلى ملابسهم بقع من الدم .. وبنادق وسكاكين ..
 ووضعت يدي على بطني .. لقد تقلص مصراى الغليظ واخفيت الألم عن والدى .. وضغت
 على شفتي حتى لا تفلت أمة من أعماقى ..
 وشد المأمور يدي مصافحا وهو يقول لا تكن رخوا كالبنات .. أنت رجل .. صافحنى
 بشدة .. بعنف .. رجل لرجل .. هات يدك ..
 وكاد يعجن أصابعى تماما ولكن لم أقل آه .. كما كان يتوقع . فاذا به يقول : الله أنت
 جدع جدا .. آمال شكك لا يدل على ذلك .. أن اتخن رجل اذا امسكت يده فإنه يصرخ
 راکعا ! جدع والله يا ولدى .. إبنك جدع يا محمد اقدرى !
 ولكنى تأملت .. ولم أشأ أن اجعله يشمت ويسعد بصراخى .. والحقيقة أن أصابعى
 اوجعتنى جدا .. حتى بعد أن ترك يدي فأنتنى لم أعد أقوى على تحريكها ..
 ولم يكن ذلك هو الألم الوحيد تلك الليلة ..

فقال المأمور وهو المتحدث معظم الوقت : أولاد الكلب الذين حبسناهم الآن تخصصوا
 فى سرقة الحمير .. ووضع السم للأبقار والجواميس .. وقد اعترفوا بأنهم سرقوا عشرة
 حمير وقتلوا عشرين جاموسة وبقرة .. وعرفنا من الذى حرضهم على ذلك .. شىء غريب

أن نجد واحداً منهم قد حرض زوجته على أن تخطف طفلاً رضيعاً وتسد فمه .. ثم تلقى به عند الساقية .. حيث تعيش بالقرب منها ذئبة قتلتها زوجها وتريد أن تنتقم من أى إنسان .. وقد نهشت الذئبة بطن هذا الطفل ..

ووضعت يدي على الجانب الأيسر من بطني .. وضغطت عليه .. ولكن مصراني الغليظ ينتفض كأنه سلك من النار يتلوى في أحشائي .

ومضى المأمور في سعادة تامة كيف أنه كان يتوقع كل ذلك حتى النار التي اشتعلت في مخازن الغلال .. كان يعرف من الذى سيرتكب هذه الجريمة .. لقد تابعه عندما خرج من بيته وراح يلف على كل البيوت ليتأكد بنفسه أن الناس جميعاً قد ناموا .. وأنه رآه وهو يمسك زجاجة وضع فيها البنزين .. وأخفاها في ملابسه .. وتركه حتى ذهب وألقاها على جوانات القمح .. ثم أشعل فيها النار وعندما حاول الخروج هارباً وجد المأمور وشيخ الخفر في انتظاره ولما حاول الهرب أطلق عليه المأمور النار في إحدى ساقيه .. ولما حاول أن يهرب عاد فأطلق النار على ساقه مرة أخرى .. ولولا أنه كان رحيماً به لأطلق عليه النار في رأسه .. أو في صدره أو بطنه .. أو في ساقه الأخرى .. ولكنه من باب الرحمة وأنه صاحب عيال أصاب ساقاً واحدة ..

ثم نظر إلى كل الحاضرين وقال لهم والله لولا أننى تخيلت أولاده وزوجته الطيبه بنت الرجل الطيب لقطعت ساقيه أو ساقاً وذراعاً .. ولكن ربنا رحيم بعباده ا
والله العظيم ثلاثاً وعلى الطلاق من زينب وشربات - هو الذى يقول ويحلف ويتلفت إلى الجميع يؤكد أن يقصد ما يقول بالحرف الواحد : ما رأيك يا محمد افندى لابد أن أجعل ولداً من أولاده يضربه بالجزمه أمام جميع الاولاد ..

وسألوه : من هذا الذى سوف يضربه واحد من أولاده أمام بقية الاولاد ..

فقال : الشيخ بريك ا

فقالوا في نفس واحد : الشيخ بريك .. هذا الرجل الطيب .. نعوذ بالله ..

ونهض المأمور واقفاً ونادى احد الخفراء تعال يا ولد ..

ودخل خفير بشارب متساقط كأنه وقع . أو يحاول الوقوع فيرقعه .. شاربه ميت

يستعجل الدفن .. فقال الخفير : حدث يا سعادة البية ..

المأمور يشخط . حدث ماذا يا ابن الكلب ؟

الخفير : استغفر الله العظيم ..

فقال المأمور : ابن الكلب عامل لى مؤذب . قل لهم ماذا حدث يا ابن الحلوف !

الخفير (يشير إلى مكان من مؤخرته)

المأمور . من التى قرسها

الخفير الست الهانم حرم طبيب المركز ..

وسأله والدى : ومن هى شربات ؟

المأمور : جرى لك ايه يا محمد افندى .. أنها زوجتى الجديدة ..

وكان والدى يرى أنه شىء عادى جدا أن يضرب المأمور .. وأن يعاقب وأن يعذب ..

وأن يكون قاسيا .. ولكن هذا الزواج الذى تم سرا ولم يعرف به احد . ولم تعترض عليه،

زوجته الاولى .. كان مفاجأة لوالدى ولكل الاصدقاء ..

وقد همس واحد فى أذن والدى : أنه يريد أن يطلق الاثنين لانه عينه على واحدة ثالثة

عندها قرشين كويسين .. هل تعرف من ؟ بنت تاجر الغلال الحاج عبد الفتاح .. ابنته

الوحيدة وكتب لها كل ما يملك .. عندها شىء وشويات .. ربنا يعطيه الصحة والعافية !

طبيعى أن اضع يدي على الجانب الايسر من بطنى وأن أقول . آه ..

والاحداث بعد ذلك معروفة لوالدى .. فأنا أقول آه .. واتوجع وافرغ كل ما فى بطنى ..

واظل طريح الفراش أياما . والسبب هوأنسى لا اطيق أن اسمع واتخيل صور العنف

والرعب إلى جانب صور الخوف والفرع والقلق .

وصرخت بأعلى صوتى : عقربة !!

وأغمى على ..

وعرفت فيما بعد أنها لم تكن عقربة وإنما هى « فرس النبى » تلك الحشرة الخضراء

المسكينة الوديعه .. قد تسلقت العصا التى يمسكها والدى .. ثم قفزت إلى ملابسه وفى

طريقها إلى عنقه ..

www.alkottob.com

أما صاحب محطة البنزين فكان يحرص على أن يكون اللقاء أمام المحطة نفسها .. يضع المقاعد ومن ينفخ في الشيشة ومن يشرب العرقسوس .. كل ذلك في داخل المحطة وتجيء السيارات وتخرج أشكالا وأحجاما وعلى الرغم من أنه يتكلم طول الوقت فعينه على كل شىء حوله ويكتب في ورقة أمامه ..

وكان يرتدى الجلباب وفوقه جاكته وطاقيه بيضاء . وهو رجل متعلم . دخل كلية الحقوق ولم يكمل . فقد مات أبوه . وكان لا بد أن يخلفه أحد . فكان هو الابن الأكبر . وقد أدخل تعديلات كثيرة على المحطة .. وجعلها أكثر نظافة وأكثر ألواناً .. وزاد عدد العاملين .. وكان خفيف الدم .. فلا يكاد يزوره أحد حتى يسرع إلى زجاجة كبيرة ويصب منها على يدي الضيوف .. ويشمونها فلا يجدون عطرا فيتساءلون فيكون الرد سريعا : والله أنا كنت أقدم للناس عطرا . ولكن رائحة البنزين أقوى فكان الناس لا يميزون بين الكولونيا والبنزين .. وأخيرا لم أجد إلا أن أقدم للناس ماء عاديا فإذا قالوا : إنهم لا يشمون عطرا أقول لهم . وماذا تعمل إن البنزين أقوى من أى عطر .. هاها .. هاها ! .

وكانت الصحف والمجلات على مكتبه .. إنه يقرأ ويحكى ما قرأ من أحداث في مصر وفي الدنيا .. وكانوا يعرفون ذلك ، فهم يسألونه : وما أخبار الدنيا .. ماذا فعل هتلر .. وكان يحكى ما الذى فعله هتلر في ألمانيا وما الذى يهدد به . وكان شديد الإعجاب بهتلر .. كلهم كانوا معجبين إلا واحداً : والدى ! وكان ذلك موقفاً شاذاً . وكان لا يصرح بهذا الرأى لأنه يبدو غريباً .. وكانت كراهية والدى لهتلر سببها . انه قاتل وانه مثل أى

جزار .. لولا أن الجزار يذبح البهائم وهو يذبح البشر .. والجزار إذا كان يقتل بسكين صنع في مصر يشبه الذى يذبح بسكين صنع في شفيلد بانجلترا . أو في ألمانيا .. كلاهما جزار .. وكلاهما قاتل .. ولم أكن قادرًا على متابعة ما يقال ولكن صاحب المحطة هو المتحدث الأول والشارح الأول للأحداث .. وكان يقول لوالدى : والله يا عم محمد أنت الذى أفسدت زوجتى .. فأنا الآن لا أعرف كيف أكلمها .. تقول لى أنت لا تفهم .. هناك رجل واحد يفهمنى هو عم محمد .. إنها يا سيدى تقرأ شعر شوقى وحافظ والمتنبى وأبو تمام وأبو العلاء .. كلما كلمتها فى شىء قالت لى شعراً .. فقلت لها سوف أتى لك بعم محمد لكى تأخذى راحتك معه .. مبسوط يا سيدى !

وكان والدى يقول . أحمد ربنا .. إنها راضية بالحياة فى البنزين ليلاً ونهاراً .. وكأنها تعيش فى صفيحة بنزين أو فى برمىل زيت ..

ويرد صاحب المحطة : هذا هو الكلام الذى أفسدها تمامًا .. فأنا لا أعرف ما الذى أقوله لها .. إنها تقول لى دائماً إنى لا أفرق بين عطر سواردى يارى وبين البصل والثوم .. ولذلك فإنى إذا سمعتها تقول شعراً ابتلع لسانى ولا أنطق بكلمة واحدة ! يا عم محمد إعمل معروفًا وتزوجها أنت ! هاها...هاها !

ثم يشير ناحيتى ويقول . والمحروس ما يزال يحفظ الشعر ..
فيقول والدى : الكثير جدًا من الشعر ..

– إذن .. إذهب للست أم شريف .. إذهب إليها يا حبيبى . سوف تحبك جدًا .. وسوف تقدم لك الحلويات .. ولن تتركك .. اذهب اسمعها شعراً .. إذهب . وينادى أحد العمال ويقول له : خد ابن عمك محمد وخليه يقابل الست أم شريف .. تفضل يا حبيبى !

والست أم شريف لطيفة رقيقة .. أخذتنى بالحضن .. وهى تقول كيف حال ماما .. تعال يا حبيبى . تأكل ماذا ؟ عندى فاكهة وعندى حلويات .. وسوف أسمع منك الشعر الجميل الذى قلتة فى المرة الماضية .. وسوف أقول لك أنا أيضًا شعراً .. أنت وأنا والدك الوحيدون فى الدنيا يتذوقون الشعر .. لا زوجى ولا أولادى ولا اخوتى يحبون الشعر ويسمونه كلامًا فارغًا .. ماما تحب الشعر ؟

- قلت : لا ..
- انت فقط ..
- أنا وبابا ..
- وخالتك ..
- لا خالتي تحب الأغاني .. وصوتها جميل جدًا .
- انت تحب خالتك ؟
- جدًا ..
- أكثر من ماما .
- لا ..
- أكثر من بابا ..
- لا ..
- لما تكبر تريد أن تكون ماذا ؟
- طبيبًا ..
- أولادى يريدون أن يكونوا ضباط بوليس ..
- من قال لك تحب أن تكون طبيبًا .
- لا أحد .
- ماما ؟
- لا ..
- بابا ؟
- لا ..
- انت من نفسك . لماذا ؟
- لكى أعالج ماما .
- من ماذا ؟
- لا أعرف ..

- انت تحب الأطباء ..

- لا أحبهم ..

- لماذا؟

- كثيرون ولكن أدويتهم لا تشفى ماما ..

- يعنى انت تريد أن تكون طبيبًا مختلفًا .. أفضل من هؤلاء الأطباء الذين يظهرون

ويختفون ويتقاضون أجرًا ويصفون الدواء ولكن الدواء لا يشفى ماما .. مش كده ؟

- نعم .

- وإذا ربنا شفى ماما بكره أو بعده ، هل تريد أن تكون طبيبًا .

- لا ..

- يعنى انت تريد أن تكون طبيبًا لكى تعالج ماما ..

- نعم ..

- ربنا يحميك يا ابنى .. ويشفى لك ماما .. تحب تاكل ماذا يا حبيبي .

- شكرًا ..

- إذن أنا سوف أعطيك نصيبيك ، مثل أولادى تمامًا ، وانت تأكله فى البيت .. وتسلم

على ماما .. وتقول لها إننى سوف أزورها قريبًا جدًا ..

لابد انها طريقة كلام الخواجة مخالى هي التى تجعل الناس يضحكون .. ثم أنه رجل ظريف وله حكاية مع كل واحد .. والناس يدخلون بشكل ويخرجون من عنده بشكل آخر. وهو يضع المقاعد والترابيزات أمام البار للذين يشربون القهوة أو الشاي أما الذين يشربون الكحول فهم فى الداخل .. وعلى الباب ستار أحمر .. هذا الستار يحجب الذين فى داخله حتى لا يراهم المشاة .

وكل الناس يداعبون الخواجة مخالى . ويقولون له : انت الرجل الذى تجتن الناس .. ويقول : أبدًا .. الناس تجيء مجنونة تخرج مبسوطة .. عاقلة .. كل واحد يجيء عصبياً قرفان زهقان يريد أن يقتل أخاه وزوجته وأولاده .. ولكن بعد ساعة يخرج يحب الناس كلها .. حتى حماته يموت فيها ..

ويقال له : كل الناس سوف يذهبون إلى جهنم عن طريقك ..

ويقول : وكم من الناس سوف يدخلون الجنة عن طريق أكبر حشاش هنا .. رجل يحب الحشيش ويحب الستات .. ثم يخطب الجمعة . هاها . هاها .. كم واحدًا ساكون سببًا فى دخولهم النار وكم واحدًا بسببه هو ؟ ! قل لى من فضلك !

واحد يسأله : وبعد أن تموت يا خواجة من الذى سوف يدير الخمارة ..

- ابنى .. ابنى مدرس فى أثينا الآن .. وبعد ستة شهور سوف يجيء إلى هنا .. الناس

كلهم طيبون .. وابنى طيب جدًا ..

- عندك ولد واحد ..

- لا . ولدان وبنت .. البنت خلاص اتجوزت .. الولد الكبير يريد أن يكون طبيباً مثل
ماما ومثل خاله ..

- ماما بتاعتك كانت دكتورة .

- لا .. ماما بتاعته هو .. مراتي كانت دكتورة . ولكن ماتت .. الله يرحمها .. وبعد ذلك
لم أتزوج ولن أتزوج .. وربما جاء وعاش هنا في مصر .. مصر حلوة .. والناس حلويين
خالص .. أنا أريد أن أستريح .. أنا تعبت خالص في تربية الأولاد .. عاوزين فلوس كثيرة ..
أنا أبعث لأولادى كل ما أملك . أنا لم أشر بنظولناً واحداً من ثلاث سنوات .. إحنا
عايشين علشان نربي أولادنا .. أول ابني ما يجىء هنا .. سوف آخذ اجازة وأعود إلى أثينا
أستريح هناك .. استحم واصطاد سمك .. واستنى الموت . ادى الدنيا ! ولا ما رأيك يا عم
محمد؟

- فعلاً هكذا يا خواجة .. كلنا ضيوف على هذه الدنيا .. ضيوف خفاف ظراف
وضيوف ثقلاء .. أو ضيوف أحمالهم خفيفة ، وضيوف همومهم ثقيلة .. والذى عنده
أولاد هو صاحب الهموم الثقيلة .. والذى لا تزوج ولا عنده أولاد ، هو صاحب الهموم
الخفيفة أو هو الذى بلا هموم ..

- كل الذين يجيئون إلى هنا هم أصحاب الهموم الثقيلة .. يجيئون يشربون
ويصرخون ويبكون .. إنهم يريدون أن ينسوا أن لهم زوجات وأن لهم أولاداً .. وأن هناك
شيئاً اسمه مستقبل الجميع . صحيح إن الخمر لا يفعل شيئاً ولا تحل مشكلة ولكنها
تحمل عن الإنسان بعض الوقت همومه . الخمر مثل الشيال في المحطة .. يحمل عن
الإنسان حقايبه .. ويضعها في القطار .. ولكن الخمر لا هى الشنط ولا هى القطار .. ولكن
الإنسان التعبان من الممكن أن يغضب ويغلط ويفقد أعصابه وعقله .. ولكنه إذا شرب
تحولت أعصابه من أسلاك حديد ساخنة .. إلى خيوط حريرية .. مشدودة أول الأمر ثم
متراخية تماماً .. وبعدها ينام ويصحو للمشاكل ثم يجىء هنا للراحة .. وهكذا..

وكانت تتعالى الأصوات تقول . يا دكتور . يا دكتور .. يا شافى من كل مرض .. إلا
مرض البقشيش . البقشيش ده مرضك انت ..

- أبدأ .. ده مسألة ذوق . انت وذوقك .. أنا لا أطلب ! ولا ما رأيك يا عم محمد ..
وكان والدى يقول : البقشيش مثل الواحد الذى لا يكتفى بمصافحتك وإنما
يحضنك .. أو يحتضنك ثم يقبلك .. فأنت تستطيع ألا تفعل شيئاً من كل ذلك .. ولكنه
الحب الصادق للخوافة هو الذى يجعل الناس تحس إنه خادم الجميع وحبیب الجميع ! .
- خسارة يا عم محمد إنك لا تشرب ! .

... -

- إنت تعرف ماذا حدث أمس .. لقد جاءت مدام شوقى .. إنت تعرفه .. وفضحت
الدنيا هنا .. أوه .. تعرف الحاج عبد الستار بتاع الحمص والسودانى كان يبحث عن
ابنه .. والولد اختفى وسط الزبائن .. أوه .. ضربه علقة جامدة خالص هنا .. وأنا امبارح
قلت لسيو كمال الدين إنه لا داعى لأن يجىء هنا .. لأنه يشرب كثيراً .. وإذا شرب شتم
الزبائن .. وإذا منعتة فإنه يحطم الأكواب .. وإذا منعتة يهرب ولا يدفع .. وهددته بأننى
سوف أقول للمأمور .. مادام الإنسان ضعيفاً وغير قادر على أن يمسك نفسه إذا شرب ،
لا داعى للشرب ..

- ما أخبار هتلر؟

- أوه .. هتلر .. يخرّب بيته .. مش حيسكت خالص .. لازم يبيلع الدنيا كلها .. الألمان
جامد جداً .. وموسليني كمان .. هناك مصيبة كبيرة جداً .. وعلشان كده أنا طلبت من
أولادى أن يحضروا إلى مصر بسرعة .. فيه واحد شاف لى الكف وقال لى . إن أولادى
سوف يهربون إلى مصر .. لأن فيه خطر على بلاد اليونان .. وأنا أصدق الرجل ده .. لأنه
هو اللى قال إن ماما بتاعتى حتموت قريباً .. وماتت بعدها بشهر واحد ..

وكان والدى يجلس بعض الوقت عند الخوافة مخالى .. وكان يشتري منه نوعاً من
الجينة والزيتون .. ويبدو انها كانت مواداً نادرة ولذلك كان يقدم له الجينة والزيتون فى
ورقة جورنال .. وبعيداً عن عيون الناس ..

وكان يهدى والدى بعض الزجاجات الفارغة الكبيرة .. وكذلك بعض الصناديق
الخشبية ..

وكان يودع والدى وكل الذين لا يشربون قائلًا : أنتم بركة . أنتم شرفتم .. إذا دخلت الجنة ولو يوم واحد .. فأنتم السبب .. أوفوار ! .

وفي العودة إلى البيت كان لابد أن أسمع تعليقاً من والدى .. فكان يقول : إن الجماعة اليونانيين من أقوى الأجانب في مصر .. الواحد يجيء بمفرده ويسكن في قرية لا يعرف فيها أحدًا .. ولكن بسرعة يفتح دكانًا صغيرًا .. وبعد ذلك - يصبح كبيرًا ويكون صديقًا لكل الناس . ويكون بيته نظيفًا وملابسه نظيفة . ولا يكذب ولا يغش ولا يسرق . ولا يغضب أى أحد .. وبعد سنة أو سنتين يأتى بأولاده وزوجته .. أو بأقاربه ويفتح دكانًا أكبر .. ومهما كبر الدكان ومهما زاد عدد أولاده فهم جميعًا لا يكذبون ولا يغشون ولا يغضبون أحدًا من الناس .. ثم إن فيهم رحمة .. فهم يساعدون الفقير .. ويحترمون مشاعر الناس وياملونهم في كل المناسبات الدينية والاجتماعية ..

وقال والدى : إنه لم ير هذا الخواجة مكثراً أبداً ولا حزيناً ولا حتى مريضاً .. وإنما هو دائم الابتسام دائم الترحيب والحفاوة بكل الناس .. وهى من صفات التاجر الذى يريد أن ينجح . وهم ناجحون دائماً .

وقال لى : إنه يمضى الشهور فلا يراه . ولكن عندما يراه فكأنه كان معه بالأمس .. يتلقاه بالاحضان ويسأله عن الزوجة والأولاد ولا ينسى الأولاد . ولا ينسى أسماءهم . ولا ينسى آخر كلام كان بيننا .. وهذه مقدره فريدة للأجنى الذى يريد أن يكون مثل أولاد البلد .. كأنه واحد منهم ! .

في الصباح جاء رجل وزوجته ينظفان البيت .. وبسرعة تحرك كل شيء في البيت .. أنا غيرت ملابسى .. ووالدى أيضا .. وراح يتلو القرآن .. ثم يرتله .. ثم يتغنى .. ثم يلقي ابياتا من الشعر .. ويشرح لى معانيها ويطلب منى أن أرددها وراءه .. كل حياة والذى قرآن وشعر وترتيل وغناء ومرح وشرح لكل ذلك .. وحكايات ونوادير .. وهو الذى يضحك .. فلماذا لم أضحك ادرك أننى لم أفهم . شرح لى ذلك .. أو سألتنى عن حالى وان كنت قد نمت جيدا . وإذا كنت قد خفت من النوم وحدى فلماذا لم أقل له ذلك .. وإذا كنت قد نهضت فى فزع كما تقول أمى . فلماذا لم أذهب إليه وأنام معه فى فراشه ..

وسألتنى والذى : ماذا يحدث لك يا ولدى ؟ ..

- لا أعرف .. مرة اجد الذئب يمسك بملابسى .. مرة اسقط فى بئر .. ومرة اطيير إلى ما فوق السحاب ثم اسقط إلى الارض .. ومرة اجدنى فى إناء يغلى .. واحاول الخروج فلا استطيع .. ولكن أول امس وامس لم أخف أثناء النوم ..

وخرجنا . وفى الطريق قال لى والذى ان ماما لا تحب الناس الذين سوف نزورهم . وإذا عرفت أننا زرناهم سوف تغضب ..

وفهمت أن والذى لا يريدنى أن أقول لأمى أننا ذهبنا لزيارتهم .. ثم اعاد والذى مدى كراهية أمى لهؤلاء الناس . وأنه لا داعى لاغضابها وهى مريضة ..

أنهم رجال كلهم .. أصدقاء والذى .. وبعد الاحضان والقبيلات والاشواق قال أحدهم :

هيا بنا ..

وانتقلنا إلى بيت في نهاية الشارع .. المفتاح في جيب واحد منهم .. والبيت كان نظيفا
رطباً .. وليست به رائحة الطعام وإنما رائحة الدجاج .. واصوات الدجاج .. وظهرت
الفرحة على وجوه الجميع .. وانفتح الباب .. ووجدت عددا كبيرا من الاقفاص .. في كل
قفص ديك واحد .. وكل واحد امتدت يده إلى قفص وأخرج الديك .. والذى هو الآخر كان
له قفص .. وأخرج ديكا كبيرا جميلا .. وكانت الفرحة والسعادة على وجه والذى لا
توصف .. فهو امسك الديك في يده اليسرى .. وراح ينظر إليه .. ويقول له منقار كمنقار
الصقر .. وعنق مثل عنق الحصان العربى الأصيل .. وصدرة عريض .. وظهره وساقاه
متينتان .. وأصابعه طويلة .. وذيلة طويلة ..

وراح يعرض ذلك على أصدقائه ..

وكل واحد يباهى بالديك الذى في يده ..

هذا يقول : المنقار الواحد منه يقتل الف ديك ..

وآخر يقول : ضربه واحدة من ساقه اليسرى وبعدها القبر ..

وثالث يقول . انه يأكل لحما نيئا بدمه . وهو لا يأكل إلا لحم الديوك الهزيلة ..

وانشغل عنى والذى تماما .. بل إنه لم يلاحظ أنني معه .. ولم يوجه لى الكلام مرة
واحدة .. وحتى عندما كنت اسأله فأنه لا يرد .. ولكنه يتطلع إلى كل مليمترا فى الديك الذى
فى يده .. يراه من الامام ومن الخلف .. ومن تحت .. ثم يلمس منقاره ويشد جناحيه ..
ويمر بأصابعه على أظافره .. ويرفعه إلى أعلى .. ويضغط على ظهره وعلى بطنه .. ويسحب
ساقيه واحدة واحدة .. ثم يضعه على الارض ويشده من ذيله .. و يعود يرفعه ثم .. يزنه
بكلتا يديه ..

والتفت إلى بقية الرجال أنهم يفعلون نفس الشيء ويطلقون كلمات استخفاف بكل

الديوك الأخرى ..

وبعد ذلك ذهبوا إلى غرفة أخرى .. وجلس كل منهم على مقعد .. واجلس الديك على
ركبته .. وراح كل واحد ينظر إلى ديك الآخر .. وكان والذى هو أول من تكلم واخيرا وبعد
ساعة أو ساعتين وجدته يحدثنى أنا والآخرين : والديك هذا اسمه « برغوت » .. وهو من

أصل هندی . ولا يأكل الا البيض واللحوم .. ويجب أن يكون بعيدا عن الديوك الأخرى ..
وكما ابتعد عنها كان افضل .. لانه إذا ابتعد عنها خاف منها أو كرهها .. فلا يكاد يراها
حتى يهجم عليها ويحاول قتلها .. ولكنه إذا اقام معها واعتاد عليها .. فإن الديوك تصبح
كأنها زملاء .. أو أقارب .. فلا يهجم واحد منها على الآخر .. يجب أن يرى مناظر تريح
أعصابه وأن تغير أنواع الحبوب التى يلتقطها من الارض وأنواع الخضروات .. ويجب أن
يكون مع الدجاج وليس مع الديوك .. عدد قليل من الدجاج وليس عددا كثيرا ..

وحكايات كثيرة يقولها الرجال الآخرون عن ديوكهم .. وكيف دربوها على
القتال .. وكيف جعلوها أكثر شراسة .. وكيف أنهم قاموا بجعل اصبعها الخلفى مدببا ..
وذلك باستخدام مناقيرها واصابعها المدببة فى ضرب الاعناق والبطون ..
لقد كانوا يستعدون لمعركة .. بين الديوك .. وهذه الديوك قد دربوها على القتال
وقدموا لها طعاما خاصا ..

اما اسماء السديوك فهى . فارس .. العفريت .. والزرنوخ .. وعنتر .. والزيزر سالم ..
وقلاون .. والسلطان .. وشطة .. وولعة .. وكايدهم .. وآخر صبرى .. الاكسبريس ..
وطلبت من والدى أن امسك السديك وعلمنى كيف امسكه بيدي اليسرى والا اجعله
قريبا من وجهى حتى لا ينقرنى لاننى غريب عنه .. وأن ارفع يدي إلى أعلى ليكون فى
مستوى النظر ..

قال رجل رأى ارفع السديك . ما شاء الله يا محمدافندى ابن الوز عوام .. الطريقة التى
امسك بها السديك مضبوطة تماما لا هى فوق ولا هى تحت .. تمام كده ..
ثم امسك والدى يدي ووضعها على منقار السديك .. ثم على رقبته وعلى صدره .. وعلى
ظهره .. وجعلنى أشد ريش جناحيه وذيله ..
وانفتحت غرفة أخرى ..

ودخل والدى والسديك فى يده .. ودخل رجل آخر .. وجلس كل منهما فى جانب من
الغرفة والسديك أمامه .. ثم أمسك كل منهما بذيل السديك وجعله يقترب من السديك الآخر ..
ورأيت كل ديك ينكش شعر رقبته .. ويحاول الهجوم على السديك الآخر .. ثم يكرران

الاقتراب دون الاشتباك .. وفي كل مرة يزداد الديك غضبا واندفاعا نحو الديك الآخر .. ثم مرة ثالثة واخيرا يقف كل واحد والديك في يده .. ويستديران .. ويهمس كل واحد منهما بشيء في أذن الديك وبسرعة يجلسان ويترك كل منهما الديك الذى في يده .. وبسرعة يندفع الديكان ويتحفظان ثم يتضاربان .. بالمنقار والساقين .. ويتصايح الرجال أن يقفز فوق الآخر. كمان مرة .. اسم الله عليك ..

أما احد الديكين فقد أحنى رأسه وراح يلون بالديك الآخر .. ولم أعرف ان كان المنتصر هو (برغوت) أو هو قلاوون... فأنا لم أعرف الفرق بينهما .. ثم أن السديكين يتبادلان المواقع .. هذا فوق .. وهذا تحت .. ثم هذا يجرى ويتراجع .. وهذا يتقدم ثم يتراجع ولما نظرت إلى وجه والدى وجدت سعادته عظيمة .. لقد كان برغوت هو الذى انتصر .. ووجدت برغوت في يدى والدى قريبا إلى صدره يلهث .. وراح والدى يقلب فيه ويتلمس كل مكان ليعرف أن كان قد أصيب .. أو جرح . ثم يفتش في صدره وفي عنقه .. وفي رأسه وفي جناحيه .. ثم في ظهره .. ثم أجلسه على ركبته وراح يداعبه ويقبله ويخرج الحبوب من جيبه ويقدمها للديك .. ثم يخرج به أمام البيت .. ويتركه على الأرض .. ثم يعود إليه .. ويقدم له الماء ويضع اصبعه في الماء قبل أن يقدمه له .. فالماء يجب أن يكون فاترا لا ساخنا ولا باردا ..

وتبدأ بعد ذلك مباراة أخرى بين ديكين .. ولكن والدى قد وضع « برغوت » في قفصه حتى لا يكون عصيبا إذا شهد عراكا آخر بين ديكين ..

وكانت هذه المعركة سريعة جدا .. فأحد الديكين قد أصاب الآخر في دماغه .. لدرجة أن منقاره قد اخرجوه من رأس الديك الآخر بصعوبة .. وتعالى الاصوات والهتافات .. وبدأت معركة ثالثة .. ولكن لم يكد أحد الديكين يرى الآخر حتى هرب .. وكلما اعاده صاحبه إلى أرض المعركة ، ارتد هاربا واختفى في ملابس صاحبه .. وقالوا في تفسير ذلك أن الديك لم ينس !

فقد جرح في معركة سابقة . وكان لابد أن يمضى وقت طويل حتى تلتئم جراحة الجسمية وينسى ما حدث له تماما ..

وقال صاحب الديك : أبدا أنه لم يكن جريحا .. وإنما أنا حبسته مع عدد من الدجاج ..

حريم من الدجاج كسروا ظهره !

ويضحك الجميع .. لتبدأ جولته رابعة ..

وعدنا إلى البيت .. وما زال والدى يقول أن ماما لا تحب هؤلاء الناس ولا تحب مصارعة الديوك .. وترى أنها اضاعة للفلوس والوقت .. وإنها لا تليق بأناس محترمين مع إنها كانت رياضة الملوك من أيام الفراعنة والإغريق وأن رؤساء أمريكا كانوا يتناقسون في اختيار أحسن الديوك .. وكانوا يقيمون المباريات في قلب القصور فلا يراها إلا الاغنياء ..

وسألنى : أعجبتك ؟

قلت : جداً

قال : لا تقل لماما إنها أعجبتك وأنا عندما اجيء في المرة القادمة سوف نذهب وتتفرج

عليها وحدنا !

وحاول أن يداعبنى فقال : مرة أتيت بديك من هؤلاء في البيت .. وبعد أسبوع وجدت

ماما قد ذبحته لانه كان يهجم على الديوك الأخرى ويفتك بها ..

وقال لى حكمة .لكى ينجح هذا الديك فى قتل ديك آخر يجب أن يكون غريباً عنه وغريباً عن هذه المنطقة . فلا يرى الواحد الآخر الا يوم المباراة .. وفى ذلك اليوم يقاتله لانه لا يعرفه .. ولذلك نحن نجعل الديوك تقيم معا بعض الوقت حتى تكون أقل شراسة.. وإذا سمع الديك وهو فى المعركة أو قبلها صوت الدجاج فإنه يشعر بأنه يدافع عن زوجاته وعن عائلته ولذلك فإنه يهجم على الخصم ويكون قاتلاً .. ولكن المشكلة أننا إذا أتينا بالدجاج فإن وجود الدجاج يشعل النار فى أعصاب الديكين معا .. ولذلك نكتفى بأن ينفرد الديك بالديك الآخر معتمدا على غريزته وعلى كراهيته ورغبته فى القتل والنصر .. والديك أكثر حماساً إذا كان يقاتل على مرأى من الدجاج .. مما يجعل هذه المعركة اطول قليلاً .. وبدلاً من أن تبدأ المعركة وتنتهى فى دقيقتين .. فأنها تنتهى فى عشر دقائق وأحياناً ربع الساعة .. وفى الحروب الإسلامية كانوا يجعلون النساء تمشى وراء الجنود حتى تجعلهم يتحمسون أكثر .. ويخجلون أن ينسحبوا على مرأى من النساء ! حتى فى الطيور يتولد الخوف من الشعور بالغربة .. وتكون الكراهية نوعاً من الدفاع السلبي .. والكراهية هى أم العنف والعنف هو أبو الحروب ..

www.alkottob.com

أما هذا الرجل فأنا الذى اخترته وهو أحب الناس .. وأنا أجد نفسى كل يوم ذاهباً إليه .. وبيته فى آخر المدينة .. والبيت له شكل متميز .. فهو أبيض جداً .. وله سور من الأشجار الشائكة .. وفى داخل السور توجد شجرة توت .. وحول شجرة التوت تناثرت المقاعد الثابتة على الأرض .. إنها مصنوعة من جذوع النخل .. ثم هناك شجرة لبلاّب . وتوجد شجرات الورد بشكل منظم .. وعنده كلب أبيض . وعنده عدد من القطط .. وكلها تقف معاً ..

إنه عم (أبو آدم) ابنه اسمه آدم وهو فى مثل سنّى .. أما أبو آدم نفسه فلا أعرف إسمه الحقيقى ولكن الناس ينادونه هكذا .. هو أبيض متوسط القامة أبيض الشعر خفيف شعر الرأس .. يرتدى البنطلون ذا الحمالات والقميص وقد انحنى ظهره قليلاً .. فهو حداد القرية . وهو دائماً نظيف الملابس والدكان نظيف جداً .. وأمام البيت نظيف والحديقة وكل شىء فى بيته نظيف ومنظم .. وهو يشعل نار الفحم . ويضع فى الفحم قطع الحديد .. وينفخ عليها حتى تلتهب وحتى تصبح حمراء بيضاء .. ثم يسحبها ويدقها وهى لينة حتى تأخذ الشكل الذى يريد . ويدق الحديد ساخناً ويتناثر الشرر .. الشظايا .. ولكن هذه الشظايا لا تعلق فى ملابسه ولا فى وجهه .. وهو يغطى وجهه بغطاء من الزجاج .. ولا يزال يدق الحديد والحديد يطاوعه .. مرة يجعله فأساً ومرة يجعله منجلاً .. ومرة يجعله سكيناً .. وبعد أن يفرغ منه يلقى به فى الماء ويكون له دخان .. وبعد الماء يصبح له الشكل الذى يريد وبسهولة عجيبة ..

ولا أحد يعمل مع أبو آدم في الدكان .. ولكنه دائم العمل . وقد كتب لافتة على الباب :
من التاسعة صباحًا حتى الخامسة مساء ما عدا يومى الاثنين والثلاثاء . إنهما اجاوة .
ولم أره يعمل شيئاً بعد الخامسة مساء . أبداً . ولا عمل قبل التاسعة صباحاً . ولا فتح
دكانه يومى الاجازة . أبداً . وقد حاول كثيرون أن يرغموه على تغيير هذا النظام . ولكنه
رفض .

ويقول الخواجات علمونا النظام . إنتهى . وحياتى مستريحة تماماً فى هذا النظام ..
ثم اننى وحدى ولا يساعدنى أحد . فلماذا أرهق نفسى ؟

وأبو آدم إذا اشتغل انصرف تماماً إلى عمله . ومن النادر أن يرد على أحد إذا كلمه .
وإذا فرغ من عمله فهو رجل لطيف ظريف .. الوجه هادئ وفى غاية الصفاء .. والابتسامة
بيضاء كبيرة .. وهو لا يدخن . ولا يشرب الخمر . ويقول : لم أتعلم من الخواجات
الشرب . وفى إحدى المرات حاولت فمنعونى من ذلك . وقالوا : إن الإنسان يجب أن يحترم
عادات بلاده وتقاليده ودينه ..

أما ابنه آدم فهو لا يعمل فى الدكان إنه تلميذ فقط . وهو الذى يروى الشجرة وهو
الذى يطعم الطيور . وهو الذى يشتري احتياجات البيت من السوق . وهو دائماً نظيف
الملابس . وهو شديد الاحترام لوالده . وإذا جاء أبوه فإنه يقف . وإذا خرج صافحه وقبل
يده . وإذا جاء صافحه وقبل يده .

وعندما ذهبت وحدى لأول مرة ظللت واقفاً بالباب حتى فرغ أبو آدم من العمل . فلما
رأنى قال : أهلاً يا ابنى .. تعال .. انت واقف منذ متى ..
قلت : من نصف ساعة .

قال : ولماذا لا تذهب إلى أخيك آدم فى البيت .. إنه وحده .. إذهب إليه وسوف أجيء
ونشرب الشاي معاً . ادخل يا ابنى .. هذا بيتك ..

ولما رأنى آدم كان مثل والده ضاحكاً محبباً للناس .. يرحب بهم ويدعوهم إلى الدخول .
وجاءت والدته . إنها صغيرة السن بيضاء ذهبية الشعر زرقاء العينين . ووجدت معها
كتاباً تقرؤه . نظرت إليه .

قالت لى روايات الجيب .. تقرأ؟

قلت . لا أعرف هذا الكتاب .

قالت . ليست كتابًا واحدًا وإنما هى سلسلة طويلة مترجمة .. كلها قصص بوليسية ..

إنها أول مرة أسمع هذا التعبير : قصة بوليسية ..

ويبدو أن الدهشة وعدم الفهم قد ظهرا على وجهى .. فقالت بذكاء ورقة : إنها حكاية

واحد قتل واحدًا .. وجاء البوليس يبحث عن القاتل .. طبعًا يجده .. لكن إلى أن يجده فإنه

يدوخ القارئ .. ولكنها مسلية جدًا وممتعة جدًا .. سوف أعطيك واحدة .. فإن أعجبك

أعطيتك غيرها .. ماذا تقرأ؟

فذكرت لها عددًا من الكتب لم تسمع بها . ولا تعرف أى شىء عنها .. فقلت لها : إنها

كتب والدى وكلها شعر ومدائح فى الرسول عليه الصلاة والسلام ..

ووضح على وجهها المستدير الأبيض الجميل إنها لم تفهم .. ولا تريد ..

وجاء عم أبو آدم وقد غير ملابسه وارتدى ملابس أكثر بيضاء ويبدو أنه قد اغتسل

تمامًا .. ونظر إلى زوجته وقال لها : الشاى بالنعناع يا عديلة ..

– حاضر يا أبو آدم ..

والتفت أبو آدم وقال لى : أريد أن تعرف من نحن .. أنا يا سيدى عمك أبو آدم .. وآدم

هذا هو إبني الوحيد .. وأنا رجل كبير كما ترى .. وكنت أتمنى أن يرزقنى الله بغلام ..

والحمد لله .. أما زوجتى هذه فهى أحسن زوجة وأحسن أم فى الدنيا وهى من فضل الله ..

مات أبوها وكان صديقى .. وماتت أمها يرحمها الله .. فأخذتها إلى بيتى .. وأنا رجل

وحيد .. وخشيت من كلام الناس فقلت يا بنت الناس أنا تمنيت أن يكون لى بنت .. وأن

يكون لى ولد وأن تكون لى زوجة . فما رأيك أن تكونى الزوجة والابن والبنت .. وكان من

رأيها أنها أيضًا تريد الأب والأم .. فكانت هذه الأسرة التى تراها .. وأنا يا ولدى فى مكانة

والدك وآدم أخوك وعديلة أختك الكبرى وأمك .. وهى تحب القراءة وسوف تربطك بها

صلة قوية .. ومنذ هذه اللحظة هذا بيتك يا ولدى .. وأكون سعيدًا لوجئت كل يوم

ودخلت وأكلت وشربت دون إذن من أحد .. إن آدم يحبك ويقول إنك أعز صديق له ..

فالحمد لله الذى جمع بينكما على الحب ..

وجاءت عديلة فقال لها يا ست أم آدم . أنا قلت له من نحن ..

- يوه يا أبو آدم انت لازم تحكى الحكاية لكل الناس ..

- لازم .. إنه ابنى الثانى .. وابنك أيضًا يا أم آدم .. وأبوه رجل طيب جدًا .. ورجل

صالح وكل كلامه خير فى خير إنه طراز من الناس لم يعد له وجود ..

- والله إنت يا أبو آدم الذى ليس لك مثيل فى الدنيا .. ربنا يخليك لنا ويطول لنا فى

عمرى حتى تحمل أولاد آدم على كتفك إلى المدرسة . وأولاد أولاد آدم .. قادر يارب

ياكريم ..

وتظهر السعادة على وجه أبو آدم .. كأن الله قد استجاب لكل هذا الدعاء .

ويجىء الشاى بالنعناع .. والأكواب كبيرة . والسكر يضعونه كثيرًا . وتحت شجرة

التوت يحدثنا أبو آدم . كيف جاء إلى هذا البلد . وأين كان قبل ذلك .. وكيف كانت رحلته

الأولى إلى إيطاليا .. وكيف إنه عمل حدادًا على إحدى السفن . وكيف إنه تعلم اللغة

الإيطالية بسرعة . ولما عرض عليه حداد السفينة أن يزوجه ابنته وأن يعيش معه فى مدينة

نارانتو ، رفض أبو آدم . وقال إنه ليس فى نيته أن يعيش خارج مصر .. وكاد يتزوج

إيطالية . أحب واحدة لأنها جميلة ولأنها طيبة .. وفى يوم وجدها مع واحد آخر فى إحدى

الحدائق ولم تعتذر . وإنما قالت : وجدتك مشغولاً فناديت أحد الجيران وطلبت منه أن

يرافقنى للنزهة !

وكان ذلك كافيًا لأن يعدل عن الزواج من إيطالية أو من أجنبية ..

وفى طريق عودته من إيطاليا توقف فى بلاد اليونان . وعمل فى أحد البارات . ولكنه لم

يسترح . إنه من الصعب أن يعمل الإنسان فى البار ثم لا يشرب أو لا يجارى ما يحدث فى

البارات . ثم عمل فى إحدى الحدائق يجمع العنب ثم يشترك فى عصره .. وكان لابد أن

يذوق العنب المخمر من حين إلى حين .. فرفض لأنه لا يريد أن يغضب الله ..

وعرضت عليه صاحبة إحدى مزارع العنب أن يتزوجها على سنة الله ورسوله .

فتزوجها . وكانت تكبره بعشرين عاما . ولم تنجب وماتت . وجاء إخوتها ودفعوا له مبلغًا

من المال مقابل نصيبه من التركة . فوافق .. وعاد إلى مصر .. وكان قد قرر ألا يتزوج .
ولكنه اشتاق إلى البيت والأسرة والشريكة والولد .. وأن يعمل هادئاً ويعيش في هدوء .
وكان له ذلك .

وكانت لعم أبو آدم كلمات حكيمة . فهو رجل قد جرب . ولكنه لا يدعى العلم .. فمثلاً
يقول لك : ما الذى تريده من الدنيا . هذا هو السؤال الهام جداً . وحياتك كلها تتوقف على
هذا السؤال والإجابة عنه .. أنا شخصياً أريد بيتاً صغيراً . وأن أعيش على قدر كسبى .
ولا أرهق نفسى بالعمل ولا أرهق نفسى بالمطالب . فعندى الضرورى . وهذا يكفى .. ففى
استطاعتى أن أعمل عشرين ساعة فى اليوم . ممكن . ولكن كم عاما أستطيع أن أتحمل
ذلك ؟ سؤال آخر . كم صديقاً يكفى فى هذه الدنيا ؟ الجواب : واحد .. اثنان ، كفى . وأنت
لا تجد فى الدنيا من المخلصين إلا واحداً أو اثنين .. ولكن أن يكون لك ألف صديق ..
مستحيل .. تماماً كما أن الواحد يرى الدنيا بعينين ويقطعها ذهاباً وإياباً بساقين ويعمل
بذراعين .. هذا يكفى جداً .. وحكمة من الله إنه لم يجعل للإنسان عدداً من العيون مثل
العنكبوت ولا مثل أرجل العقرب .. وإذا لم يكن لك إلا صديق واحد لا تحزن . فمن النادر
أن تجد الصديق الوفى المخلص .. انت وأدم صغيران ولكن عندما تكبران ستكتشفان حكمة
الناس العواجيز مثلنا ..

وسمعنا من ينادى : يا أبو آدم .. يا عم أبو آدم .

وامتقع وجه أبو آدم وقال لابنه . اذهب يا آدم .. واسأل ماذا يريد ؟
وغاب دقائق وعاد ليقول لوالده . أنا قلت له إن بابا لا يعمل ليلاً أبداً .. ولذلك رفض
أن يعطينى العجلة المكسورة التى كان يريد إصلاحها وقلت له يأتى بها غداً فى التاسعة
صباحاً .

- تمام كده . يا أم آدم هات لنا الأكل .. ولا انتِ بخيلة على آخر الزمن ..

- حاضر يا أبو آدم . حالاً ..

- وكان أبو آدم يحب أن يتكلم وأن يحكى تاريخ حياته . وأهم من تاريخ حياته أن
يستخرج منها الموعظة والعبرة . بارعاً فى ذلك . فهو عندما يحكى لك الحكاية لا يبدو منه

انه أراد أن ينصحك وإنما هو أراد أن يسليك كضيف .. وبعد ذلك ينصحك كابنه .. أو على مسمع من ابنه .. ويبدو أن لديه القدرة على أن يحكى الحكاية الواحدة بأشكال مختلفة. ففي كل مرة يحكى حكاية نسمع زوجته تقول : الله يا أبو آدم انت قلت لنا الحكاية دى قبل كده ولكن بشكل آخر ..

فهو فنان يبتدع كل مرة حكاية لها بداية ونهاية .. حتى لا يمل هو وحتى لا يمل من يستمع إليه ..

واندهشت زوجته كيف انه ما يزال يحكى قصصًا جديدة .. رغم انه لم يتوقف عن الحكايات منذ زواجهما .. فلا تزال عنده حكايات .. أو انه قادر على الابداع ويكون ابداعه حسب الظروف ..

ثم التفت إلينا جميعًا وكأنه أستاذ ألقى محاضرة ، ثم يريد أن يقول لنا خلاصتها أو عناصرها الرئيسية . أو المعنى من كل الذى قال : شوف يا ابنى إذا أحد سألك ماذا تريد أن تكون عندما تكبر .. لا تقل شيئًا وإنما قل لم أقرر بعد فأنا ما أزال صغيرًا .. وفعلاً أنت صغير يا ولدى .. انت وأدم .. لم تتعلما بعد .. لم تجربا من الدنيا شيئًا .. ولا قابلت اناسًا كثيرين ولا سمعت ولا مررت بظروف تجعلك تقرر أو تغير طريقك .. انتظر .. ان ابنى آدم فى يوم من الأيام قال لى . أريد أن أكون حدادًا مثلك .. فغضبت منه .. وقالت أمه: مستحيل .. ومعها حق .. ولكن أنا لم أقل له شيئًا من ذلك .. وإنما جعلته يعمل معى يومًا ويومين وثلاثة حتى أرهقه العمل تمامًا .. ثم قلت له هل رأيت هذه الصناعة .. وإنما أردت أن تعرف بنفسك . لا تكن حدادًا يا ولدى كن شيئًا أفضل . وهذا الشيء انت الذى تختاره . وسوف تعيش منه وتعيش عليه طول عمرك .. ولكن ليس معنى ألا يكون آدم حدادًا ألا يحترم عمل والده .. بل كل عمل محترم . وأبوه عمل حدادًا وكان محترمًا ، لكنى أساعد آدم على أن يكون كما يريد .. وأنا الذى أجعل عملى محترمًا وأنا الذى أجعله محترمًا . فأنا أعمل ساعات محددة . أنا حر . وأخذ اجازة أنا حر . ولا أعمل بعد الساعة الخامسة . أنا حر . وقد عرف الناس ذلك . فاحترمونى ..

وهنا — ومضى يقول فى لطف وأبوه — أنا أدعوك إلى العشاء .. أقدم كل ما عندى ..

ولكنى لا أفرض عليك طعامًا ولا كمية الطعام . انت حر في بيتك . هكذا تعلمت من الخواجات .. تفضل يا ولدى ..

وكل واحد مد يده إلى الطعام دون أن ينظر واحد ناحيتى .. ومضوا في الأكل كأننى غير موجود .. ومددت يدى .. وأكلت .. واسترحت وأحببت الرجل . وأحببت ابنه وأحببت أمه .. وأحببت صناعة الحديد يوضع في النار فيكون لينًا .. ملتهبًا لينًا .. ولأنه ملتهب فهو مطيع للطرقات فوق دماغه .. وهى ضربات موجهة مدروسة نحو شكل من الأشكال ..

حتى الحديد إذا تغيرت ظروفه كان كالعجين ..

فلا حديد لا يلين ..

ولا نار لا تنطفى ..

وليس من الضروري أن تجد كل الحكمة في الكتب .. إنها كثيرة جدًا عند اناس ليست صناعتهم الحكمة . ولكنهم أصحاب تجارب وشجاعة وتواضع ..

لم أنس أبو آدم طول عمرى لا شكلاً ولا صوتاً ولا حكمة ولا بساطة ولا كرمًا ولا ابوة ولا استاذية .. ولا شىء من كل ذلك يبدو عليه وهو يدق الحديد ودموع الحديد تتطاير شرراً يتقيه بمنظار من الزجاج ..

ولو دخل أى إنسان دكان أبو آدم وسرقه ما شعر به . فهو في ركن من الدكان وسط الشرار والنار والدخان . وهو يعمل واقفًا طول اليوم .. ولذلك إذا جلس فهو لا يقوم .. وكان يقول لنا . الذى يعمل بعضلاته يستريح إذا جلس واسترخى دون أن يحرك يديه أو رجليه ولذلك تجد البكوات والباشوات إذا جاءوا إلى الريف راحوا يركبون الحمير ويصيدون الأسماك ويطاردون العصافير ويمسكون الفأس .. فهم يعملون بالضبط ما لا يعملون في المدينة .. هكذا علمونا الخواجات .. وتعلمت منهم ! .

وقال لنا أبو آدم إنه في إحدى المرات زاره المغازى باشا ودخل الدكان وراح يقلب مقاعده ويمسك منفاخ النار ويثير الفحم .. ثم يمسك الحديد ويضعه في النار .. ساعة وساعة .. وهو سعيد جدًا بالعمل . ولما دعاه إلى قصره العظيم جلس أبو آدم على أحد

المقاعد واسترخى تمامًا ومدد رجله إلى الأمام ووضع ذراعه إلى جواره ..

وسأله الباشا . هل رأيت هذه الكتب ..

قال : لا والله يا باشا .. فقال الباشا : يقولون إنك تقرأ بلغات أجنبية .. من بينها

الإيطالية واليونانية ..

قال : نعم ..

ورد عليه الباشا ومع ذلك لا تمد يدك إليها ..

فقال أبو آدم . لأننى أمد يدي طول اليوم .. فراحة يدي ألا أمدها وإنما ألقى بهما إلى

جوارى هكذا كأنها لم تعد جزءًا من جسمي .. هكذا علمنا الخواجات ..

كان في بيتنا عدد كبير من الكتب .. وكانت دائماً في أماكن مختلفة .. في غرفة النوم على المقاعد .. في الأركان .. تحت السرير .. في صناديق وفي مقاطف فوق السطوح .. بعض هذه الكتب بعثت بها عمتي إلينا .. فلم تجد لها مكاناً في بيتها .. وكان من رأيها انها قد تنفعني إذا كبرت فلم يعد أحد من أولادها يقرأها .. لقد كبروا وعندما وجدتها رحت أقلب فيها فلم أكن قد تعلمت القراءة .. ولما تعلمت وانتقلت هذه الكتب معي من مكان إلى مكان عرفت انها في موضوعات زراعية .. إصلاح الأرض وحرثها وبذرها والعناية بالمحاصيل وتربية الدواجن والنحل . فقد كان ابن عمتي طالباً في كلية الزراعة ثم أستاذاً بها . ثم وجدت كتباً لأحد أعمامى وكان أزهرياً .. ولما حاولت أن أقرأها لم أستطع .. ولم أفهم .. فهي عن موضوعات غريبة وبعبارة أغرب .. ووجدت كتباً قديمة منزوعة الأوراق والأغلفة أيضاً . وعليها آثار التراب والحشرات والقهوة وقد مسح التراب والحشرات الكثير من حروفها وصفحاتها . وكتب فيها شعر كثير ولكن لا أعرف أسماء هذه الكتب .. وحاولت أن أحفظ هذا الشعر ولم أستطع . فهو شعر صعب ..

ولذلك كانت « روايات الجيب » كشفاً وحدثاً مضيئاً .. فهي حكايات غريبة . وحكايات مثيرة . ومن الصعب أن أترك الكتاب دون أن أكمله في يوم وأحياناً في جلسة واحدة .. وأنا أقرأ هذه الروايات واقفاً وجالساً ونائماً وأنا أكل وأنا أشرب وأنا أمشي في الشارع . لم أر مثل هذا النوع من الكتب . ورقها أبيض . ولها أغلفة ملونة .. أحياناً عليها بنات عاريات .. وفيها لوحات ورسومات .. إنها شيء مختلف . ولكن كتب الشعر أنفع

وأجمل . لولا أن هذا الشعر الذى أجده فى هذه الكتب أو بقايا الكتب صعب جدًا . فلا أنا قادر على قراءة هذه الكتب ، ولا أنا قادر على تجاهلها .. فهى دائماً فى يدي .. وأنا دائماً أحاول وأفشل .. ولم أتوقف عن تقليبها من أولها لآخرها أو من آخرها لأولها.. وشكوت لوالدى .. فوافقنى على صعوبتها .. ووعدنى بكتب أفضل . أو أن أذهب أنا إلى المكتبات وأرى ما يناسبنى . أو أذهب إلى المكتبة العامة وأسأل وأختار .. ولكنه وعدنى بأنه سيأتى لى بكتب يسهل فهمها وحفظها .. كتب فاتحة لشهية القراءة والتذوق والتعود على ذلك - وهذه عبارة والدى .

أما الكتاب الذى لا أعرف اسمه فقد وجدت فى أول صفحة منه هذين البيتين .. وهذان البيتان قد كهربا كل أعصابى وخيالى وحفظتهما بسرعة .. وكنت أفعل المناسبات لكى أرددهما على مسامع زملائى .. ولكن أحداً منهم لم يكن يعى ما أقول أو يتحمس له .. ولم أكتف بذلك وإنما قلتها لوالدى .. وظل يضحك . وأنا سعيد باننى أعرف ما لا يعرف .. وإننى عندما عرفت وجدت شيئاً يبعث على الضحك .. أما البيتان فهما :

إن النساء شياطين خلقن لنا

نعوذ بالله من شر الشياطين

فهن أصل البليات التى ظهرت

بين البرية فى الدنيا وفى الدين

وعرفت من والدى أن هذا الكتاب هو جزء من « ألف ليلة وليلة » وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع عن مثل هذا الكتاب . وحدثنى والدى كثيراً عنه .. وتمنيت لو قرأته .. ولم تكن لى أية تجارب مع المرأة لا فى الدنيا ولا فى الدين . ولكن أسعدنى أن أجد مثل هذا الهجوم على المرأة .. فهل كان ذلك دليلاً على اننى ضقت بكل النساء اللاتى عرفتهن : جاراتنا وقريباتنا وصديقات أمى . فما الذى ضايقنى منهن ؟ هل هذا النوع من الناس ؟ من المشاكل ؟ من الحكايات التى تتكرر كل يوم .. بصورة مملة .. هل ما تقوله النساء عن الرجال وعن الأزواج وعن الأولاد .. هل هى الكلمات التى أسمعها من جدتى ولا يبدو أنها تحترم والدى ؟ هل سكوت أمى على مثل هذه الكلمات يجعلنى أغضب من أمى أيضاً ..

هل هى تلك الفتاة التى وجدت نفسى فى حضنها .. ولم أعد أراها ؟ هل هن التلميذات اللاتى ينظرن لى وكأنهن يعرفن ما كان بينى وبين هذه الفتاة على السلم .. أو تحت الكوبرى .. هل لأنها اختفت .. هل لأننى وجدت فى نفسى ميلاً شديداً لها ولكل البنات .. ولكنى لا أجد الشجاعة مثل كل زملائى .. فأنا لا أعرف كيف أتحدث إلى فتاة .. وإذا تحدثت فما الذى أقول . وإذا قلت فكيف يبقى الحديث ساعة أو كل اليوم .. إن زملائى يتكلمون طول الوقت ولا يتوقفون عن الكلام إلى أية فتاة .. ماذا يقولون كل يوم لا أعرف .

هل لأننى أشتاق إلى أختى ولا أستطيع أن أراها . هل لأننى أحب خالتي ولا أجدها .. هل لأننى أحب أمى وهى مريضة دائماً .. مرهقة .. عصبية .. هل لأننى أحب أبى وأجد أمى تشكو من انه ليس هناك . هل لأننى أحب أن أكون فى حضرة نساء أخريات ولكن أمى تمنعنى وتحذرنى .. فنحن إذا ذهبنا إلى ست أم عزيز .. حذرتنى من الجلوس طويلاً مع بناتها .. وهن جميلات .. ثم إنها عاتبت والذى كيف إنه يصر على ذهابى معه للجلوس وسط الرجال ، ثم يطلبون منى أن أذهب وأجلس مع السيدات والبنات . ما هذا الخوف من البنات ومن الزوجات ؟ ما الذى يمكن أن تفعله واحدة منهن .. إننى أنظر إلى أصابع البنات فلا أجد مخالب ولا أسنانهن أنياباً .. وإلى عيونهن لا تخرج منها النار والشرار .. يتكلمن ويضحكن .. ثم إنهن لطيفات ظريفيات ناعمات جميلات .. فمن أين يجيء الخطر؟ وما هو هذا الخطر؟

إذن لا بد إنهن مخيفات . ولكن ما الذى يمكن أن يفعله لمن يجلس معهن أو يستمع إليهن .. إنهن شياطين .. أمى تقول .. والشعراء يقولون .. وأبى يضحك على ذلك .. وأنا لا أفهم ..

ووجد والذى صعوبة شديدة فى تفسير أبيات وجدتها فى (ألف ليلة وليلة) وكلها تمتدح المرأة .. ولكن والذى يعرف مشكلتى .. فهناك أبيات تلعن المرأة .. وأبيات تمتدحها فأيهما أصح ولماذا ؟

مثلاً :

ثلاثة منعتها من زيارتنا
خوف الرقيب وخوف الحاسد الحنق
ضوء الجبين ووسواس الحلّ وما
حوت معاطفها من عنبر عبق
هب الجبين بفضل الكم تستره
والحلي تنزعه ما حيلة العرق!^٩

مثلاً:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم .
ما لذة العيش إلا للمجانين
نعم جننت فهاتوا من جننت به
إن كان يشفى جنوني لا تلوموني!

مثلاً:

ورد الكتاب فلا عرفت أنا ملا
كتبت به حتى تضمخ طيبيا
فكان موسى قد أُعيد لأمه
أو ثوب يوسف قد أتى يعقوبا

مثلاً .

تعشقت ظبيًا ناعس الطرف أحورا
تغار غصون البان منه إذا مشى
يمانعنى والطير يحظى بوصله
وذلك فضل الله يؤتيه من يشا

مثلاً:

بدت قمرا ومالت غصن بان
وفاحت عنبرًا ورننت غزالاً

كأن الحزن مشغوف بقلبي
فساعة هجرها يجد الوصالا

مثلاً .

نشرت ثلاث ذوايب من شعرها
في ليلة فأرت ليالى أربعاً
واستقبلت قمر السماء بوجهها
فأرتنى القمرين في وقت معا

وآخر صفحة في الجزء المتمزق من (ألف ليلة وليلة) جاء هذان البيتان .
كل ابن انثى وان طالت سلامته
يوماً على آلة حدباء محمول
وكيف يلهو بعيش أو يلذبه
من التراب على خديه مجعول

ولا أذكر انى رأيت أبى مهموماً مقهوراً مثل هذا ليوم فأننا حفظت شعراً لم أسمعه
منه وأنا أريد شرحاً لهذه المعانى التى فوق إدراكى أو فوق قدرتى على فهمها . ولقد
تحير والدى تماماً في وصف جمال المرأة وحب الشعراء لها . ثم تعب جداً في شرح لماذا إذا
كتبت المرأة خطاباً فإن للخطاب رائحة العطر . ومن أين يجىء هذا العطر . ولم أشم
للنساء عطرًا في أى وقت . وإنما دائماً رائحة الصابون النابلسى .. أو رائحة المطبخ الأرز
والبصل والسمن .. فما الذى يجعل لها عطرًا إذا أمسكت القلم وكتبت .. ولماذا تكتب
وكيف تكتب .. ثم كيف تبدو كالقمر .. وما الذى يعذب الرجال .. لقد أرهقت والدى
تماماً .. ولكنه بقدر ما أسعده اننى بدأت أقرأ ، أحزنه أن أبدأ فهذا الكتاب الذى به عبارات
كثيرة نابية ووصف جنسى للعلاقات بين الرجل والمرأة .. وقد لاحظت ذلك وأدهشنى
ولم أستطع أن أصارح أحداً بذلك ولقد أعدت قراءة هذا الجزء من « ألف ليلة وليلة »
مرات كثيرة .. وكأننى أنظر من ثقب الباب إلى عالم غريب عجيب .. عالم لم أره ولم أسمع
عنه .. عالم سحرى .. ولكنه في نفس الوقت عالم إنسانى مثير .. والرجال يقولون شعراً

والنساء .. وهناك رقص وغناء وخمور ومعارك وعفاريت وشياطين .. حتى العفاريت تقول شعراً . فما معنى ذلك ولماذا لا أحد يعرف هذا الكتاب . لقد سألت زملائي فلم أجد أحداً قد سمع بهذا الكتاب .

وكانت أمى تمنعنى فى كل مرة أمسك كتاباً بالليل . فقد حدث أن غلبنى النوم فنمت .. فأحرق المصباح الغازى شعر رأسى ورموش عينى .. ومرة سقط المصباح وانكسر وكادت تقع حريقة فى كتبى وكرارىسى وملابسى . ثم إن أمى نبهتنى إلى أن كثرة القراءة ليلاً ونهاراً تضعف البصر .. ثم إنها كتب ليست مدرسية .. وهذه الكتب لم تنفع والذى فى شىء . وأكثر الذين نفعوا فى حياتهم ، كانت بيوتهم خالية من الكتب . وأن بائعى الحمص والسودانى يمزقون الكتب ويجعلون منها قراطيس .

وأمى تريدنى أن أقرأ الكتب المدرسية فقط ولكن ما الذى يمكن قراءته فى الاجازة ؟ لابد من قراءة كتب أخرى .. ولم تكن من عادة أمى أن تناقشنى أو تحاورنى . إنها تقول . وكلامها أوامر . وأنا أطيع فقط .. وقد سمعت أحد أقاربى بعد أن قلب فى الكتب التى وجدها على سريرى إنها كلام فارغ . وكيف أشغل نفسى وأنا التلميذ المجتهد المتفوق بمثل هذه الكتب .

وكانت أمى تقول عادة . قل له .. والنبى .. قل له الله يخليك ..

وكان يقول ولكن لم أكن أسمع ما يقول . ولا أصدقه . ثم إننى حر أقرأ ما يعجبنى .. أنا حر .. أصبحت عبارة أقولها كثيراً وفى ذلك دليل على نمو شخصيتى وعلى استقلالى بالرأى أو بداية هذا الاستقلال .. وكنت أقول لأمى بصورة قاطعة . إنك لك أن أكون الأول . أليس كذلك ؟ إن شاء الله سأكون الأول . ولكن ما ينفع وما يضر من الكتب ، فأنا وحدى الذى يقرر ذلك ..

وكانت أمى تحتج على حرىتى هذه .. وترى فيها تقويضاً لسلطانها أو نفوذها .. وإننى لم أعد ولن أكون الإبن المطيع الذى لا يعرف مصلحته ومنفعته . أمى فقط هى التى تعرف .. كانت دائماً تعرف ، ويجب أن تبقى كذلك . حاضر يا ماما - هذا ما أقوله دائماً ، سواء كنت مقتنعاً أو لم أكن . وأغلب الظن اننى لم أكن . ولكن لا أحب أن أغضبها ..

أما الكتاب الذى استولى على خيالى وبهرنى وسحرنى وأنا لا أعرف ما هذا .. ما هذا الأسلوب أو ما هذه الكتابة .. وما معناها وما اسمها .. ولماذا هى هكذا . فهو كتاب «مقامات الحريرى» . الكتاب صعب . ولا أعرف له معنى .. وإنما كان الشعر ، بعض الشعر أسهل ما فى هذا الكتاب . وفى نفس الوقت أصعب ما أعده كل أسبوع لوالدى وأسأله عن المعنى ..

مثلاً وكنت أقول من الذاكرة دائماً ما جاء فى المقامات :

وقع الشوائب شنيب

والدهر بالناس قلب

إن دان يوماً لشخص

ففى غد ينقلب

فلا تثق بوميض

من برقه فهو خلب

واصبر إذا هو أضرى

بك الزمان وألب

فما على التبر عار

فى النار حين يُقلب

وكنت أتعجب لمثل هذه المعانى ، وكيف إهتديت إليها .. وكيف قالها الحريرى .. وفى

نفس الوقت أنتظر التفسير من أبى .

يقول الحريرى أيضاً .

لا تزر من تحب فى كل شهر

غير يوم ولا تزده عليه

فاجتلاء الهلال فى الشهر يوم

ثم لا تنظر العيون إليه ا

أما معجزة المعجزات فاختياره للألفاظ المتشابهة المتقاربة ثم وضعها كلها فى شعر

جميل كيف ؟

زينت زينبٍ بقد يقد
وتلاه ويلاه نهده يهد
جندها جيدها وطرف وظرف
ناعس تاعس بحد يحد
قدرها قد زها وتاهت وباهت
واغدت واعتدت بخد يخد
فارقتنى فأرقتنى وشطت
وسطت ثم نم وجد وجد
فدنت فديت وحننت وحييت
مغضبا مغضيا يود يود !

وعند هذا الشعر والحيرة والدهشة والعجب نصحنى والدى ألا أنشغل كثيرا بمثل
هذه الكتب ، فليس أوانها الآن .. سوف يجيء الاهتمام بعد أن أكبر .. لأنها تحتاج إلى فهم
أعمق ومعرفة باللغة والنحو والصرف والشعر والبلاغة . وطلب منى أن أحتفظ بهذا
الكتاب ، ولكن بعيدا عن يدي الآن .
وكنت أقرأ في كتاب آخر لا أعرف معنى الكثير مما جاء فيه .. الكتاب اسمه « الكامل »
من تأليف أبى العباس محمد بن يزيد المبرد .. ولم يكن كتابا كاملا وإنما هو جزء من
كتاب كبير ..

وفيه أن رجلاً نظر إلى زوجته العجوز فوجدها تتجمل فقال لها .
عجوز ترجى أن تكون فتية
وقد أنحب الجنبان واحد ودب الظهر
تدس إلى العطار سلعة بيتها
وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر
ووجدت هذين البيتين أيضاً .
وما غرنى إلا خضاب بكفها

وكحل بعينها وأثوابها الصفر

وجاءوا بها قبل المحاق بليلة

فكان محافاً كله ذلك الشهر !

وكان والدى يشرح ويقول ويحاول أن يقرب هذه المعانى وكان يستعين بالقاموس ولم أكن أعرف معنى القاموس ، ولا أن فى بيتنا قاموساً . وعلمنى أبى كيف أقرأ لكى أجد معانى الكلمات .. وكان ذلك فى غاية الصعوبة .

وسألت والدى عن معانى هذه الأبيات التى تحيرت فى فهمها . وبعد الذى رأيت على وجهه من الحيرة والقلق وأنا أنتظر وأتطلع ولا أترجع عن فهم كل هذا الذى جاء فى الأبيات التى وجدتها أيضاً فى كتاب الكامل ، قررت ألا أسأله بعد ذلك .. لن أسأله .. لا امتحنه .. لا أخرج .. لا أفرض عليه ما لا يريد .. ولكن أنا لا أقدر على مقاومة رغبتى فى أن أفهم وفى أن أعتمد عليه .. وأن أكلمه وأن أشغله معى قال الشاعر :

لم آر مثل الفقر أوضع للفتى

ولم آر مثل المال أرفع للردل

ولم أر عزا لامرئى كعشيرة

ولم أر ذلاً مثل نأى عن الأهل

ولم أر من عدم أضر على امرئى

إذا عاش بين الناس من عدم العقل !

كأن هذه الأبيات تشير إلى معنى عميق توارى بين الأحشاء ولا يريد أبى أن يفصح عنه .. أو يدلنى عليه . وفى نفس الوقت لا يريد أن يظهر لى أنه تضايق وأننى دفعته إلى كشف سر دفين .

وحاولت أن أفهم .. وحاول كثيراً . وفهمت بعض الذى قال ، فهو لم يقل كثيراً من المعانى وإنما دار حولها ولم يدخل .

فى كل ليلة وأنا فى فراشى مستلقياً على ظهرى أستعيد ما حدث طوال اليوم .. ولم أفصح فى فهم الخوف . هذا الخوف المستمر .. هذا الهرب أو الرغبة فى الهرب .. لماذا أنا فى حالة

خوف دائم .. خوف من أى شىء ؟ لا أعرف .. لأى سبب ؟ لا أعرف . ولكنى خائف
عمومًا . خائف عام .. مذعور مطلقًا . إذا أحدق الباب أصابنا الرعب .. وإذا فتحت
الباب فأئننى أسأل من الذى يدق الباب .. وانتظر حتى أتأكد من الصوت . فإذا كان
غريبًا سألت : وماذا تريد ؟ وإذا لم أفهم ماذا يريد ذهبت إلى أمى أنقل إليها ما سمعت ..
وهذه الكتب على الأرض أو تحت السرير أو فى جانب من الغرفة لماذا هى مربوطة
بدوابة . دائمًا مربوطة . لأننى أتوقع أن نترك البيت والبلد فى أى وقت . وحتى إذا لم
يكن هناك أى سبب ، فقد أصبح من عادتى أن أحزم الكتب ..

وإذا سمعت صوتًا غير مفهوم قلنا الذئب . جاء يخطف الدجاج .. أو هو التعلب
أو هو قط يطارد ثعبانًا أو إنهم اللصوص . مع إننى لم أر لصًا فى حياتى .. ولا أعرف من
يكون واللصوص يجيئون ليلاً . وسمعت انهم يغطون وجوههم بشىء أسود حتى لا
يعرفهم أحد .. وسمعت انهم إذا ذهبوا لسرقة المراكب الراسية فى الترفة فلإنهم يكونون
عراة .. وأحيانًا يدهنون أجسادهم بطبقة من الزيت أو الشحم أو الطين حتى يصعب أن
يمسك بهم أحد .. ولكن لم أر واحدًا منهم .. وإن كنا نتوقعهم فى أى وقت .. وأنا لا أسأل .
ما الذى يمكن أن يسرقه من بيتنا .. إن أهم ما فى البيت موجود فى غرفة النوم .. الملابس فى
الدولاب والساعة الكبيرة على الحائط والكتب تحت السرير ..

والليل فزع ورعب .. والنهار آمان . فأنت ترى والناس يرونك .. ولا أحد يستطيع أن
يهرب .. يخطف ويهرب .. والناس كلهم من الممكن أن يسمعوا أى صراخ أو أى استغاثة .
والذئب تظهر فى الليل والثعالب والأفاعى نادرًا .. وكل جرائم القتل تتم فى الليل . والدفن
يتم نهارًا ، مرة واحدة سمعت صراخًا فى الليل ولما صحوت قالت لى أمى : نم أنت
ياحبيبي سوف أذهب لأرى .

ولكن لم أستطع أن أنام فقالت لى : أنت تعرف عم عبد ربه .

- نعم ..

- مات .

- مات كيف ؟ ولماذا ؟

- مات .. كل الناس سوف يموتون ..

- كيف يموت الإنسان ؟

- حكمة ربنا يا ابني نم أنت وسوف أذهب إلى هناك . ولا تفتح الباب لأى أحد . ولا تخف . نصف ساعة وسوف أعود حالاً يا ولدى .. لا تخف ! انت رجل ! .

إذن من الممكن أن يموت الإنسان ليلاً والناس يكون ليلاً ونهاراً .

وسمعت يومها دقاً على الباب . وجلست في السرير . ولم أرد . ولكن الدق كان له وقع خاص .. ودون أن أسأل فتحت الباب .. وكان أبى وقلت له إن والدتى خرجت لأن عم عبده مات .. وتغيرت ملامح والدى . ولكنه لم يقل شيئاً ولم يشأ أن يخرج . وإنما جلس وبدأ يخلع حذاءه وأنا أساعده على ذلك .. وكان أحد الخفراء قد أدخل قفصاً من الفاكهة وسله بها فطير مثلتت وزبدة وجبنة وعسل .

وطلب منى والدى أن أنام وأنه هو الذى سوف يفتح الباب . ولكن أريد أن أجلس إلى والدى وأن أتحدث معه .. واقترب منى والدى وأخذ يقبلنى وينظر فى وجهى .. وفى عيني وفى أذنى وفى عنقى وفى يدي وذراعى .

وسمعت طرقتاً على الباب وأبى ينادى بأن افتح . ولكن والدتى هى التى ذهبت .. وغطت هى وجهى لكى أنام

وبعد ساعة أو ساعتين صحوت من النوم على حوار مرتفع .. شجار ..

والدى يقول : أنا تلقيت خطاباً من أحد الأولاد - إخوتى غير الأشقاء - يقول فيه : إنك ضربت الولد ضرباً موجعاً حتى نزل الدم من أنفه .. وإنه سقط على الأرض مغشياً عليه . لماذا؟

واعتدلت فى سريرى لكى أسمع .. فغرفة والدى لا تبعد عنى كثيراً .. وكانت أمى لا تريد أن تناقش هذا الموضوع الآن .. وكأنها لا تريد أن يستمر فى الكلام فتقول له . هذا ما حدث .. الولد شقى جداً . لقد وجدته أمسك ديكاً وفرخة وقد نزع ريشهما تماماً .. ولما سألته قال : إنه لا يعرف الفرق بين الديك والفرخة وانه يريد أن يعرف ذلك بنفسه .. الولد اتجنن .. الكتب أصابته بالجنون . الكتب التى تأتى بها معك . إنه أحياناً يكلم نفسه .

وقد وجدته منذ يومين قد وقف على أحد المقاعد وراح يخطب بصوت مرتفع .. ويقول آيات من القرآن .. والشعر الذى لا أفهمه . ولم يكن فى البيت أحد إلا أنا . وهو يكلم نفسه .. وقد نصحونى أن أبخره .. وأن اخذه للحاجة فاطمة لترقيه .. الولد أصابته العين . ولولا اننى أخاف عليه لا حرقت كل هذه الكتب ..

قال والدى الكتب التى عنده فيها كلام الله والرسول .. وكلها كتب دينية .. أحسن كتب .. وأنت لا تجدين مثلها فى بيت أى واحد من زملائه .. ثم هو صغير . ويعيش بمفرده .. لا أحد يقول له ماذا تقرأ وماذا تعمل . وما هو الصح وما هو الخطأ .. ويبدو أن أمى قد أغضبها أن يقول لها إن أحدًا لا ينصحه ولا يوجهه .. لأنها تعمل ذلك طوال الوقت ..

وقال والدى : ولكن ليس بالضرب . بالكلام . بالعقل .. بهدوء .. وردت والدتى . أنت يدك فى الماء البارد .. أنت تراه ساعة وتنام خمس ساعات وتراه ساعة . ثم يخرج ليعود فينام وتراه ساعة وتساfer .. وأنا الذى يقع فوق دماغى مشاكل النهار والليل . الأكل والشرب والغسيل والكنس والواجبات كلها . فمن أين أجيء بالأعصاب الهادئة .. انت الذى أفسدت الولد . انت الذى قلت له إنه أحسن الناس .. وإنه يفكر .. وإنه العاقل .. والعالم . هل تعرف أين يذهب الآن . إنه يذهب إلى بيت أبو آدم .. طبعًا عارف لماذا ؟ لأن مراته ست حليوه ودلوعة وصغيرة وتظل تقدم له الشاى والحلويات وتعطيه الكتب . ويجلسان معًا بالساعات والرجل زوجها لا هو رجل ولا عنده غيره .. إنه رجل كالخواجات لا يصلى ولا يصوم .. وأنا أخاف على الولد ..

- أبدًا الرجل يصلى ويصوم ومحترم ومؤدب وزوجته مؤدبة وابنه الوحيد فى غاية الأدب .. وأنت لا تعرفين زوجته إنها محترمة ..

- أعرفها .. زرتها .. ورأيت حالها لم يعجبنى .. إنها تهزرمع ابنتا وتضحك وبينهما كلام لا أفهمه .. وحكايات كثيرة يضحكان لها .. ولا بد انهما جلسا معًا طويلاً وسراً .. هذا هو الذى يعجبك ؟

- عارفه ما هذه الحكايات ؟ إنها التى جاءت فى القصص البوليسية التى يقرأها معًا ..

قصص كلها عن اللصوص ومطاردة البوليس لهم ..

- وأنت تريده أن يكون لصًا ؟

- ولماذا لص .. لماذا لا يكون من رجال البوليس ؟

- بوليس مثل أبو المكارم زوج بنت خالتي . عسكري بوليس .. لا .. لا .. أبداً لا عسكري ولا ضابط .. أبداً .. إنهم يسرقون الناس .. ويخطفون وينهبون .. أبداً .. إن طعامهم حرام وفلوسهم حرام .. أبداً .. إننى أقول لك من الآن . وأنا سوف أمنعه من قراءة كتب العساكر والحرامية .. غداً سوف أحرق هذه الكتب ! .

ولم أسمع ليلتها بوضوح ما الذى قاله والذى ..

نمت . وصحوت لأجد أمى تقول والذى يحاول أن يسكتها . أو يخفض صوتها حتى لا أسمع . لابد أن تقول له شيئاً .. إنه ابنك كما إنه ابنى .. وأنا لا أحب أن أكون أنا البعبع الذى يخيف الولد .. بينما أنت تجيء كالملائكة وتعود كالملائكة . كلمه .. اشخط فيه يجب أن تخيفه بكلمة ولو مرة واحدة .. إنه يسمع كلامك ولم يعد يسمع كلامى . لا أعرف ما الذى جرى . ما الذى أصابه ..

- لقد كبر . إنه الآن يدخل فى مرحلة الشباب . أى إنه رجل صغير ويريد أن يكون له رأى .. وهو يحاول أن يتكلم بصوت مرتفع . ألم تلاحظى . وأن يجعل صوته غليظاً .. إن رفع الصوت ليس قلة أدب . ولكنها مرحلة نمو .. يريد أن يقول . أنا عملت .. أنا من رأى .. أنا أحب .. أنا لا أحب . أنا لا أوافق .. ألم تسمعى إنه قال لى فى الأسبوع الماضى يا بابا أنا أحبك واحترمك ولكن أختلف معك . وأنا لم أعلق على ذلك .. فقد مررت أنا أيضاً بهذه المرحلة . إنتِ لماذا كانت أمك تضربك كثيراً مع إنك كنت قد كبرت .. لأنك كبرت .. ولأنك لم تعودى طفلة .. يجب أن تعطيه فرصة لكى يكبر .. إن الولد مؤدب جداً .. إنتِ التى تقولين ذلك .. وكل الناس أيضاً .. بل إنه لا يعجبني لأنه طيب أكثر مما يجب .. مؤدب أكثر مما يجب إنه بنوته .. ولو تركته يعمل ما تريدين لجعلته يرتدى ملابس البنات وتكون له ضفاير .. يجب أن يكون رجلاً . يجب !

ولا أعرف إن كانت أمى تبكى .. أو إن والدى يحاول إقناعها بعدم البكاء .. وفجأة

سمعتها تقول . هل تعرف ماذا حدث أول أمس . أنا كنت في طريقى لزيارة حرم المهندس . وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر .. مررت على بيت سليمان الخفير .. وجدت سليمان نائماً أمام الباب وإلى جواره زوجته وابنه .. ثم وجدت ابنتنا نائماً هو الآخر .. ولما وجدتهم جميعاً نائمين .. لم أقرب . وعندما رجعت وجدت الرجل قد جاء وابنه الصغير .. ولم أجد إلا ابنتنا إلى جوار حرم الخفير .. هل يرضيك هذا .. هل هذا هو الأدب .. ينام أمام بيوت الناس .. ولماذا لا ينام أمام بيتنا أو فى البيت . ويأتى بمن يشاء من زملائه .. لا بد أن تكلمه ا .

- إنه طفل .. صحيح إنه يدخل فى مرحلة الشباب .. فهو طفل كبير . ولا بد أنه جلس معهم . وطلبوا إليه أن يمدد فهو ليس أكثر من ابن لهما .. وزميل لابنه فى المدرسة .. ونام فى أدب ونهاراً وأمام البيت .. وأفضل أن تسأليه .. بدلاً من أن تضربه ويفاجأ بالعقاب دون أن يعرف غلطته ..

- أنت يجب أن تكلمه ا

- عندما أراه فى الصباح

- ولكن فى الصباح لن تقول له شيئاً .. أنت دائماً تقول فى الصباح ويגיע الصباح ولا تقول شيئاً . وإنما تقول يا حبيبى .. ماذا تقرأ . ما الذى أعجبك .. ماذا فهمت .. تعال معى إلى بيت فلان . ولا تقول له كلمة . وأنا الذى يجب أن أقول وأن أعلم وأن أضرب وبعد ذلك يكتبون لك الجوابات يتحدثون عن الضرب ولا يذكرون لك الأسباب .. وهذا هو الذى يصيبنى من أولادك .. هم المؤدبون وأنا قليلة الأدب . وأنا لا أحب أن يجلس إليهم .. إنه أصغر سنّاً وإنهم يدخنون ويعاكسون البنات . أنا لا أحب هذه المسخرة ..

- غداً إن شاء الله ..

- تريد أن تنام ..

- لا ..

- أحكى لك حكاية غريبة ولا أعرف ما الذى يجب أن أعمله . انت الذى يجب أن تعمل شيئاً ..

- حكاية أخرى

- أشنع حكاية .

- حكاية لابننا أيضًا ..

- منذ ثلاثة أيام انتظرتة أن يعود وقد بعثت به يشتري خبزاً وجبناً وطعمية وفولاً وليموناً .. وفوجئت بأنه عندما خرج حمل معه كل كتبه .. ولم أفهم السبب . ولما سألته قال إنه سوف يعطيها لأحد زملائه لكي يقرأها ثم يعيدها بعد أيام .. ولما طلبت إليه أن يترك الكتب وأن يؤجل هذه المهمة إلى غد قال لا بد اليوم .. وانتظرتة ساعة ساعتين .. ارتديت ملابسى وذهبت إلى زميله فقالوا إنهم لم يروه وذهبت إلى بيوت أصدقائه .. فقالوا جميعاً إنهم لم يروه . وكدت أفقد عقلى وعدت إلى البيت بعد أن طلبت إلى جارنا الخفير أن يبحث عنه .. فوعدنى بذلك .. وذهب إلى قسم البوليس . وكانت ليلة سوداء . وخفت أن يكون الذئب قد أكله .. أو يكون قد غرق في التربة .. أو يكون قد قتله أحد اللصوص .. وربنا هو الأعلم بما أصابنى .. وعند الفجر سمعت طرقة على الباب .. وقفزت أفتح الباب فوجدته ووراءه إمام المسجد وقال لى الحمد لله وجدته .. إنه ما يزال صغيراً.. الحمد لله على السلامة ..

فسألها والدى . أين كان ؟

تقول أمى وهى تبكى . لقد أخذ الخبز والفول والطعمية والشاى والسكر والكتب وذهب إلى قبر جده .. إنه سمع ان الموتى ينهضون بالليل .. لقد قرر أن يعيش هناك .. فأخذ طعامه وملابسه وكتبه .. وفوجئ شيخ المسجد بصوت طفل يسعل فى داخل الضريح . فاقترب ووجده ثم أتى به إلى هنا .

ولم يرد والدى طويلاً .. ثم عاد يقول لها . الولد لا يريد أن يبقى فى البيت .. إنه يتركه وينام فى الشارع بين اناس آخرين .. ويريد أن يترك الدنيا ويذهب إلى المقابر .. الولد تعبان .. عنده شعور بالعزلة .. بأنه وحده .. حاولى أن تعيديه إليك .. أن تكسبيه .. إنه هارب منك .. أو خائف من كل الدنيا .. ولا أعرف من الذى قال له إن الأموات ينهضون من نومهم ليلاً وانهم يتكلمون إلى الأطفال ؟ فهو ذهب يتكلم مع جده .. أو يشكو إليه ..

أنا وجدت عنده خطابًا قد كتبه إلى جده .. لا تقولى له إننى فتشت فى أوراقه وعثرت عليه ..
إنه طفل لا يعرف ماذا يريد من هذه الدنيا ..
وتلاشى الكلام ولم أعد أسمع شيئاً . لقد نام والدى والذتى . ونمت أيضًا ..

* * *

وسمعت ضوضاء واناسًا كثيرين ورأيت وحوشًا غير واضحة .. وجاء إناس
وحملونى من ساقى .. ثم ألقوا بى فى ماء .. الماء يغلى وأنا أصرخ . ولكن أحدًا لا يرانى ولا
أراه . وحاولت أن أستنجد بوالدى ولكن يدًا غليظة سوداء انحشرت فى فمى .. ومسامير
ساخنة انغرست فى أذنى . ووجدتنى أغوص فى الأرض وأصرخ .. ثم بدأت الأصوات
تسكت .. وفتحت عينى لأجد أمى قريبة منى وهى تقول لى
مالك يا ابنى يا حبيبى .. انت تهلوس من ساعة ولا أعرف ما تقول .. سوف يأتى لك
الطبيب حالاً خذ . اشرب .. والله يا ابنى ما أنا عارفه ماذا جرى لك . إنت كنت كويس ..
حاضر يا ابنى لن أزعلك .. غصبا عنى يا ولدى انت ما تزال صغيرًا لا تعرف شيئًا من
الدنيا .. الدنيا وحشه . الناس أوحش ما فى هذه الدنيا .. ربنا يجعل دنياك أحسن
وأفضل .. يارب يا كريم .. اشرب بالشفاء إن شاء الله ..

وكنت قد كتبت خطابًا إلى جدى لكى أضعه فى يديه عندما أراه يصحو من قبره .. وتظاهرت بالنوم عندما قرر والدى أن يقرأ الخطاب على اخوتى مندهشًا مبهورًا قلًا .. قلت لجدى :

(أنا مش عارف يا جدى ليه كل الستات تبكى . لماذا كل البنات تكره الرجال .. لماذا يتكلمون بصوت عال . والرجال يتكلمون بصوت منخفض .. لماذا كل الأمهات تضرب الأطفال .. لا أفهم ماذا تريده أمى . وقبل أن أحاول فهمها تكون قد ثارت وغضبت وبكت ونزفت دمًا .. وأنا أزداد حزنًا عليها .. وأجدها تبكى فابكى .. أنا ترتبى الأول فى المدرسة يا جدى .. ومع ذلك ماما تعاملنى كما لو كنت قد سقطت فى الامتحان . كانوا يقولون لى إن الذى يحفظ القرآن الكريم لا يمرض .. وأنا أتعرض للزكام فى أسرع وقت .. وقالوا لى أن الذى يحفظ القرآن يجد الطعام تحت المخذة .. أو يجده أمام السرير .. ويجد الفلوس فى طيات كتبه .. وأنا سألت الأطفال عن ذلك فقالوا لى إنهم لم يجدوا الطعام ولا الفلوس .. وألاحظ أن والدى يضع يده على رأس أى إنسان يشكو الصداع ويقرأ آيات من القرآن أنا أعرفها .. فيذهب الصداع .. ولكن والدى الذى يحفظ القرآن يمرض ، وأنا أمرض .. ووالدى يقرأ القرآن عند رأس والدتى ، ولكن القرآن لا يشفيها .. مش فاهم .. وسيدنا الشيخ الذى حفظنى القرآن كان يطلب منا أن نسرق له بيض الدجاج من فوق الأسطح .. وكان يضربنا .. وكان يطلب منا أن نسرق الكراريس من المدارس المجاورة .. مش فاهم .. وكلما نظرت إلى ضيوف أمى وجاراتها وقربياتها وجدتهن يصرخن فى وجهى . ابعده .. لماذا

تنظر هكذا ؟ الولد كبير وأنا مش فاهم يا جدى .. لقد اعتدت أن أجلس مع السيدات ..
والآن كلما حاولت أن أجلس إليهن أشارت أُمى وخالتى أن أبتعد . مش فاهم .. وفى إحدى
المرات ذهبت إلى غرفتى وتظاهرت بالنوم فوجدتهن يتحدثن عن فلانة وزوجها .. وفلانة
وزوجة أبيها .. وفلانة وفلانته وحبهما لفلان .. وكلمات كثيرة لم أفهما . ولم أحاول أن
أسأل أحداً .. جدى العزيز أنا عاوز أموت زيك . ومستعد أن أرى أبى وأُمى إذا جاءوا لى
ليلاً . ولكن لا أعرف ما هى الطريقة التى يمكن أن يموت بها الإنسان .. سألت الأطفال
فضحكوا . وواحد قالى : إغرق فى النيل لكى يأكلك السمك .. فإذا أكلنى السمك فمن الذى
يحملنى إليك هنا . وواحد قالى : إطلع فوق النخلة والحق بنفسك من فوقها وأنت تموت
فوراً .. ونظرت إلى النخلة ولكنى لا أعرف كيف أتسلقها .. وطفل قال لى : عندما تجدهم
يشعلون نيران الفرن ادخل برأسك مرة واحدة . واقتربت من الفرن ووجدته ساخناً
جداً . وكان نصيبى علقه مؤلمة من جدتى . فقد ظننت اننى سوف أمد يدي إلى ما فيه من
أرز وفطير .. وطفل قالى : إذا امتنعت عن الأكل والشرب . لقد حاولت ولكن أكرهتنى أُمى
على الطعام حتى لا أمرض وأموت .. ولم أجرؤ أن أقول إننى أريد أن أموت ..

ولما مات خالى .. حاولت أن أتسلل إلى داخل الغرفة التى يتمدد فيها . منعونى .. ولما
وجدتهم يلفونه فى الأقمشة الحريرية .. حاولت أن أُلْف نفسى وأدخل إلى جواره فى النعش
منعونى وضربونى ..

جدى العزيز هذه هى المرة الثانية التى أزورك فيها .. ولكنك لا تريد أن تقابلنى .
سوف أترك لك هذا الجواب .. وأرجوك يا جدى ألا تعطيه لأُمى بعد أن تقرأه أرجو أن
تقطعه أو تخفيه فى جيبك حتى آخذه منك فى المرة القادمة .. وأنا سوف أقطعه وأرميه فى
النيل .. جدى العزيز . أرجوك وأتوسل إليك أن تزورنى فى المنام .. وسأنام مبكراً ..
وسوف أتوضأ قبل أن أنام وسوف أقرأ القرآن حتى أنام .. وسوف أضع المصحف تحت
مخدتى . أرجوك أن تزورنى فى المنام وتقول لى إنك تسلمت الخطاب وإنك قرأته .. بس
ربنا يخليك يا جدى ... والسلام عليكم ورحمة الله ..)

وكان والدى يقرأ الخطاب على إخوتى وأنا قد تظاهرت بالنوم وهو يقول لهم : الولد

ده مش عارف ربنا حيجعل منه إيه عندما يكبر . إن جسم هذا الولد لن يتحمل عقله ..
مسكين جدًا .. عقله أكبر من سنه .. وأكبر من جسمه .. ولن يكون سعيدًا .. أنا مهموم
بأخوكم هذا ..

* * *

وضحك إمام المسجد وقال لوالدى بعد سماعه لهذا الخطاب : الولد كاتب ولأنه لم
يجد جمهورًا بين الأحياء ذهب إلى الأموات .. هاها .. هاها ..

اتفقت مع اختى على الهرب .

أختى قالت لأمى أن أذهب إلى بيتها وأبيت عندها حتى الصباح . وترددت أمى . ولكن
أمام إلحاحها وتقبيل يديها وافقت أمى وطلبت من اختى أن تساعدنى على ترتيب
ملابسى فى حقيبة من القماش .. وأن تضع المصحف بين ملابسى .. وطلبت منها أن
تغطينى باللحاف . لا بد من اللحاف حتى لا أصاب بالزكام فالدنيا برد .

وكنت قد أعددت ملابسى .. ولما لاحظت أمى إننى أحمل اللحاف معى . أشارت أن
أتركه فأختى لديها لحاف ..

وبسرعة مرت أختى على بيتها الذى يبعد عن بيتنا ودخلت وغيرت ملابسها وحملت
بقجة فيها بعض الملابس وبعض الطعام .. ووجدت ان معها عصا طويلة .. وقالت إنها
تستخدمها لضرب الكلاب لأن فى خيام الغجر كلابًا كثيرة ..

وكنا فى طريقنا إلى خيام الغجر .. فأختى لاحظت اننى أحب أن تكون (زويه) معنا ..
وهى طفلة غجرية فى مثل سنى .. بيضاء سوداء العينين والشعر تبدو وكأنها فى الرابعة
عشرة مع إنها فى الحادية عشرة . وإذا نظرت إليك فإنها تنظر مباشرة إلى وجهك .. وتظل
تنقل عينيها من عينيك إلى شفطيك إلى أصابعك إلى ملابسك .. إن نظرتها تلخبطنى .. ولكن
يخفف عنى هذا الاضطراب إنها مبتسمة دائمًا .. وإنها إذا صافحتنى ألقى بنفسها على
صدرى أو على كتفى قائلة : حبيبى .. عريسى ..

والمشوار طويل .. ولكن لا أستطيع الا أفكر قبل أن أراها .. فكنت أقول لأختى : وأين

تنام هذه الليلة ..

أختى هناك .. عندهم خيام كثيرة ..

- وهل ستكون معنا زؤيه ؟

- طبعًا . هى قالت لى أمس .

- انت قابلتها أمس .. أين ؟ ماذا قالت لك ؟

- قالت إنها سوف تنتظرنى وإننا سننام معًا فى خيمة واحدة .. وإنها طلبت منى

بعض السكر والأرز والسمنة .. وقد أحضرت لها كل ذلك .. إنها تحبك يمكن أكثر منى .

- وأنا أحبها أيضًا .. كم يومًا سوف تبقى هنا .

- الليلة فقط .. لو أمى عرفت الحقيقة .. أو زوجة أبى .. سوف تكون مصيبة كبرى ..

لقد قلت لزوجة أبى أننى سأنام عندكم .. فوافقت .. وربنا يستر ألا تلتقى مع أمى الليلة أو غدًا ..

ومن بعيد ظهرت الخيام . إنها ملونة . أول مرة أراها زرقاء وحمراء وسوداء . وأرى هذا العدد الكبير من الكلاب والماعز والحمير .. وكما توقعت أختى تقدم ناحيتى كلب أسود فضربته بالعصا .. فتراجع يصرخ . وتعالى نباح الكلاب .. وأطلت الأطفال من الخيام .. وظهر عدد من الرجال ولم تظهر زؤيه حتى الآن . وتوقفنا قليلاً .. وفجأة ظهرت (زؤيه) .. لم أعرفها .. ويبدو اننى كنت مضطرباً .. إن (زؤيه) حلوة .. وجهها مستدير .. أبيض .. وخداها حمراوان وشفاتها غليظتان .. وكتفاها مستديرتان عاريتان رغم برودة الجو .. وصدرها رغم انها صغيرة .. وكان شعرها ضفيريّتين غليظتين واحدة على كتفها والثانية وراءها .. وقد وضعت عددًا كبيرًا من الأساور فى يديها والخواتم .. ونادت علينا . وردت عليها أختى .. وأبعدت عنا الكلاب ودون أن تصافحنا تقدمت إلى إحدى الخيام .. وأشارت : هنا أنت تنام . وإلى جوارك أختك .. وأنا إلى جوار أختك . وسوف يجىء أخوان صغيران ينامان متجاورين هنا ..

ثم طلبت إلى أختى ماذا تحملين معك ؟

وأعطتها أختى البقجة .. وفتحتها زؤيه . فوجدت الأرز والسكر والشاى والصابون

وعلبة سمنة .. وعلبة عسل وعلبة جبنة قديمة .. وفتائر مشلتت .. ونهضت زؤيه وقبلت
أختى .. ثم قبلتني .. ثم انطلقت إلى مكان آخر .. ووجدتني مع أختى وأسألها : كم يومًا

نجلس هنا ؟

- يوم واحد ..

- لا أريد أن أعود ..

- يا نهار اسود .. لا .. اليوم فقط . وغدًا نعود ..

- لا أريد أن أعود .. هل عندهم كتب ؟

- كتب ؟ لا أعرف . أسألها .

وجاءت (زؤيه) وسألتها : عندكم كتب ؟

- توجد كتب ولكن أنا لا أعرف القراءة .. وكلها بلغتنا .

- لغتكم ؟

- طبعًا نحن لنا لغة أخرى غير العربية .. أنا أعرف منها القليل . ولكن الرجال الكبار

في السن يتكلمونها معًا . وأمي تعرف ..

- وأمك أين ؟

- تجرى على عيشها

- ماذا تعمل ؟

- ليست هي وحدها .. وإنما كل النساء يعملن . والرجال يجلسون هنا .. يصنعون

الخيام والملابس والطهى وتربية الدواجن والماعز وإطعام الحمير وإصلاح العريات ..

- ولكن أنا أريد أن أكون مع أمك

- معها ؟ إنها سوف تكون سعيدة جدًا ..

- ولكن ماذا تعمل معها ؟

- أساعدها ..

- أمي سوف تكون سعيدة .. لأنها بدأت تشكو من آلام في ظهرها وركبتها .. وأنا لن

أعمل الآن .. بعد الزواج . ولكن الآن أبقى مع الأطفال في خدمة الرجال الكبار ..

ومن فتحة الخيمة أطل أحد الرجال وتحدث إلى زؤيه .. ولم أفهم ماذا يقولان ولكن زؤيه أشارت ناحيتنا .. وتطلع إلينا الرجل بعين فاحصة قبل أن يقول لنا أهلاً وسهلاً بالضيوف ..

ولم أفهم ما قالته زؤيه له . ولكن لم يظهر عليه الاهتمام . بل إن الإهتمام تحول إلى لا مبالاة .. وإلى لا شيء فاختفى .

وجاء رجل ثان أصغر سنًا وسلم علينا وسأل زؤيه بالعربية عنا فقالت : أخ وأخت .. وأنا أحبهما كثيرًا .. وأنا دعوتهما إلى المبيت عندنا .. وأنا سوف أبيت عندهما أيضًا .. واختفى .. ولم يقل شيئًا .

وجاءت سيدة طويلة عريضة سمراء شديدة الاحمرار . وقد ارتدت ثوبًا أسود وتحتة ثوب أحمر .. وشعرها أسود وعيناها واسعتان والتف حول عنقها الكثير من العقود وفي يديها الكثير من الأساور والخواتم . وعلى خديها وشم وعلى أصابعها وشم .. ودخلت وجلست . والتفتت ناحيتي وقالت . وحشتنى يا ابنى .. هذه أختك ؟

قلت : نعم .

- تحبها ؟

- جدًا .

- وهى تحبك .

- جدًا ..

- أكثر من زؤيه .

وتلعثمت ولم أقل شيئًا فهذه هى أول مرة أقارن بين حبى لأختى وحبى لزؤيه .. ولما رأت اضطرابى واحمرار وجهى والعرق الذى ظهر على وجهى . ضحكت وقالت : كل هذا يدل على أنك تحب زؤيه أكثر من أختك .. وهى تحبك جدًا ومستعجلة . على الزواج .

وامتدت يد أختى تهزنى وتسألنى . زواج ؟ انت تتزوج دون علم أمى ؟ يا نهار اسود .. أنا لا أستطيع أن أبقى هنا لحظة واحدة .. أنا ماشية .. هذه مصيبة . أقعد انت معاهم .. لكن أنا سوف أعود ..

وانطلقت أختى وتركتنى ..

وخرجت أم زويه وجلست أنا وهى .. ولما رأته اضطرابى الشديد اقتربت منى أكثر

وهى تقول :

انت لا تعرف أمى .. إن لها طريقة فى الكلام لا تعجب الناس .. إنها هى التى تستعجل زواجى .. ونحن الغجر لا نتزوج إلا من الغجر .. وعريسى موجود .. ولا بد أن أتزوجه .. ولكنى أحبك .. وكنت أتمنى لو انك أنت العريس .. لكن أنت حياتك شكل ونحن حياتنا شكل آخر .. أنا لا أستطيع أن أعيش بينكم ولا أنت تستطيع أن تعيش بيننا ..

- ولكن أريد أن أبقى هنا .. أريد أن أسافر معكم ..

- لا بد أن تعمل .

- أعمل .

- ماذا تعرف ؟

- هل تحرث الأرض ؟ . هل تجمع الفاكهة ؟

- لا ..

- هل جربت السرقة ؟

- لا ..

- ولا سرقت مرة واحدة ؟

- ولا مرة ! .

- ولا وضعت يدك فى جيب والدك ؟

- لا ..

- إن أختك قد سرقت الأرز والسكر والسمنة من بيتها .. لماذا لا تعلمك السرقة .. وبعد

ذلك تعال وعش معنا .. ولكن هل أهلك إذا عرفوا إنك هنا جاءوا وأخذوك ..

- طبعًا .

- إذن كيف تختفى بيننا .. إن أختك سوف تبلغ والدك ووالدتك وأقاربك .. وسوف

تثور علينا المدينة كلها ويضربوننا .. ويجيء البوليس ويتهموننا بسرقة الدجاج والبيوت

وخطف الأطفال .. ويهددنا البوليس بالحبس أو ترك المكان .. لقد حدث لنا ذلك كثيرًا
جدًا.. لا أحد يريدنا .. وأنا أعلم اننا لم نسرق كل هذه الأشياء التى يتهموننا بسرقتها ..
ولكن يبالغون فى جرائمنا .. أمى لم تسرق سوى بعض البيض .. انظر .. انظر ..
ورأيت عددًا من الناس .. عشرة .. عشريين والكلاب تنبح وأنا أتوارى . والأصوات
تقول : يا لصوص يا أولاد الكلب .. أين الحلل .. والأساور .. والقمصان التى كانت على
حبل الغسيل .. وشوال أرز .. وصندوق سكر ..

ويظهر أحد رجال البوليس .. وينادى : أين الرجل الكبير هنا ؟
ويظهر رجل كبير له لحية بيضاء فى السبعين .. إنه يتوكأ على عصا .. وتسرع زؤيه
وتضع تحته صندوقًا فارغًا لكى يجلس عليه .. ويقف إلى جواره . ويقرب منه رجل
البوليس ويقول له : المسروقات لابد أن ترجع الآن وإلا فكوا الخيام وامشوا لحال
سبيلكم يا أولاد الكلب يا حرامية .. رد .. ساكت يعنى ؟

ويكون للرجل العجوز صوت غير مسموع .. ولكن زؤيه بمنتهى الشجاعة تقول
لرجل البوليس إنه مريض ويقول لك . اتفضل فتش كل شىء هنا .. بنفسك . وإذا
وجدت شيئًا واحدًا من هذه المسروقات فضعنا جميعًا فى السجن ..
وقبل أن يتقدم رجل البوليس إلى الخيام تكون النساء قد أخرجن كل شىء على شكل
قفف وأكوام من الأدوات والأخشاب .. ويضرب رجل البوليس كل شىء بيديه وقدميه ..
وينظر إلى أقفاص الدجاج ولا يجد الماعز والحلل وجوالات الأرز والسكر ..
ويقول واحد من الجمهور :: هناك مجموعة من الغجر فى الناحية الثانية .. فلنذهب
إليهم !

وينفض الناس .. وتنظر زؤيه ناحيتى وتقول . لا يوجد غجر غيرنا ولكنهم
يبالغون فى السرقات والجرائم .. ويبالغون فى عددنا وفى مواقعنا وقدراتنا على السرقة
والاختفاء .. ويتوهمون إننا فى كل مكان .. وهم بذلك يخفون اللصوص الحقيقيين .. إن
اللصوص بينهم وليسوا بيننا .. ولكن مادما قد ظهرنا فكل المصائب فوق دماغنا ..
ويقولون لنا : إننا قذرون وأن لنا رائحة كريهة .. وأن الكلاب لا تنام فى الخيام لأنها
لا تطيق رائحتنا ..

ثم تقترب منى أكثر وتقول لى : شم.. رائحتى.. هل هذه رائحة يهرب منها الكلاب ..
إننا يجب أن نستحم مرتين فى كل يوم وأن نغير ملابسنا قبل النوم.. دائماً .. ونغسل
أيدينا قبل وبعد الأكل وكذلك أفواهنا .. إن ديننا يقول لنا إنه مسموح لنا بالسرقة ..
وسوف أنادى جدى لكى يحكى لماذا سمح الله لنا بالسرقة . أريده هو يحكيها لك بنفسه ..
واختفت وجاءت وعلى رأسها صندوق من الخشب . وضعت الصندوق فى منتصف
الخيمة .. ثم ذهبت لتأتى بجدها . إنه رجل وسيم .. كان وسيماً ثم أجلسته على
الصندوق .. ونظر ناحيتى .. عيناه لامعتان ولكن شديدة التجاعيد عند أطرافها وتحتها ..
ولكن له ابتسامة حلوة .. وتحدثت إليه زؤيه بلغتها وأخذ يحكى بلغته وهى تترجم .. ثم
التفتت ناحيتى وقالت . المسيح .. عندما قرر الرومان صلبه .. تعرف القصة .
قلت : لا ..

قالت : المسيح .. عندما حكموا عليه بالاعدام فوق الصليب .. جاء الحدادون وراحوا
يضعون أمامه أربعة مسامير من الحديد .. لكى يدقوها فى كفيه وقدميه .. فتقدم واحد من
أجدادنا وسرق مسامراً .. فلم يجد الرومان إلا ثلاثة مسامير لكى يدقوها .. فكان اختفاء
المسامر الرابع الذى سرقه جدنا سبباً فى إنقاص آلام المسيح وعذابه .. والمسيح حكا ذلك
لأبيه . فأسعده ذلك .. وقرر أن يسمح لنا بالسرقة مكافأة على ذلك . ومن يومها ونحن
نسرقة الأشياء الصغيرة ..
ثم دار بينهما كلام لا أفهمه ..

ووجدتها تقول له . قلت له .. إننا متهمون هنا بسرقة وقتل ونهب وسلب وخراب
بيوت كل الناس .. وإذا مرض إنسان وإذا مات .. وإذا اختفى أى شىء .. وإننا عفاريت
ليلاً ولصوص نهاراً .. وإننا قد أخطنا بالمدينة من جميع جوانبها .. وأن أحدًا لا يرانا إذا
جئنا ، ولا يرانا إذا خرجنا .. وأنت الوحيد الذى تحبنا وتريد أن تعيش معنا وأن تكون
واحدًا منا ..

ثم اقتربت منى وكشفت ذراعى ودار بينهما كلام وظهرت السعادة على وجه الرجل ..
ثم مدت ذراعها ليراها . وضحك الرجل وقال بالعربية : مبروك .. يا ولدى .
وكنت قد نسيت اننى جئت وحدى وعندما طلبت من زؤيه أن نتزوج جاءت أمها ..

وجعلتني أشرب من دم زؤيه وتشرب هي من دمي .. أي إننا أخوان ولا نتزوج !
ولاحظت أن جدتها يناديها : زؤيه .. زؤيا .. وكانت تقول له . سى .. أي نعم ..
وكلمات أخرى حفظتها ونسيتها ولكن عرفت فيما بعد أنها خليط من اللاتيني واليوناني
والأسباني والإيطالي والهندي والعربي .. إنها خليط من لغات البلاد التي يخترقونها على
مدار السنة .. طول العمر ..
وخرج الرجل ومعه زؤيه .

وتركتني وحدي في زهول .. فأنا هنا أيضًا وحدي . في خيمة .. سجن آخر .. ولا
أستطيع أن أخرج من الخيمة .. وإذا عدت إلى البيت وحدي وإذا لم أعد .. وإذا أختي قالت
لأمي الآن .. أو انها سوف تقول ذلك غدًا .. وماذا تقول لأبيها وزوجة أبيها عن أسباب
رجوعها .. وإن كانت أمي قد طردتها .. وكلام آخر موجه تقوله زوجة أبيها ولا تتركها إلا
ودموعها على خديها .. أعرف ذلك .. رأيتته وسمعتة كثيرًا .. وتزداد حيرتى : لماذا يبكي
الناس .. ولماذا يتوقف الناس عن الكلام والشجار إذا نزلت الدموع من العين .. ولماذا لا
يبكي الرجال . وإن كنت رأيت والدي يبكي مرة واحدة .. ولما رأيت ذلك قال لى أبى أنا
تذكرت والدي يرحمها الله .. أنت رأيتها وأحببتها وهي كانت تحبك ..

ولم أسأل والدي إن كانت جدتي تزوره في المنام ..
ولكن وجدته يروى أحد الأحلام التي زارته فيها ..
ويحدث كثيرًا جدًا أن أفكر في شيء أو يخطر على بالي شيء ، فأجد والدي يحكيه ..
وكأنه قرأ ما في عقلي .. أو كأنه أحس بى .. أو كأنه قريب منى لدرجة أنه يسمع أفكارى ..
وفي خيام الغجر لا أكون في كامل وعيى .. إنما في حالة من القلق والخوف والحيرة
والدهشة والرغبة في البقاء والفرع من البقاء ..

وفجأة انفتحت الخيمة ووجدت أختي وأمى وراءها .. وبسرعة وجدت أختي تلملم
ملابسى وتدفعنى أن أخرج فورًا . ولم أستطع أن أرفع عيني في وجه أمى ، ولا أمى
نظرت ناحيتى . ولا شعورياً مددت لها يدي . ووجدت يدي باردة ويدها . كأننى نائم
أمشى ، أو اننى أمش نائمًا .. تشبثت بيدها .. أو كأننى أمشى على حافة بئر .. أو كأننى
غرقان ووجدت يدها .. أو كأننى أضغط عليها لعل أنقل لها كل ما في نفسى . وما في

نفسى إلا الخوف . منها ؟ لا أخاف منها .. أخاف عليها ؟ نعم .. ولكنى خائف .. ارتعش ..
اختنق .. لا أمى قالت شيئاً ولا أنا .. وإنما كانت يدي تنتظر يدها . والتقت اليدان . وسرنا .
وأمى لا تنطق واختى أيضاً . وأنا السبب ..

ولم تشأ أمى أن تعود إلى بيتنا وإنما قررت أن تذهب إلى بيت أحد أقاربنا .. لم أكن
أعرفه . ولكن رأيت السعادة على وجه أختى . وقرصتني في ذراعى . ولم أفهم .. لعلها
أرادت أن توقظنى أو تؤكد لى أن أمى ليست غاضبة .. وأن القصة التى حكتها أختى لم
يكن لها معنى يضايق أمى ..

السلم طويل . وأمى تتنفس بصوت مرتفع . وأنا أتقدمها وأشدها .. سمعتها تقول :
ربنا يعطيك القوة يا ولدى .. ربنا يكرمك بك ويكرمك يا ابنى ..
وانحنيت على يد أمى قبلتها ..

وأشارت أن أدق الباب . وأحسست بالسعادة لأنها تطلب منى شيئاً . وإن كل شىء
عادى بيننا .. فرحت أدق الباب كثيراً وبقوة . وضحكت أمى لتقول : إنهم يجلسون وراء
الباب ! .

وانفتح الباب على شقة مضيئة وجدرانها خضراء والمقاعد حمراء .. وتتوسطها تربيذة
كبيرة . الوجوه لا أعرفها ..

وتقدمت أمى وهى تضحك - والله زمان يا ماما لم أرك تضحكين هكذا .. هل تخفين
الحزن في قلبك .. إلى هذه الدرجة انتِ قادرة على إخفاء مشاعرك .. ولكنك جميلة والله
ياماما .. أمى بيضاء ووجهها وردي وعيناها عسليتان .. وإذا ضحكت كأنها تخجل من
ضحكها فتحنى رأسها كأنها توارى وجهها . وقد أخذت منها هذه العادة .. ثم تمسح
عرقاً ظهر على جبينها وبعد ذلك تلمس ضفيرتها الطويلة على كتفيها - وتقول لصاحبة
البيت . والله يا ست أم إلهام نفسى أزورك من زمان .. وأنا أتيت معى ابنى وبنتى ..

وفجأة ظهرت ثلاث بنات وولد هم كل أولاد الست أم إلهام ..
ولما شعرت بالاضطراب وجدت أمى تقول لى . أقعد يا حبيبي .. أقعد مع أخواتك ..
وقالت الست أم إلهام : إلهام الكبيرة .. وثرىا .. ونوال .. وأصغر أولادى حمادة ..
لم أتابع ما يقال حولى .. ولكن كنت سعيداً أن أجد أمى سعيدة .. وإنما لم تعاقبنى ..

أو إنها أرادت ألا أعود إلى البيت حزيناً .. وألا تجعلها حكاية كما كان والدى يقول لها :
إنت كل حبة تجعلينها قبة .. كل شىء تافه يصبح عندك حكاية ورواية .. إن الولد لا
يقصد كل هذه المعانى .. إنه صغير .. ولكنك أنت التى تدبرين الحكايات فى دماغك
وتجعلينها مصائب كبرى .. إنها أشياء تافهه ! .

* * *

وكان يوماً سعيداً كله .. فى الليل جاء والدى وملاً البيت حيوية وحكايات .. وقدم لنا
الحلوى والملابس الجديدة .. والجزمة التى وعدنى بها .. والكتب قد وضعتها تحت
مخدتى حتى لا تراها أمى ..

وكان قد أحضر معه العشاء .. الأرز بالقرن والحمام والسمك المقلى والفاكهة واللب
والسودانى .. وعلبة حلوة .. والشاى الكثير والنعناع . وأعطانى مجموعة من أقلام
الرصاص الشديدة السواد ..

وكما هى عادة والدتى قبل أن تنام فإنها تتأكد من اننى نمت .. فراحت تتنادى ..
فتظاهرت بالنوم . وجاءت لتتأكد بنفسها . فلم تشك انى نائم . وإذا بها تقول لوالدى :
هل تعرف ماذا حدث .. إننى عملت بنصيحتك ولم أكلم الولد ولا كلمة .. وإن شاء الله كل
شىء سوف ينتهى .. ذهب إلى الغجر مرة أخرى .. ولم يقل لى . وإنما كذب وقال إنه
ذاهب إلى واحد صاحبه .. هل تعرف ماذا حدث .. والله أنا لا أعرف أين أخفى وجهى من
وجوه الناس .. تصور ان العجرية أم البنيت التى تحبه .. طلبت منه أن يمشى وراءها فى
الشوارع ويحمل القفة على رأسه .. وكلما نادى عليها أحد لكى ترى له البخت .. أنزل هو
القفة ليخرج منها كيس الرمل وتضرب الودع .. ثم تتركه إلى جوار القفة وتذهب إلى
البيوت وتسرق وتخطف وتطلب إليه أن يحمل القفة .. وإذا سألها الناس من هذا الولد
تقول لهم زوج بنتى .. أنا لم أر ذلك وإلا كنت سقطت ميتة .. أخته هى التى قالت لى
ذلك .. ولم تجرؤ أن تقول له حتى لا يغضب منها .. ولما سألت أخته عن السبب وهى
موضع سره قال لها . أريد أن أترك مصر وأسافر معهم إلى ألمانيا وفرنسا والهند .. وإنه
يريد أن تكون له عائلة من الغجر .. وتكون له خيمة ويكون هو كبير العائلة ويكون هو

الطبيب والعمدة .. هو الذى قال لها كل هذه الحكايات .. ولما قالت له وهل تترك أمى .. قال لها : ماما سوف تكون معى .. أنا لن أعمل ذلك إلا عندما أكبر .. ولكن الآن أريد أن أذاكر وأن أنجح وأن أكون وزيرًا ، كما تريد ماما .. وبعد أن أكون وزيرًا أترك مصر وأعيش فى جبال الهند وسط مملكة الغجر .. الكلام ده من أين يأتى به .. هل هو موجود فى الكتب ..

قال والدى وهو يضحك أبدًا .. أنا عمرى ما قرأت ولا سمعت عن هؤلاء الغجر ..
وقالت له أمى : لماذا لا تأخذه إلى أحد الأطباء ..

- الولد ليس مريضًا .. إنه صغير يتخيل .. ويريد أن يعرف .. أن يكون شيئًا .. ولكن ظروفه لا تساعد .. إنه مختلف عن بقية الأولاد .. الفرق بينه وبين الأولاد الذين فى مثل سنه .. إنهم مثل الفراخ وهو مثل الحمام .. هو يطير ولكنهم لا يطرون .. هم يمشون تحت وهو يمشى فوق . ونحن لا نقول إن الحمام مريض لأنه لا يمشى على الأرض .. ولا نقول عن الفراخ إنها مريضة لأنها لا تطير فوق الشجر .. إنها مختلفة .. وكذلك ابننا مختلف .. إنه يحفظ القرآن الكريم وهو طفل .. وهو يحفظ مئات أبيات الشعر .. إنه مختلف .. وهو طيب .. فاضل .. خجول . مؤدب .. ترفقى به .. لا تخافى عليه ..

وارتفع صوت أمى فى فزع وهى تقول لوالدى : ومنذ أيام كان وهو نائم ينادى البنات مقصوفة الرقبة .

- من هى ..

- الغجرية التى تحبه وتريد أن تتزوجه ..

- اسمها زؤيه .

- وهو نائم ؟

- نعم ..

- كان مريضًا ؟

- كان مجنونًا ..

- طبيعى أن يهلوس أى إنسان وهو نائم .. ومن الممكن أن يذكر أى اسم .. ينادى

أقرب الناس إليه . والده .. أمه .. حتى الكلب إذا كان عنده كلب . سوف أتى له بكلب ..
وسوف أعلمه كيف يهتم به وينظف مكانه .. اتركه يعمل ما يحب .. إنه في عزله شديدة
إنه لا يجد أحدًا له نفس الاهتمامات من زملائه أو جيرانه أو أقاربه .. لا تخافى عليه .. أنا
شخصيًا لست خائفًا ..

وصمت طويل .. واستدرت لكى أنام . عندما وجدت والدى يضحك ويسأل وأين
وجدت هذا ؟

- وجدتته في ملابسه ..

- إنه خطاب كتبه إلى جده ! إنه يعتقد أن الموتى ينهضون من نومهم ليلاً ويتحدثون
إلى الناس ويقرأون الخطابات ..

- ماذا يقول ؟

- إنه يسأله رأيه في زؤيه وهل يتزوجها .. ويقول له إنه يحبها . ولكنها تريده أن
يسرق .. وأن يتعلم قراءة الفنجان والكف والودع .. وأنه لا يريد ذلك ولا يحب إلا القراءة ..
وأنه لا يستطيع أن يكذب لأنه قد حفظ القرآن .. وأنه لا يسرق لأن هذا حرام .. ثم إنه لا
يريد أن يتزوجها وإنما فقط أن يعيش معها وأن يسافر بعيدًا .. ويطلب إلى جده ويرجوه
أن يظهر لك في المنام لكى يقنعك أنت إنه لا يستطيع أن يكلمك في هذا الموضوع .. ثم يقول
لجده وإذا أنت لم تظهر لى في أى منام هذا الأسبوع ، فمعنى ذلك أنك ترفض زواجى من
زؤيه والحياة معها .. وإنك لم تستطع أن تقنع ماما ..

- سلامتك يا ابنى يا حبيبى .. يا أحب إخوانك وأطيبهم .. كله حنية .. ربنا يحل عقده
وينتشله من الضيق الذى يعانیه . يارب يا كريم ..

- لا تخافى .

- ربنا كبير .

.. . .

.. . .

.. وأنا بعد ذلك نمت ! .

امتلات حياتى بالأشياء المخيفة . أو العلاقات المخيفة .. أو الأوهام المخيفة ..
فأكبر الكلمات انتشارًا فى حياتى واستقرارا فى نفسى هى كلمة · الخوف ..
فالدليل مخيف . ويبدأ الخوف قبل الغروب مباشرة .. ولذلك يجب ألا أمشى فى
الشارع .. فإذا جاء الليل واجهناه بالأبواب المغلقة والنوافذ المحكمة .. ثم حشرنا الورق أو
القماش أو القطن فى الفتحات الصغيرة بالنوافذ .. أو الانصات الشديد لكل صوت يجىء
من أى مكان .. صوت صرصار يمشى على الورق .. يكون له دوى .. وصوت وراء النافذة
وصوت فوق السطوح ..

وأحيانًا أسأل أمى : ما هذا ؟

فتقول لى · غط وجهك .. نم ! .

وأحيانًا تقول لى . إنه ثعلب يطارد عرسة . أو انها بعض الفئران ..

وتكون هذه إجابات قاطعة واضحة ولكنها ليست مريحة ..

وفى إحدى المرات سمعت شيئًا وقع أو انكسر أو خناقة .. وصراخًا واحدًا يضرب ابنه

الصغير . فأسأل أمى :

ماذا فعل حتى ضربوه ؟

- من هم الذين ضربوه ..

- إنه يبكى ..

- لا أحد يبكى يا حبيبى ..

- ولكنى سمعت صوت طفل يبكى لابد أن أحداً قد ضربه .. ماذا فعل .. لكى يضربوه

في هذه الساعة من الليل ؟

- لا أحد .. انت تحلم !

.. ولكنى متأكد ..

- لا أحد .. أنت تحلم !

ولكن لا أجد تفسيراً لهذه الأصوات القوية الواضحة التى أسمعها فى الليلة الواحدة

عدة مرات ..

وفى إحدى الليالى ولم يكن ذلك وهماً . وإنما كل شىء واضح تماماً . فأننا لم أنم

وفجأة سمعنا شيئاً يسقط من فوق السطوح .. واضح تماماً .. وبعد ذلك تعالت أصوات

الدجاج .. ثم سكت .. وبعد ذلك تعالت أصوات الدجاج وسمعت أحداً يتكلم .. ونظرت إلى

أمى فوجدتها تنصت هى الأخرى . وسمعت أحداً يتكلم .. وأصواتها أخرى لا أتبينها .

وأنظر إلى أمى إنها هى الأخرى تسمع ولا تقول شيئاً . وظهر الضيق على

وجهها . والحزن وطلبت منى أن أنام .. وسألتها ما هذا ؟

قالت : إنه فكرى ؟

- من هو فكرى .

- زميلك فى المدرسة ..

- وماذا يعمل عندنا ..

- يسرق الدجاج ..

- لماذا ؟

- ضع الغطاء على رأسك يا ولدى .. الصبح لى عينان .. سوف أحدثك عن كل ذلك

فيما بعد .. لم أفهم . ولا سألت أمى . وإن كنت قد حاولت أن أعرف معنى ذلك بنفسى ..

أما فى ليالى الشتاء فهى العذاب نفسه . فالهواء له صوت تحت الباب وتحت النافذة فى

أغصان الشجر .. وللكلاب والذئاب صوت فى السوجل والطين .. وللناس أيضاً .. وفى ليالى

الشتاء تتساقط الأشياء فى البيت وخارج البيت .. وكل ذلك يحدث أصواتاً متداخلة مفزعة

غامضة ..

فلا يكاد يظهر ضوء الشمس حتى تستقبله بفتح النوافذ .. أو إطفاء المصابيح في البيت .. ومع الشمس يتبدد الظلام الذى هو الخوف .. وتختفى الأصوات الغريبة .. وتغرق الدنيا في حشد من أصوات الحياة اليومية .. الطيور وأصوات العربات والسيارات والراديو والنداءات .. وبكاء الأطفال وزعيق الآباء والأمهات .. وأصوات بوابير الجاز والحنفيات . مع ظهور الشمس تمتلئ الدنيا أضواء وضوضاء وشعوراً بالأمان .. وهناك الخوف من الناس . كل الناس مخيفون .. كل الناس يعطلون عن القراءة . والدراسة والتفوق والنجاح . كل الامهات تحسد الأولاد الطيبين المنشغلين بكتبهم فقط .. والذى عندها بنات تحسد من عندها أولاد .. والذى عندها أولاد كثيرون تحسد من لديها اثنان فقط .. والذى أولادها مهملون تحسد كل تلميذ مجتهد مثل .. وهذا تفسير مرضى أو إصابتي بالسخونة بعد كل زيارة من جارة من جاراتنا . والكتب التى فيها صور ضارة جداً إنها تشغل عن الكتب المدرسية . ومادامت فيها صور ففيها حكايات وكلام فارغ . ولكن ما هو الكلام الفارغ أنه أى كلام ليس مفيداً .. أى ليس نوراً .. أما الكتب التى تظهر عليها وجوه أو صور بنات فهى المصيبة الكبرى .. وهى وحدها التى سوف تضيع مستقبلي .. وأمى لا تمل من ذكر هذه القصة بألف طريقة .. فقد تضايق والذى من أن واحداً من إخوتى الأكبر سناً كان لا ينجح فى دراسته . مع إنه إنسان ذكى وطيب . وقد سمع من المدرسين وخصوصاً ناظر المدرسة أن أخى هذ يلعب كثيراً . ومادام هكذا يهتم بمظهره الخارجى إذن فهو يضيع وقته مع البنات - طبعاً لم أفهم أن يضيع وقته مع البنات .. يعنى ما الذى يعمله مع البنات سألت أمى . فاكفهر وجهها وزغدتنى ولم تشأ أن تقول شيئاً . وفى يوم من الأيام راح والذى يفتش فى ملابس أخى الأكبر ثم يشمها .. ويفتش فى كتبه ثم يشمها .. وعندما فتش بين المراتب وجد عدداً كبيراً من صور البنات وخطابات كتبها للبنات وكتبتها البنات له .. ولم أفصح فى أن أفهم معنى هذا الذى رأيت . ولا جرؤت أن أسأل أمى . ولا حتى أن أسأل والذى .. صور لبنات .. وخطابات لبنات ومن بنات وتؤدى كلها إلى سقوطه فى المدرسة .. ويفكر والذى فى أن يمنعه من الذهاب إلى المدرسة ويبحث له عن عمل . مادام بليداً هكذا فى المدرسة ..

وانظر إلى أختي فلا أفهم .. وإلى والدي فهو غاضب وإلى والدتي فهي شديدة الفزع .. وفي كل مرة تحكي هذه الحكاية تضع يدها على أذني كأنها لا تريدني أن أسمعها .. هي التي تحكي لي الحكاية وهي التي تريدني ألا أسمعها وهي في نفس الوقت لا تتوقف عن حكايتها .. كأنها تطلق قنابل ، وتريد أن أسمع جانباً منها .. لا كل هذه الحكاية .. أو كأنها تخشى على أذني أو على عقلي أن يصاب بالارتجاج .. ولكنها لا تكف عن هذه الحكاية .

لا كل البنات .. لأنها تطلب مني أن أجلس مع فلانة وأن اتعلم منها .. ولا بد أن تكون فلانة هذه مسيحية .. أو أكبر مني في السن .. أو في مثل سن أمي . ولا أعرف معنى ذلك ولا عندي وقت لكي أفكر حتى لو رغبت في ذلك .. سألتني أمي : ماذا كانت تقول لك فكتوريا ؟
- فكتوريا أخت ميشيل ؟
- نعم .؟

- إنها تقول إنها عندما تكبر وتتزوج سوف يكون لها ابن اسمه أنيس .. وسوف تجعله مطيعاً مثلي محباً للقراءة مؤدباً ..
- هي تتكلم عن الزواج ..
- وتقول إنها تتزوج واحداً مسلماً ..
- وهي قالت ذلك .. كيف .. وما الذي جعلها تقول لك ذلك . لا تجلس معها بعد اليوم !!
قليلة الأدب ؟

إن أمي كانت تمتدح أدبها ورقتها وجمالها .. وفجأة أصبحت كالعقرب يجب ألا أكلمها وألا أذكر اسمها ..

وفي يوم قالت لي : يا ابني اسأل عن فكتوريا .. أنت عارف إنها طيبة ومؤدبة وتحبك اسأل عليها وقل لها ماما سوف تجيء لزيارتك اليوم !.
وقبل أن أتساءل وأستوضح عن هذا التغيير - وإن كنت أحب أن أراها وأن أجلس إليها .. قالت لي أمي ويمكن تلاقى هناك خطيبها إنه شاب جميل وغنى جداً .. وسوف

يتزوجان قريباً ..

حتى صديقى عزيز الذى كان يجىء إلى البيت وتدعوه أمى إلى أن يبقى وأن يبيت
عندنا لكى نتحدث ونتسلى .. هو الآخر حذرتنى أمى منه هكذا :

- أنت تعرف اننى أحبك .

- نعم .

- وأنا ليس لى فى الدنيا غيرك .

- نعم .

.. وأنا أعرف أكثر منك ..

- نعم ..

- وكل حاجة قلت لك عليها إنها غلط .. ثبت بعد ذلك انها غلط .

- صحيح .

- وأنا لما قلت لك إن عزيز طيب وابن حلال ومؤدب . وزى البنت فى كلامه وقعوده ..

وقلت لك إنه أحسن من كل زملائك ..

- نعم .

- لكن عزيز يا ابنى لانه مدلل غنى جداً .. لا أعرف من الذى علمه السجائر .. هناك

اناس كثيرون رأوه وهو يدخن .. بل إنه يذهب إلى المقاهى .. وهناك اناس يقسمون بالله

العظيم إنهم وجدوه فى السينما مع تلميذة .. ولما رآه أقاربه هرب من السينما .. وفى مرة

من المرات جاء أقارب التلميذة وضربوها علقه .. وطاردوا عزيز .. وضربوه على دماغه ..

حتى سال دمه .. أنا يا حبيبي أريدك أن تبعد عن عزيز .

- حاضر يا ماما .. يعنى أعمل إيه .. لا أكلمه ؟ .

- نعم .

- ولا كلمة ؟

- يعنى إذا قال لك : إزيك قل له : كويس ..

- وإذا حاول أن يسألنى عنك ؟

- قل له كويسة .

- وإذا قال لماذا لا أكلمه ولماذا لا أحب أن أمشى معه في طريقنا إلى المدرسة أو إلى

البيت فماذا أقول له ..

- قل له إنك مستعجل ..

- وإذا أصر أنه يمشى معي ؟

- اتركه وامش لوحدك .

ولكن أمي تعود فتقول لي : يعنى تكلم معه ولكن ليس كثيراً . وإذا قال لك إنه سوف

يذهب إلى المقهى وأنه يدعوك إلى هناك فرفض تماماً .. إلا المقهى يا ولدى !.

ولا أنكر أن أمي طلبت مني في يوم من الأيام أن أتوضأ أو أصلى ولا حتى أن أصوم ..

فقد كانت تندهش كيف اننى حريص على الصلاة وعلى الصوم .. إنها تخشى أن أكون

مثل عمي الذي هو أستاذ في الأزهر .. أو أن أكون شيخاً في مسجد .. إن في رأسها صورة

لمستقبلي .. هذه الصورة تعلقها في خيالها على قصور وعلى حدائق وكأنها تحمل هذه

الصورة في يديها ليلاً ونهاراً .. وتنظر إليها ثم تنظر إلى .. وكلما وجدتني أبعد عن هذه

الصورة ، فإنها تنزعج .. وكأن هذه الصورة في برواز ثمين جداً ولها غطاء زجاجي

تخاف أن ينكسر ..

ولم أجد أمي تشجعني على قراءة الكتب .. فقط الكتب المدرسية ..

وتخاف من اهتمامي بالشعر .. الذي ترى أنه السبب الحقيقي في أن والدي يضيع

وقته مع الناس يحكى لهم ويلتفون حوله .. ثم إنه رغم إنه محبوب من كل الناس ليس

أغنى الناس .. فالشعر والأدب والكتب لا فائدة منها وهي سبب الفقر .. بل الناس جميعاً

هم سبب الفقر .. والبعد عن الناس هو المكسب الحقيقي !.

وفي كل مرة يجيء عمي إلى البيت وهو رجل لطيف رقيق .. كلامه حلو .. وتمنياته

سخيه .. وهو يرى اننى سوف أكون شيئاً هاماً إننى مستقيم ولأنى جاد وأحب القراءة ..

في كل مرة يجيء فإن والدتي تخترع شيئاً يبعدني عن البيت .. حتى لا أجلس إليه ..

وحتى لا أسمع إلى ما يقول وحتى لا يقنعني بأن أكون شيخاً أزهرياً .. وفي إحدى المرات

جاء عمى فوجدنى نائماً فى الفراش . هو جاء مبكراً .. دق بابنا بعد صلاة الفجر لانه كان على سفر .. وسمعته يقول لوالدى . أين هو ؟
- نائم ..

ودار همس وكلام بين والدى ووالدى .. وإذا بها تجيء وتهمس فى أذنى . تظاهر بالمرض .. لا تترك الفراش .. إياك !

وظللت فى الفراش .. وجاء عمى ليسأل عن صحتى . وكانت أمى هى التى تقول إننى غير قادر على الكلام فعندى التهاب حاد فى حلقى .. والدكاترة منعونى من النزول من السرير والكلام والذهاب إلى المدرسة .. وإننى لم أنم طول الليل .. وكنت على وشك النوم . ومعنى ذلك إنه من الواجب أن يتركنى لكى أنام .. ويخرج فوراً من الغرفة .. وخرج الرجل وهو لا يعرف الحقيقة !

ومن أهم الأحداث التى أفزعت حياتى كلها .. وجعلت أمى تلزم الفراش بلا طعام ولا دواء فقد جاء بمحض الصدفة ، وعن غير قصد منى .. ولم أتنبه إلى معنى ما حدث .. ولا أمى قالت لى شيئاً . ولأنها أرسلت خطاباً لوالدى لأول مرة .. وتطلب إليه ضرورة الحضور فوراً . وأن يترك كل شىء ليرى ماذا حدث لى وماذا سوف يحدث لى فى المستقبل .

ولم أكن أتصور أن أمى لديها هذه المقدرة الفائقة على استدعاء الناس وحشدهم معها فى صف واحد .. فقد جاءت جدتى .. وجاءت خالتى وخالى .. وجاء أحد أقاربها وكان وكيلاً للوزارة . وجاء ابن خالتها وكان ناظراً للمدرسة .. وجاء طبيب كان يعالجها وهو من أقاربها أيضاً ..

ثم جاء والدى فى حالة من الفزع ..

أما الفزع الأكبر فهو الذى أصابنى فأمى مرضت فجأة . وهى تنظر لى فى حالة من الخوف .. كأننى سوف أموت حالاً .. أو كأنى ميت .. فهى تقترب منى وتضع يدها على وجهى .. وعلى رقبتى ولا تقول شيئاً وتبكى ..

وكل واحد يدخل البيت الذى ضاق عن كل الناس يتعمد أن يقترب منى ويبتسم ثم

- يضع يده على رأسى ولا يقول شيئاً...
- وأمام الجميع طلبت منى أمى أن أقول لهم ماذا حدث . وكيف حدث ، وكان والدى هو أول من تكلم .
- ماذا حدث ؟ يا ولدى .
- لا شىء .. إنهم قالوا لى تعالى معنا .. وذهبت معهم .
- أمى تصرخ . كم مرة ؟
- كثيراً جداً ..
- ولم يقل لى .. تصور لم يقل لى ولا مرة واحدة ..
- وماذا حدث يا ولدى ؟
- لا شىء .. إنهم اناس كثيرون رجال ونساء .
- وأنت كنت تصلى مثلهم .
- لا .
- ماذا كنت تفعل ؟
- فقط أجلس فى آخر الصف وأتفرج فقط ..
- ولا أحد طلب إليك أن تصلى فى الكنيسة .
- لا .
- إذن لماذا كنت تذهب معهم ؟
- إنهم أصحابى .. وبدلاً من أن أقف أمام الكنيسة فإننى أدخل وأجلس فى آخر صف فى انتظارهم .
- لم يطلب إليك أحد أن تصلى مثلهم .
- أبداً ..
- ومنذ متى وأنت تذهب إلى كنيسة المسيحيين ..
- من زمان ..
- ولماذا لم تقل لماما ؟

- نسيت .
- وخرجت والدتى وهى تقول : هناك ما هو أفضح .. قل له .. قل له .
- سألنى والدى : ماذا فعلت ؟
- لم أفعل شيئاً
- والدتى تقول . إنه ذهب إلى كنيسة اليهود .. يا مصيبتى .. يا مصيبتى !
- والدى يسألنى : وذهبت إلى كنيسة اليهود ؟
- نعم .
- وهناك ماذا فعلت ؟
- وقفت فى آخر الكنيسة وتفرجت عليهم وهم يصلون .
- ولم يطلب إليك أحد أن تصلى مثلهم ؟
- لا .
- لا أحد ..
- ومنذ متى ؟
- من زمان .
- ولم تقل لماما ؟
- لا ..
- ولكن أنت متأكد أن أحداً من رجال الدين قد تكلم معك .. أو قدم لك هدية .. أو أعطاك كتباً ..
- نعم أعطونى بعض الكتب .. بلغة لا أعرفها ..
- أمى : وهذه الكتب موجودة هنا فى البيت .. أرمها فى الشارع !.
- ارمى الكتب ؟
- نعم .. وتحرقها أيضاً . قبل أن تحرق البيت !
- وأمى تبكى وتنظر إلى كل الحاضرين . قالوا لى اعمل إيه كيف أعيش بعد اليوم ..
- والولد اللى حيلتى عاوزين يكفروه .. عاوزين يغيروا دينه ..

ويحاول والدى أن يقنعها أو يفهمها . ولكن أمى لا تريد أن تقتنع . . ووجدتني خارج
الغرفة .. خارج البيت . وأخذنى خالى من يدى .. وذهبنا إلى المطاعم وراح يحكى لى
حكايات ويسألنى : ألم تكذب على بابا وماما ؟

- أنا لا أكذب .

- إذا كان فيه حاجة قل لى أنا ..

- لا شيء !.

- انت عارف ان ماما خايقة يكون النصرارى واليهود قد غيروا دينك . انت تعرف
شوقى سليمان .. فقد اقنعوه بأن يترك دينه .. فما كان من أهله إلا أن قتلوه ..

- شوقى قتلوه ؟

- نعم .

- شوقى سليمان قتلوه ..؟

- نعم .

- أبدأ . شوقى لم يقتلوه إنه حى .. لقد رأيتاه بالأمس فى المكتبة .. وتحدثت إليه .. لقد
أدخلوه الأزهر ..

- ولكن ماما تقول إنهم قتلوه ..

- أبدأ .. إنه لم يغير دينه .. لا أحد قد غير دينه . لقد رأيتاه وقد ارتدى الجبة والقفطان
وشكله ظريف .. وأصبح إنساناً مختلفاً تماماً ..

- إياك أن تذكر لوالدتك شيئاً من ذلك .. إنها تقصد أنهم قتلوه .. يمكن لأنها لا تريدك
أن تراه فهى تخاف أن تذهب إلى الأزهر .. ولذلك فهى تؤكد انه مات .. أو يجب أن يموت ..
أنا أصدق كل كلمة أنت تقولها .. وأنا أعرف انك لا تكذب .. هل طلب منك أحداً أن تغير
دينك ؟

- أبدأ ..

- أبدأ ؟

- أبدأ

- خلاص .. أنا مصدقك . وأنا سوف أتولى إقناع والدتك هيا بنا ..
وبهذه الحادثة دخلت في دوامة .. دوخة .. استمرت سنوات ولا أعرف كيف أخرج
منها .. وأصبح موقف أمى صعباً جداً .. فالناس الذين أحبهم تريدنى أن أبعد عنهم ..
ولكن الناس لا يبعدون . إنهم لا يفهمون . وكلما حاولوا أن يعودوا إلينا ، ازداد شكها
وخوفها وفزعها .

ولكن أمى استراحت عندما جاءتها مدام بركات تقول لها : فى الدين اليهودى .. لابد أن
يكون الأب والأم يهوديين .. إن أحداً لا يدخل ديننا .. ونحن لا نحب أى واحد من الأديان
الأخرى يدخل ديننا .. فديننا لنا نحن فقط ! .

وبسرعة أشرق وجه أمى فقد كانت تصدق مدام بركات .. وأيقنت أن مدام بركات
وابنها وغيرها من اليهود لا يحاولون أن يدخلوا أحدًا دينهم ! .

وفى عيد ميلادى الذى أصرت الست أم جورج على إحيائه فى بيتنا ولأول مرة .. فقد
أصر أولادها جميعاً على ذلك .. على إصلاح ما بيننا .. أو ظناً منهم اننى أتمنى أن يكون لى
عيد ميلاد .. ولكنى لا أستطيع .. أو أن أمى لا تريد ذلك . لأن والدى ليس هناك .. أو لأى
سبب آخر لا أعرفه ..

وكان كل شىء جديداً .. التورته .. وبعض السندوتشات الصغيرة .. والشموع
والترابيزة والوقوف حولها .. وكلمات هابى برثداى .. كل ذلك لم أره من قبل ..

وأعجب من كل ذلك .. ان الجميع جاءوا وقبلونى .. ولم أعرف ما الذى أفعله رداً على
ذلك .. حتى البنات . وأحمر وجهى .. وجاء العرق من كل مكان .. وراح قلبى يدق .. يكاد
يخرج من ضلوعى .. ودارت الأرض بى .. واعتقد اننى غرقت فى ضباب .. واعتقد اننى
تساندت على الست أم جورج فقبلتنى مرة أخرى .. ودخت .. ودارت الأرض من اليمين
إلى الشمال ثم عادت تدور من فوق إلى تحت .. الأرض والسقف ..

كم مضى من الوقت كى أفيق .. لا أعرف ..

ولكنى وجدتنى جالساً . وفى يدى طبق وشوكة وسكينه . وسمعت .. وكان الصوت
مثل الضباب غامضاً .. وكان الصوت مرتجفاً .. كأنه صوت لواحد فوق السطوح ينادى
واحداً فى الشارع .. أو كأن اثنين يطلان من نافذتين .. وكل واحد يزعم بأعلى صوته

يحاول أن يكون واضحاً .. ولكن أحدهما يقول للآخر : مش سامع .. وواحد ثان يقول له . قطعت نفسى . إن شاء الله ما سمعت ..

كم مضى من الوقت لينقشع الضباب .. وتظهر الصور واضحة .. والوجوه .. والابتسامات والملابس .. وسمعت الست أم أم جورج تقول لى : الولد ضعيف جداً ياست أم صلاح (والدتى) يظهر انه يذاكر كثيراً ويأكل قليلاً ..

ويبدو أن هناك حكاية كانت ترويها الست أم جورج لوالدتى .. ولم تكملها .. ثم قالت لها : دائماً الشخص الذى يغير دينه يكون قليل الذمة . ونحن لا نحترم من يغير دينه .. المسلم إذا غير دينه .. والمسيحى إذا غير دينه .. وننظر إليه باحتقار .. لأن الذى يغير دينه يغير ذمته .. ويكذب ويخون ولا أمان له ..

كانت هذه الكلمات وحدها إفراجاً عاماً .. فقد سعدت أمى بها تماماً .. فلا أحد دعانى أو أقنعتنى أو حاول أن يغير دينى ..

وكان ذلك اليوم عيد ميلاد حقيقياً لى وللعلاقة الجديدة بينى وبين أمى .. وكان من عاداتها بعد ذلك أن تقول : أنا متأكدة انك لاتكذب .. وانك لم تكذب فى كل الذى قلته عن زهابك للكنيسة مع أصحابك .. أنا متأكدة .. طول عمرك ياولدى لم تكذب .. ولن تكذب .

- حاضر ياماما ..

- ربنا يفتح عليك ياولدى .. وربنا يكرمك .. ويكرمنى بك ..

ولم تكن صدمة كبيرة لوالدتى عندما وجدت قسيسا يدق الباب يسأل عن صحتى .. ولم تعرف أمى ما الذى يمكن أن تفعله .. هل تكلمه من وراء الباب .. هل تدعوه إلى الدخول ..

ولكنه أدرك ذلك بسرعة فقال لها : إنما أردت أن أطمئن عليه .. فهو منذ فترة طويلة لم يتردد على المدرسة ليكمل دراسته للغة الإيطالية ..

إننى أدرس اللغة الإيطالية والألمانية واليونانية والعبرية .. وكل الذين يعلموننا هذه اللغات من رجال الدين . وهم اناس طيبون وفى غاية الصفاء والنقاء ..

وقالت أمى : إننى أصدقك ياولدى .. ربنا يفتح عليك .. ويثبت إيمانك ويحميك بدينك وفى القرآن الذى حفظته .. إننى أصدقك ياولدى ..

اندهش جدًا عندما يقول زملائي . بيتنا .. شارعنا .. بلدنا ..
 والاحظ أنني أقول دائماً : فى البيت .. فى الشارع .. هنا فى هذا البلد ..
 واندهش وأتعجب عندما أسمع الواحد منهم يقول : سريرى .. كتبى .. أفكارى ..
 حمامى .. مصروفى .. مستقبلى ..
 وأنا أقول . السرير .. الكتب .. الحمام ..
 ولا أعرف معنى المصروف ولا أى معنى للمستقبل ..
 ولا أفهم لماذا يندفع بعض الشبان يهاجمون شباباً آخرين لأنهم يعاكسون فتاة .
 يصفونها بأنها من شارعنا .. أو بنت الحتة .. فقط لأنها من الشارع الذى يسكنون فيه ..
 أو هى تسكن فى نفس البيت أو البيت المجاور له ..
 فعندى هذا الإحساس : أنني لا أملك شيئاً .. وأنه لا يوجد لى شىء خاص ..
 فلأننا ننتقل من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد .. فإننى لم أستطع أن أصف مكاتاً
 بأنه مكانى .. أو بلدى .. أو بيتى .. أو جارى .. أو أهلى . أو عائلتى ..
 ولا قلت ما يقوله زملائي : فلان أوحشنى فذهبت إليه .. أو فلان من مدة لم نره فلا بد
 أن نسأل عنه .. أو أنه مريض يجب أن نحمل له هدية .. أو باقة ورد ..
 أو أسمع أحداً يقول : كيف تحتفلون ولا تدعوننا ..
 أو من يقول . كيف تذهب بالقميص والبنطلون .. وكيف تكون الكرافطة قاتمة وأنت
 تعرف انهم فى حالة حداد ..

فما هذا الذى يقولون .. وما هذه العلاقات بين الناس .. أو بين الناس والأشياء ..
الأكل والشرب والسرير والحمام والشارع ..

لقد استمعت إلى الست أم جورج وهى تقول لوالدتى : بعد أن أخذت حمامى وشربت
قهوتى ..

ما معنى حمامها وما معنى قهوتها ..

وفى إحدى المرات عندما زرت الست أم جورج ووجدتها تشرب القهوة سألتها : وهذه
قهوتك ..

فأجابت : نعم .. إنها الرابع مرة ..

- وهل هى من نفس البن الذى تقدمينه للضيوف .

- طبعاً .. أحسن بن .. الله يضحكك .. وهل أقدم للضيوف غير الذى أشربه أنا ..

لم أفهم معنى أن تكون لها قهوة خاصة .

ولكنه تأكيد لكل ما هو شخصى ..

تأكيد للامتلاك .. وتأكيد للذات ..

وعندما سمعت من أحد زملائى أنه عادة يدخل غرفة والده ويختار أحسن قميص
وأحسن جورب وأحسن منديل .. أى أنه يرتدى قمصان والده وجواربه .. ووالده يعلم
ذلك .. ووالدته أيضاً .. ولكن أحداً لا يضربه .. أو يحرمه من الطعام أو يحبسه فى البيت ..
أو يعاقبه بعدم الذهاب إلى المدرسة أو يقطع عنه المصروف ..

وقد ذهبت هذه المعانى الغريبة إلى جوانب شتى من نفسى .. واستقرت أو حاولت ..
ولكن لا شىء من ذلك يمكن أن أفعله أو أقلده ..

مرة واحدة .. ذهبت إلى المدرسة وقد وضعت فى قدمى حذاء لواحد من إخوتى الكبار ..
وكان الحذاء كبيراً جداً .. ولفنت نظر زملائى فى المدرسة .. وكانوا يتضحكون سراً وعلناً ..
ولاحظت فعلاً أن قدمى لا تستقر فى الحذاء .. وأنى لا أعرف كيف أمشى .. وهم الذين
نبهونى إلى ذلك .

ولاحظت أنى قد كتبت اسمى على كل الكتب التى فى البيت .. كل الكتب .. ولكن عندما

أشير إلى هذه الكتب فأنتى أقول .. الكتب .. الكتب التى فى البيت .. ولا أقول كتبى التى فى بيتنا .. أو فى بيتى ..

فكاننى قد وضعت اسمى عليها تأكيداً سرياً لملكيتها .. تأكيداً سرياً لى أنا .. وأننى فعلت ذلك لا شعورياً ..

ولاحظت أن الكتب التى استعيرها من زملائى ومن المكتبة العامة لبضعة أيام ، فإننى أكتب اسمى عليها !؟

ونبهنى أحد إلى أن خطى جميل .. وكنت أكتب بالنسخ .. وكان والسدى يكتب بالخط الفارسى البديع .. وكان ذلك اكتشافاً . فكنت استخدم القلم الرصاص .. وبعد ذلك استخدم الموس فى تفريغ الخطوط على الورق .. ثم وضع الورق المفضض تحت الخط .. وكنت أتطوع بإعطاء هذه اللافتات لمحات البقالة .. أكتب اسم المحل واسم صاحبه .. ثم اخترعت لنفسى شيئاً جديداً ..

كنت أكتب اسمى على الورق الكرتونى .. وأفرغه .. ثم آخذ الكرتون بعد ذلك .. وأضعه على الحائط أو على الباب .. واملاً الفراغ بالبوية .. وكان اسمى مكتوباً على الجدران والأبواب لماذا ؟ لا سبب ..

ويبدو إننى وجدت عذراً لكتابة هذا الاسم فكنت أكتب اللافتات على الشوارع هكذا : اطلبوا صلاح الخطاط .

أى إننى خطاط ومطلوب من الناس أن يجيئوا لى أكتب لهم هذه اللافتات .. وفى يوم زارنا أحد أقاربنا ووجد لافتة كبيرة على باب البيت وسأل . من صلاح الخطاط ..

فقيل له : إنه أنا ..

- وهل أنت خطاط ؟

- لا .

- إذن ؟

- إننى أكتب اسمى والسلام .

فضحك الرجل ولم يقل شيئاً . وكان ذلك الصمت معناه أن الذى أعمله لا معنى له .
فلا أنا خطاط ولا أعرف ما الذى يمكن عمله إذا جاءنى أحد يطلب لافتة من القماش أو من
الخشب على الدكان أو عربة فول أو ترمس ..

ولكن المعنى هو اننى أعلن عن نفسى وعن امتيازى عن الآخرين .. واننى لم أكن أملك
شيئاً ، فأملك اسمى بهذه الصورة الجميلة .. وحتى لا يكون اسمى لا مبرر لوجوده على
الجدران ، فقد توهمت اننى خطاط محترف .. واننى أدعو الناس لأن يستفيدوا من
خدماتى ..

ولا شعورياً أصبح خطى رديئاً جداً .. سريعاً ملتويًا منكسرًا ومن الصعب قراءته ..
وأحياناً لا أعرف كيف أقرأ خطى ا .

ولم أفهم ما الذى كان يقصده مدرس اللغة العربية الشيخ الدخيمس وكان معممًا
طويلاً عريضاً وبكرش عندما قال لى : العظمة لله يا صاحب الجلالة .. انت فاكر نفسك
إيه .. اقعد .. اترزع ! .

وتضحك زملائى فى الفصل ..

فقد لاحظ المدرس أن قلمى تدحرج من تحت المكتب إلى بعيد .. وسأل : قلم من هذا
فقلت : إنه قلمنا .

- قلمنا ؟ ماذا تقصد ؟

فقلت : قلمنا .

- لا أفهم .. هل هو قلمك ؟

- نعم .

- ولماذا لا تقول قلمى .. سبحان الله .. ما هذه العظمة .. فاكر نفسك ملكاً .. قلمنا؟!
وهذه كراستنا ! .

ونظر إلى الطلبة فقالوا له : إنه عادة يقول ذلك ..

ثم التفت ناحيتى وقال . قل قلمى .. كراستى .. جزمتى .. بدلتى ..

ووقفت أقول وراءه : قلمى .. كراستى .. جزمتى .. بدلتى ..

- ابن من أنت ؟

- ابن عم محمد منصور ؟

- نعم ؟

- ولماذا تقول ابن عم محمد منصور ؟

- الناس هكذا ينادون والدي ..

- انت أمرك غريب .. أمرك غريب يا ابني !

والتلامذة يضحكون ..

ثم التفت وقال لى . قل لوالدك إننى أريد أن أراه .. غداً .

قلت . غداً ؟ إنه ليس هنا .

- إذن بعد غد .

- ولا بعد غد ..

- مات ؟

وبكيت ولم أرد .. وضحك التلامذة . ولا أعرف كيف انتهت الحصاة .. ولكن وجدت

نفسى وحدى .. وقد خرج التلامذة من الفصل ومن المدرسة ..

وجاء الساعى ينظف الفصل فوجدنى نائماً ، وأيقظنى وهو يقول : يا ابني انت لا تنام

فى بيتكم .. مالك ؟ مريض ؟

وكان التلامذة قد انصرفوا من حوالى الساعة ..

ولم تلاحظ أمى اننى تأخرت .. ووجدت والدى فى البيت . ولم أكد أراه حتى عدت إلى

البكاء . وظن والدى أن بكائى من شدة التأثر عندما رأيته .. وكان قد غاب فترة أطول ..

واحتضنى وهو يقول . انت رجل .. والرجال لا يبكون .. ولا يخافون .. لا يخافون انت

رأيتنى كيف أقتل الذئب وأمسك الثعبان .. وأمشى فى الظلام وحدى .. وأنت رجل ! لقد

أتيت لك بعدد كبير من الكتب .. وكلها سوف تقرؤها لأنها سهلة وجميلة .. أنا قرأتها

كلها .. أتيت لك بكتاب (أدب الدنيا والدين) و (مقامات الحريري) .. وديوان (البهاء

زهير) وبعض أجزاء من (الأغاني) وبعض كتب الجاحظ وروايات الجيب وقصص

بوليسية التى تقول إنك تحبها .. وعدد من أقلام الرصاص والكراريس لكى تكتب فيها مذكراتك . وبمناسبة المذكرات التى تكتبها .. أنا قرأت بعضها .. حاول أن تكتب عن الناس .. عن غيرك .. لا تكتب طول الوقت عن نفسك .. وعن الذى تحس به أنت مع نفسك .. ولكن مع غيرك من الناس .. وإذا كتبت عن الناس لا تكتب وأنت زعلان منهم .. أو خائف منهم .. أكتب عن الصداقة وعن الحب الذى تكنه لهم ..

ثم سكت لحظة وقال لى . قل لى من الذى تحبه أكثر من أصدقائك ؟ وسكت . ثم عاد يسألنى . أى واحد منهم تفضله على الآخرين .. وسكت ولم أجد ما أقوله . فلم أفكر لحظة واحدة أن لى صديقاً أو أن واحداً منهم أحبه أكثر من الآخرين ..

فقلت له : أختى ..

وضحك والذى . ثم عاد يسألنى . طبعاً لا بد أن تحب أختك .. وأن تحب إخوتك أيضاً .. ولكن أسألك عن الصديق .. أنت لك أصدقاء كثيرون تخرج معهم وتتكلمون وتزورهم فى بيوتهم ويزورونك .. لا بد أن واحداً منهم أقرب إلى قلبك .. واحد تحب أن تراه كل يوم .. وإذا غاب عنك ذهبت إليه . وإذا مرض سألت عنه .. هل انت تحبهم جميعاً ؟ وسكت . ولم أقل شيئاً ..

وضحك والذى : فهمت انت تحبهم جميعاً . لا تستطيع أن تفرق بين هذا وذاك .. الله يبارك فىك يا ولدى .. فاعظم شىء فى الدنيا أن يكون للإنسان أصدقاء كثيرون .. هذا تزوره وهذا يزورك . وهذا تستريح إلى الجلوس معه .. وهذا تقرأ معه .. إن الأصدقاء أهم من الأشقاء .. وسوف تعرف عندما تكبر يا ولدى ؟

ولكن الحقيقة غير ذلك . فأنا لا أعرف لى صديقاً . إننى أشعر بالخوف من الأصدقاء ، فلا أكاد أرتبط بواحد .. حتى انفصل عنه بالسفر إلى بلد آخر .. فكأننى دون شعور منى ، لا أحرص على أن ارتبط بأحد ، حتى لا أتضايق عندما أبعده .. ولذلك فكل الأصدقاء زملاء .. وأسمائهم وصفاتهم كلها لا تعلق فى رأسى .. ولا أحب .. وإذا أحببت فأننى لا أستطيع .. وإذا مرض أحد فأننى لا أذهب إليه إلا إذا طلبت أمى ذلك .. ولو جاء واحد

منهم لزيارتى فإننى أندهش لذلك .. ولا أفهم لماذا يحرص الناس على هذه العلاقة ..
ولماذا يتصور الواحد منهم اننى سوف أغضب إذا لم يأت . أو سوف أفرح إذا جاء ..
ولا أعرف الفرق بين الأخ الشقيق والأخ غير الشقيق وبين الصديق والزميل والجار
والقريب .. وأبناء البيت الواحد والشارع الواحد والمدينة الواحدة . ما هذه المعانى ؟
وقد كان أقاربي يضحكون عندما كانت أمى تحكى لهم اننى فى يوم من الأيام عندما
كنت صغيراً سألتها . لماذا لا أتزوج أختى ؟

ولم أفهم معنى ذلك .. وإنما كانوا يضحكون وأنا أندهش لذلك .. وليس عندهم ما
يقولونه . ولكن والدى هو الذى تلا من القرآن آيات تحرم زواج الأخت والخالة والعممة
ويحرم زواجى من بنت أخى ومن بنت أختى ومن أمى طبعاً . وهذا هو الذى حرمه الله .
انتهى الموضوع . وأغلق الباب تماماً وتحول حبنى لأختى إلى معنى مختلف .. كيمياء
وتفاعلات غريبة وعميقة وفورية فى أعماقى وضعت أختى فى مكانها الطبيعى المعقول
دون أن أدري كيف حدث ذلك ..

أعجب شىء حدث هزنى وبهرنى وأذهلنى فى ذلك الوقت عندما مرض والدى . لم أره
مريضاً . ولكن وجدته ممداً فى السرير . شاحب الوجه ، يتصبب عرقاً . وكان والدى يؤكد
لى كلما رآنى . إنه من الطبيعى أن يمرض الإنسان .. وأن النبى — صلى الله عليه وسلم —
مرض . ومات وهو مريض . وكما لا بد أن يمرض الإنسان لا بد أن يموت أيضاً .. ولما رأى
أبى الفزع على وجهى قال . إن هذا المرض لن يجعلنى أموت .. إنها وعكة سوف تذهب إن
شاء الله !

وقررت ألا أذهب إلى المدرسة . ولكى يثبت لى إنه فى صحة جيدة .. نهض من الفراش
وأعد لنا الشاي .. وعلق صوراً على الحائط .. ونقل المائدة من مكانها . والمائدة من
الخشب الغليظ .. كل ذلك ليؤكد انه قوى وانه لا خوف عليه ..

وعندما فتحت الباب وجدت مدام بركات تحمل باقة من الورد .. ومن ورائها ابنتها
يحمل علبه بها حلويات ومن ورائهما الخادمة تحمل طعاماً .. عرفت فيما بعد انها
دجاجة مسلوقة وأرز وسبانخ وبرتقالاً . كل ذلك لوالدى لأنه مريض .

ونهض والدى لتحيتها وشكرها وكذلك والدى . وحاول إقناعها بأن تتفضل بالجلوس معنا . ولكنها اعتذرت . وطلبت منى أن أجيء إلى الغذاء عندها وأن ابنها سامى فى انتظارى . وحذرتنى أن أنسى ..

وبدأ الحزن الشديد على وجهى فسألت أمى . كم ثمن كل ذلك ؟
قالت . مجاناً ..

قلت . مجاناً .. يعنى لن تدفعى ثمناً لذلك .
- لن ندفع .

- ولكن لماذا ياماما ؟

- لأن بابا مريض .. وهذه عادة عند الخواجات .

- يعنى إذا مرضت هى فسوف نشترى لها ورداً وفراخاً وحلويات .
- نعم .

- يارب لا يجعلها تمرض أبداً !

وضحك والدى والدى ..

وكما جاء ضيف حكوا له هذه النكتة !

وفى المدرسة حكيت ما حدث فى بيتنا . وفوجئت بأن هذا الذى حدث لنا ، يحدث عند اناس كثيرين .. وأن هذا ليس غريباً ولا شيئاً كبيراً . وأحد الطلبة قال لى إنه عندما مرضت اشترت له والدته جزمة جديدة .. ومرة بنظوناً ومرة أعطوه فلساً ليضعها فى (الحصالة) .. ومرة اشترى له ساعة .. وزجاجة كولونيا ..

وفى ذلك اليوم دق الباب وجاءت سيدة تبكى ، لم أرها قبل ذلك . وطلبت أن ترى والدى فوراً . وتعالى صوتها وبكاؤها أيضاً . ووجدت والدى قد قفز من السرير ليلتقى بها ..

قالت السيدة : هل يرضيك ؟ هل هذا يرضى ربنا ؟

ثم حكى كيف كان جارها قد قطع الشجرة الموجودة أمام بيتها .. وقالت كلاماً كثيراً لم أفهمه .. ولكن معناه انها أرملة . وأنها وحدها . وأن أطفالها صغار .. وأن الناس كان

من الراجب أن يقفوا معها .. وأن يعوضوها عن زوجها الذى كان محبوباً من الجميع
وصاحب فضل عليهم كلهم .. ولكنهم استضعفوها . وقطعوا شجرتها .. وأن أولادها
الصغار الذين كانوا يلعبون تحت الشجرة وينامون فى ظلها يبكون .

ووجدت والدى متأثراً جداً . ودخل وارتنى البدلة . وخرج مع هذه السيدة .
ووجدتنى وراءه لكى أرى هذه الشجرة التى يملكها الأطفال وأمهم .. وذهب والدى إلى
الرجل الذى قطع الشجرة . وما كان من الرجل إلا أن اعترف له بأن أولادها قد سعدوا
الشجرة التى أمام بيته .. وتعلقوا من أحد أغصانها .. وسقط بهم الغصن وانكسر . وأنه
قد نهاهم عن ذلك كثيراً . ولكن أم هؤلاء الأطفال لم تحذرهم .. فانتقم هو بقطع
شجرتها.. وكانت الشجرة صغيرة . ولكنها استحالت إلى جثة على الأرض . وأطفالها
الصغار يبكون .. فعلاً وجدتهم يبكون ..

وتذكرت اننى شاركت عمال الرى والترع فى إزالة عدد من الأشجار أمام البيت الذى
كننا نعيش فيه .. دون أن أشعر لحظة واحدة أن هناك أية علاقة بينى وبين هذه
الأشجار.. ولا قلت إنها أشجارنا .. أو أشجار أمام بيتنا .. أو فى طريقنا فى شارعنا . لقد
رأوا إزالتها .. ورأيت أن أشغل وقتى مثل كل الأطفال ، فاشتركتنا فى إزالتها .

وتذكرت أيضاً إننا كنا فى زيارة لبيت جدى ، ان دخل كلب كبير .. واتجه مباشرة إلى
حلل كبيرة قد وضعوا فيها اللحم .. ودخل ثان وثالث .. وكل واحد حمل جانباً كبيراً من
اللحم . ونبهتنى والدتى إلى ذلك . ولكنى لم أتحرك . وقالت : انت إيه .. ألا ترى الكلاب
تأكل اللحم .. إنه اللحم الذى أعدته جدتك ليوم العيد ..

ووجدت كل الذى تقوله والدتى بلا معنى جدتى .. لحم جدتى .. العيد . منع الكلاب
من أخذ اللحم .

وغضبت والدتى .. وكان غضب جدتى أعنف .. فقد انهالت على ضربياً .. ولم أسألها
لماذا فعلت ذلك .. وإنما وقفت كأننى أتفرج على واحد غيرى .. وكنت أنظر إلى وجه جدتى
وأقارن بين وجهها وبعض الحيوانات .. ولا أعرف من أين أتيت بهذه العادة أو كيف
اكتسبتها ..

وقد أعطاني والدي درساً طويلاً وكانت لهجته تتراوح بين اللين والشدة . وذلك عندما طلب مني أن أشتري بعض الفاكهة من السوق . فاعترضني شحاذ . وطلب مني شيئاً من الذى أحمله ، فأعطيته كل ما معى . وعدت إلى البيت لأقول : قابلنى رجل غلبان . فأعطيته الفاكهة !.

- كل الفاكهة ؟

- نعم ..

وقال لى والدي . نفرض أن هذه الفاكهة لم تكن لنا .. كانت لاناس آخرين . فما الذى تفعله أو تقوله لهم .. فى هذه الحالة لا ببد أن ندفع لهم ثمن الفاكهة .. ومن الممكن ألا يصدقوك .. ويتهموك بأنك أخذت الفلوس .. وبدلاً من أن تكون الولد الطيب الأمين ، تصبح الولد الكذاب النصاب .. ولنفرض أن شحاذاً عريانا طلب إليك جلبابك فهل تخلعه وتعطيه له .. هل لو طلب حذاءك .. هل لو طلب كتبك .. هل لو طلب منك أن تسرق له . فهل تفعل .. ثم إن هناك بعض الشحاذين الأغنياء . وكثير منهم نصاب كذاب .. ألم تسمع عن الشحاذة العجوز التى وجدوا عندها بلاصاً قد امتلأ بالفلوس .. ومع ذلك لم تكف عن التسول .. لأن التسول عادة وجمع الفلوس عادة .. ولكن إنفاق الفلوس ليس عادة .. هل لو قال لك شحاذ إنه يريد أن يضربك على قفاك .. هل لو قال لك ذلك وهو يبكى .. أو كذب عليك وقال إنه رأى فى المنام انه يضربك .. وأن الذى أوصاه بذلك أحد الأولياء أو الملائكة .. وأن فى ذلك شفاء ليده وشفاء لعنقك هل تقبل ؟ ألا ترى أن هذا الشحاذ قد خدعك .. قد رآك ساذجاً .. إن هذه إهانة لك .. ولعقلك وبكل الكتب إلى قرأت والشعر الذى حفظت ..

وجاءت أمى تسأله : ماذا فعلت ؟ هل ضربته : هل أدبته ؟

وأجاب والدي ، هذه آخر مرة .. إنه بحسن نية قد فعل ذلك . انت تعرفين إنه طيب ورقيق ويتأثر بحال الناس المساكين والفقراء والمرضى ..

- لا أفهم .. هل علمته ألا يفعل ذلك مرة أخرى .. إنه يستاهل الضرب .. ولكنك تفسده بالكلام والحكايات التى تردها على أذنه .. حتى صار لا يرى وإنما يسمع فقط .. ولذلك

يضحكون عليه .. إذا أتى واحد قال له كلامًا حلواً .. لن أترك لك مهمة تعليمه أبداً .. وأنا أعرف كيف أجعله يضع عقله في رأسه ! .

وكانت أمى ترى أن عقلى ليس في رأسى .. وأن الكثير مما أفعله يدل على اننى سرحان.. أو اننى لا أبالى .. ولذلك فهى تنبهنى بشدة ، وتحذرنى بالحاح شديد .. فكل شىء تقوله فإنها تكرر كثيراً ظناً منها اننى نائم على روى أو لايهمنى ما تقوله أمى .. مثلاً تقول لى : خذ بالك من الذى أقول لك .. افتح أذنك .. أنت الآن تذهب إلى الست أم عزيز .. أم ايه .. أم عزيز وتقول لها : إن ماما فى إنتظار ضيوف .. وإذا سألتك من هم الضيوف قل لها إنهم جماعة أقارب وأن هؤلاء الأقارب سوف يبيتون عندنا .. وإنها لولا الضيوف ل جاءت لزيارتها ..

- هل أقول لها أن تجىء هى لزيارتنا ..

- لا .. ياأخى لا .. أنا مشغولة والبيت ملىء بالضيوف .. فإذا جاءت هى وأولادها فليس لهم مكان .. تقول لها إيه .. إن غداً إن شاء الله بعد أن ينصرف الضيوف سوف أزورها ..

- متى ينصرف الضيوف ؟

- إنت مالك .. انت تقول لها هكذا والسلام .. لا تقول كم عدد الضيوف ولا من هم .. ولا متى ينصرفون .. وإياك تقول لها : لا داعى لأن تجيئوا فليس فى بيتنا مكان .. خذ بالك .. سامعنى .. يعنى اننى مشغولة لأن عندنا ضيوفاً وأن الضيوف سوف يبيتون .. ونحن لا نعرف متى تنتهى الزيارة .. فاهم ..

- نعم ..

- قل لى ماذا ستفعل ..

- ياماما أنا فهمت .

- خلاص .. قل لى قبل أن تخرج ..

- سوف أقول لها . ماما كان فى نيته أن تزورك لولا ضيوف من أقاربنا جاءوا فجأة وسوف يبيتون فى البيت ..

- ياأخى لا .. إنهم سوف يبيتون وغداً يسافرون .. ولكن ماما لا تعرف موعد انتهاء الزيارة .. وبعد ان تنتهى الزيارة سوف أنورهم .. وجعت قلبى ا'.

- حاضر .. فهمت ..

- لا تنس الطبق الكبير الذى كانت به الحلوى ..

- ياماما انت قلت لى أن أترك الطبق هناك ..

- نعم .. تركته أمس ولكن تطلبه اليوم ..

- أنا لا أفهم .. المرة الماضية أتيت بالطبق ، فأنت غضبت منى وهذه المرة تستعجلين

الطبق ..

- يا أخى المرة الماضية انت ذهبت بالطبق وطلبت أن يفرغوه من الحلوى ويعطوه لك

فوراً .. هذا عيب .. يجب أن تتركه عندهم يوماً أو يومين .. وبعد ذلك تطلبه .. ولا تطلبه فى

نفس اليوم .. أو فى نفس اللحظة ..

ومن ضمن الألغاز فى ذلك الوقت اننا عندما نلعب أمام البيت .. أجد الأطفال

يتشاجرون . أما السبب الذى لا أفهمه فهو أن كل واحد يقول : أنا ألعب أمام بيتنا ..

وأنت مالك ..

وانظر فأجد أن حارة ضيقة تفصل بين البيتين .. فكل واحد يرى أن (أمام) بيته هو

شبر .. وشبر آخر أمام البيت المواجه له .. وأن هذه هى الحدود .. حدود حرية كل طفل ..

فإذا تعداها طفل آخر فهو عدوان على بيته وعلى المساحة التى يتحرك فيها .. ولم أفهم ..

وعندما يتشاجر الأطفال ويردد الآباء أن الطفل كان يلعب (أمام) بيته .. لم يكن أحد

يحدد المساحة التى يحق له أن يلعب فيها وألا يضايقه أحد .. وانظر إلى الأرض التى لا

تزيد عن مترين .. واندعش كيف يحدد الأطفال هذه المساحة فيقول واحد : هذا بيتى ..

وهذا أمام بيتى .. وهذا بيتك وهذا أمام بيتك ..

وكان الأطفال لا يستخدمون كلمة أمام البيت إلا عندما يتشاجرون فقط .. أما إذا

كانوا على وفاق فإن الحدود تختلط وتدخل الكرة من هذا الباب ومن الباب المقابل له .. ولا

أحد يشكو .. ولا أحد يقول : هذا بيتى .. هذا بيتك .. هذا أمام بيتك وهذا أمام بيتى ..

وكنت أتعجب للأطفال الصغار الذين اتفقوا على معانى هذه الكلمات : بيتى .. بيتك ..
أمام وخلف بيتى ووراء بيتك .. كيف تعلموها . وكيف لم أتعلمها .. أو كيف لم أسمعها
من أحد .. أو لم أقرأها فى أى كتاب - وإن كنت قد سمعت من والدى وهو يحكى عن
الخناقات الدامية بين الفلاحين على الماء وعلى الرى .. وعلى أن أحد الفلاحين سرق
جاموسة فلان وأن فلاناً سرق الخضروات من أرض فلان .. وعلى الرغم من أن
المسروقات كانت تافهة ، فإن الدماء قد سالت .. وإن أحداً قتل ابن أحد .. أو أحرق قمح
أحد .. أو وضع السم لجاموسة أحد .. والسبب هو أن أحداً اعتدى على (ملك) أحد .. على
أرضه .. على خضرواته .. على نصيبه من الماء .. على كوم السماد الذى وضعه فى أرضه ..
فالاعتداء فى حد ذاته هو المرفوض .. وليس الشئ الذى اعتدى عليه .. يعنى ليست
الخضروات التى لا تساوى قرشاً ، ولكن حادث الاعتداء .. الذى هو إهانة واستخفاف
واستضعاف .. هو الذى يجب ألا يقع .. وإذا وقع فسرقه بطيخة تساوى سرقة ألف
بطيخة .. وسرقه دجاجة يساوى جاموسة .. ووضع قدم فلاح فى أرض فلاح آخر دون
إذن ، مثل وضع يده على صدر زوجة فلاح آخر ..

يعنى إيه ؟

لم أفهم بوضوح كل ذلك ؟

كان مدرس اللغة العربية رجلاً مخيفاً . فهو طويل عريض وله كرش . وصوته قوى
غليظ مرتفع . وإذا اقترب منه التلميذ فإنه يمسكه من رقبته وأحياناً يهزه من كتفيه ..
فإذا خاف التلميذ وحاول أن ينظر إلى الأرض بعيداً عن نظراته النافذة كان يقول له :
إرفع رأسك . انظر لى .. لكى أرى إن كنت كاذباً .. انظر لى ..

وكان الخوف يتولانا جميعاً .. ولا نريد أن نراه .. وإذا تغيب عن الحصاة لأى سبب ،
فتلك سعادة لا نستطيع أن نخفيها .. وكان الساعى إذا جاء وقال إن الشيخ الدخيمس لن
يأتى اليوم كنا نصرخ من الفرحة ونقول : هيه .. إن شاء الله دائماً !.

وكنا نخشى أن يبلغه ذلك .. ويوم قال لنا أحد التلامذة إن الشيخ يعرف مدى
كراهيتنا له كان يوماً أسود .. فلم يستطع أحد أن ينظر إليه .. وبعضنا ادعى المرض ولم

يحضر .. وبعضنا ادعى الإسهال والإغماء في الفصل لكى يخرج ..
وفي يوم قال لنا : أنا لا أفهم لماذا أنتم خائفون .. ما دام الواحد قد ذاكر فما الخوف ..
وهل أنا أبتلع الأطفال .. إن عندى أولاداً مثلكم وأحبهم .. وأنا أريدكم أن تكونوا رجالاً ..
أريدكم أن تكونوا ماذا .. رد .. قلت لك رد ..

ويشير إلى أحد التلامذة ..

فيقف ويقول : أن نكون رجالاً .

ويشير إلى واحد آخر ويقول له : وأنت يا ولد !

فيقف وهو يرتجف : أن نكون رجالاً !

ثم ينظر إلى واحد في آخر الفصل وهو نحيف مريض ويقول له : أريدكم أن تكونوا

ماذا ؟

فيقول : رجالاً .

- هل أنت رجل ؟

- لا .. أنا طفل !

- لا .. أنت رجل .. جامد .. قوى .. خشن .. ابن أبيك وليس ابن أمك .. ابن من ؟

- ابن أبى .

- وأنت ؟

ويشير إلى أطول تلميذ في الفصل وهو أقوى تلميذ أيضاً .. ونحن نخاف منه .. فيقف

وبصوت غليظ يقول . أن أكون رجلاً .

وسأله : وأنت الآن رجل ؟

- طبعاً .

ويصفعه على خده بمنتهى القوة .. وينتظر حتى يبكى . ويضحك ويقول له : رجل ؟

انت رجل ؟ وهل الرجل يبكى .. إنت عيل . انت ماذا ؟

لا يرد . ويعود يسأله . انت ماذا .. عيل أو رجل ؟

- رجل .

- إذن امسح دموعك . الرجل لا يبكي !.

- حاضر .

وإذا نظرت إلى الفصل فكل الوجوه في الأرض . والعيون تنظر إليه من تحت لتحت
ونتمنى جميعاً أن يذق الجرس لكي يغور هذا الرجل في ستين ألف داهية تأخذه ولا تعيده
الينا !.

وكنا نلعب في حوش المدرسة عندما جاء الساعى يقول : الشيخ الدخيمس يريدك
فوراً!.

وأكذب لو قلت إننى فهمت أو استوعبت أو فكرت في أى شىء .. وإنما أصابنى نوع
من القشعريرة جعلت كل أفكارى تتبخر وجعل ثوباً من الخوف يعتصرنى بشدة
ودرجات الحرارة ترتفع في دماغى .. وتنخفض في كل جسمى .. وتصيب عرقاً . ولا
أعرف ما الذى قاله زملائى ولا ادعى اننى سمعت بوضوح كل ما يقولون ولا حتى
بعضه .. وسبقنى الساعى إلى غرفة المدرسين .. ولكنه بادرنى بقوله : لا شىء يا ولدى ..
أنا فقط أردت أن أعرفك .. أنا قرأت موضوع الإنشاء الذى كتبتة .. هل انت الذى كتبت
ذلك .. أو إن أحداً ساعدك ..

فقلت : أنا ..

ولا أعرف من الذى قال : أنا .. هل أنا .. أو أصوات فى داخلى .. أو جاءت « أنا » من
واحد غيرى ..

وقال لى : وأنت تحفظ كل هذا الشعر ..

قلت : وأكثر .. وأحفظ القرآن الكريم والذى يتول الشعر ..

قال . سمعت عن والدك .. إنه رجل طيب . كلهم يقولون ذلك . وأنا أحب أن التقى به ..
قل له ذلك ..

ونادانى أن اقترب وقال لى : مد يدك ..

ولم أفهم . ومددت يدي .. فأمسكها وخطبها فى المكتب فصرخت وقلت : آه ! .

قال : يد من هذه ؟

قلت : يدي ..

قال . إياك أن تبكى . يد من هذه ؟

قلت : يدى ..

قال . من أجل هذا أتيت بك إلى هنا وأريد أن أراك . هذه يدك .. وهذه ذراعك .. وعينك .. وهذا ينظرونك .. وحذاؤك وكراريسك .. وهذا أبوك .. وكما أن يدك توجعك إذا أحد خبطها في الحائط فكذلك رأسك .. وكذلك من يشتم والدك .. لأنه يشتم والدك أنت .. يشتم شخصاً أنت تحبه وتعتر به .. فالذى يشتمك كالذى يحرق ملابسك .. يكسر ذراعك .. يعتدى على شىء تمتلكه .. ولأنك تمتلكه يجب أن تحرص عليه .. فاهم يا ابنى .. قل لى : يد من التى خبطتها في الحائط .

- يدى .

- نعم . يدك .. وعندما أوجعتك فقد أوجعت من ؟

- أوجعتنى .

- قل أوجعتنى أنا !

- أوجعتنى أنا ..

- ولم توجع أخاك ..

- أوجعتنى أنا ..

- وإذا أمك بلغها اننى ضربتك فسوف تتألم لأنك قطعة منها .. فكأنتى ضربت يدها ..

وإذا أمك مرضت ألا تحزن ؟

- أحزن جداً .

- لماذا .. لأن أمك قطعة منك .. أو إنك قطعة منها .. فأنت تحزن على نفسك وتتألم

للذى يصيبك .. وأمك هى نفسك وأبوك وأخوتك وكل الذين تحبهم .. وكل شىء تملكه ..

فهمت ؟

- نعم .

- فهمت ماذا ؟

- فهمت .

- هل البيت الذى تسكنه ملك لكم .

- لا .

- هل هذه المدرسة ملك لكم ؟

- لا .

- ومع ذلك تقول هذه مدرستي وهذا فصلى .. وكذلك تستطيع أن تقول : بيتنا ..

وبيتي .. هل فهمت ؟ ماذا تقول عن النيل ؟

- إنه نيلي !

- لا .. انه نيلنا .. إنه النهر الذى نعيش منه جميعاً .. فهو نيل مصر .. وهذه السماء ..

سماؤنا .. وهذه الأرض أرضنا .. وهذا الهواء هواؤنا .. فهمت ؟

- نعم .

- هل فريد صديقك ؟

- نعم ..

- هل سمعته يقول بيتنا ؟

- نعم ..

- هل سمعته يقول والدى ؟

- نعم .

- إن فريد لا يملك هذا البيت .. إنه مثلك يسكن فيه هو وأسرته .. والدة هذا ليس

والده .. إن والده قد مات .. ولكن هذا الرجل قد تزوج أمه بعد وفاة أبيه .. فكأنه والده

تماماً .. وهو يحبه كأنه والده .. والرجل يحبه كأنه ابنه تماماً ! .

- وأنا لى أخت غير شقيقة وأحبها كأنها أختى تماماً .. بل هى أختى .

- كلام عظيم .. لا تخف منى يا ولدى .. وإذا سألك زملاؤك قل لهم إننى سألت عنك

لكى أعرفك فقد أعجبنى موضوع الإنشاء الذى كتبتة .. مع السلامة يا ولدى ! .

* * *

لقد شعرت بالراحة فى ذلك اليوم .. ولحسن حظى كان يوم خميس .. وشعرت

بالاسترخاء الشديد والرغبة فى النوم .. وصحوت من النوم متأخراً على صوت أمى تقول :

اصح .. انت مريض .. اصح .. عندنا ضيوف .. ما هذا الذى إلى جوارك ..

ومدت يدها .. وبدت عليها الدهشة وسألتنى : ما هذا يا ولدى ! .

قلت لها : ملعقتى .. وشوكتى .. وسكينى ..

- لا أفهم ..

- إنها أشياء تخصنى ..

- ولماذا تضعها معك فى الفراش .. ومن الذى سوف يأخذها منك .

- ياماما .. كل واحد له كوب وطبق ..

- نعم . ولكن ما سبب خوفك عليها ؟

- لا أحب أن يستخدمها أحد غيرى .

- أحد غيرك مثل من ؟ أنا .. أخوك ؟ أبوك ؟

- أى أحد !

- منذ متى ؟

- من اليوم !

- ولماذا ؟ ماذا حدث اليوم ؟

- الأستاذ قال لى ذلك ..

- قال لك ماذا ؟

- كل واحد لابد أن تكون له أشياء تخصه ويحرص عليها ..

- ليكن . ولماذا تنام وهى فى حضنك ؟

وأحسست بسخافة أفكارى كيف اننى قبل أن أنام أخفيت طبقاً وكوباً ووضعتهما فى

فراشى دون تفكير .. ولكن السخرية على وجه أمى قد مسحت كل الأفكار التى دارت فى

رأسى .. أو التطبيق الساذج لهذه الأفكار .. ونهضت وأعطيتها الطبق والكوب .. واعتذرت

لها .. وقلت لها كاذباً . اننى فعلت ذلك دون أن أدرى وأنه كان فى نيتى أن أضعها فى مكان

آخر ولكن غلبنى النوم .

وصدقتنى أمى ..

ولم تقل هذه الحادثة لأى أحد ، مع أن من عاداتها أن تقول كثيراً إذا وجدت شيئاً

غريباً ، اما على سبيل التظاهر أو على سبيل الشكوى وأخذ المشورة ..

كان يوماً غريباً .. أو أياماً عجيبة أو دهرًا طويلًا لا أول له ولا آخر .. فنحن في حالة صمت. لا أحد يتكلم .. أمى تذهب وتدخل وتخرج ولا كلمة .. وتعد الطعام في صمت .. وإذا سألتها هزت رأسها أو أشارت بيدها .. فلم يعد عندها كلام أو رغبة في ذلك .. وظننت أن شيئًا ما أصابها في حلقها أو في لسانها .. أو هى أسنانها التى ترجعها من حين إلى حين .. وأنظر إلى عينيها فلا أجد دموعًا . ولم تلف شيئًا حول رقبتها . ولا أخذت دواء .. ولا وجهها شاحب .. ولكن الصمت شامل .

وسكت أنا أيضًا ..

وشىء غريب جدًا أن الباب لا يدق .. وتمنيت أن يدق وأن يجيء أحد ويتكلم فأسمع صوت أمى .. أو يقال لى شىء فأسألها .. أين القسط التى كانت تقفز من فوق السطوح إلى حيث الدجاج .. ولا قطة . أين الكلاب التى تغافلنى وتدخل البيت بحثًا عن شىء . ولا كلب .

وكانت تجربة فريدة أن نكون في حالة صمت . وكل شىء حولى بلا صوت . حتى الهواء الذى كان يدفع الشباك وأحيانًا يسقط بسبب ذلك أى شىء ، لم يتحرك . وتعمدت أن أدفع إحدى المناضد ، وأقعها على الأرض . ولم تلتفت أمى . وكانت قبل ذلك بيوم أو يومين تسأل : ولماذا ؟ وجرى لك إيه ؟ المذاكرة أرهقت عينيك حتى لم تعد ترى .. ضع قطرة ..

وذهبت إلى أبعد من ذلك في الرغبة في أن أعرف فأسقطت كوبًا زجاجيًا على البلاط .. لم

ينكسر .. ثم أعدت إسقاطه فانكسر . والتفتت أُمى وأشارت بأن أجمع شظايا الزجاج ..
وكانت تروح وتجيء وتنظر في كل اتجاه ثم لا تتكلم . ولم أطق صبرًا . وسألتها . مالك يا
ماما؟

قالت : ولا حاجة .

- مريضة ؟

- لا .

- سلامتك .

- الله يسلمك .

ولم تقل في نهاية كل إجابة : يا ولدى .. يا ابني .. يا حبيبي ! .

ومعنى ذلك انها تريد أن يكون الكلام مختصرًا . وعدت أسألها : وهل يجيء والدى ؟

- نعم .

- متى ؟

- اليوم .

- صحيح ؟

- نعم .

- هل هو مريض ؟

- لا .

- ولكنه كان هنا بالأمس ..

- نعم .

- هل يجيء مرتين في يومين ..

- نعم .

- لماذا ؟

- لأننا مسافرون ! .

أظلمت الدنيا .. ابتعدت الدنيا .. انتهى كل شيء .. لم يعد هناك شيء أمامي أو

خلفى.. ولم يعد لى أنا وجود .. ولا أمى .. ولا البيت .. كأنتى سقطت فى بئر مظلمة .. وكان السقوط طويلاً هادئاً .. ولم يعد لى صوت أو لون .. أو لم تعد لى إذن أو عين ولسان .. هل جلست على الأرض .. هل أسندت ظهري للحائط .. هل تزلقت على الحائط .. على الأرض وتمددت .. ونمت ثم مت بعد ذلك ؟ هل الحائط الذى كنت أسند ظهري إليه هو الذى خاننى وتساقط تراباً أو قطعاً من الظلام .. أو ما لا نهاية له من الصمت والبرودة .. هل كان يحدث لى كل ذلك ولكن تماسكت وتساندت .. فهذا الذى فى يدي هو الباب .. أو اكرة الباب .. هل هى يد أمى .. عندما رأتنى أنهار أمسكت بى وأسندتنى إلى صدرها .. هل انفتح الباب الخارجى فجأة ودخل شبح أبيض .. وفى وجه الشبح رأيت عيني والدى .. هل كل الذى أرى ليس إلا وهمًا .. أو اننى مت منذ زمن طويل ، وإننى أزال أتقلب فى قبرى .. إلى جوار جدى .. واننى سعيد بذلك .. أو اننى فى حالة من عدم الشعور بالتعب والراحة .. لا شىء يوجعنى .. لا شىء ثقيل على يدي على ذراعى على رأسى .. لا شىء يضغط على أى شىء .. لا شىء له وجود من اللون أو الصوت أو الرائحة ..

وفجأة بدأ النور يدخل من بعيد .. والنور يزداد ويقترّب والهواء أيضًا .. وكل شىء له طول المواشير الكبيرة .. فكل ما حولى عبارة عن ماسورة دائرية فى ناحية منها نور .. والظلام يلف الضوء ويقاومه .. واتسعت دائرة النور .. واتسعت فرأيت البيت .. بيتاً من جديد .. ورأيت أمى جالسة إلى جوارى على الأرض .. رأيت وجهها والدموع .. فعلاً فى عينيها .. ولما رأتنى أفتح عيني مدت يدها إلى وجهى ومسحته .. وإلى عنقى .. وإلى شعري وإلى صدرى وهى تقول : جرى لك إيه يا ابنى ؟ انت كل مرة تموت نفسك بالشكل ده .. سوف تجد اناساً وسوف يكون لك أصدقاء .. ومدرسة .. لن ينقصك شىء يا ابنى .. وسوف أكون معك وأخوك وأختك .. وكتبك سوف تكون معك .. لا تخف يا ولدى .. لا تخف لن ينقص منا أحد يا ولدى .. إن شاء الله لن ينقص أحد .. قم يا ابنى .. نشفت دمي .. يا ابنى أنا مريضة أنا لم أعد قادرة على تحمل هذه الصدمات .. انت عارف إن أمك ضعيفة ووحيدة فى الدنيا .. وليس لها إلا أنت فإذا كنت أيضًا ضعيفاً فعلى من تستند أمك .. قم يا ابنى .. قم يا حبيبى ساعدنى .. لم يعد لدينا وقت طويل .. ساعدنى يا حبيبى !

ولما سمعت أمى تقول إنها مريضة ضعيفة .. وكنت قد نسيت كل ذلك .. وإنها لا تستطيع أن تجمع حاجاتنا وحدها نهضت بسرعة . فأنا أعرف بالضبط ما الذى يجب أن أعمله . وكنت قد نسيت اننى فعلت ذلك من قبل عدة مرات ..

أعرف ما الذى يجب أن أعمله .. انقل الأطباق والشوك والسكاكين والأكواب ثم ألها فى ورق وأضعها فى صندوق وأحاول أن أجعل هذا الصندوق يتسع لكل أدوات الطعام .. سمعت ذلك من أمى عدة مرات .. وبعد ذلك يجب أن ألبس الكتب بالدوابة . وأن أجعلها مجموعات صغيرة حتى يمكن حملها .. وكنت أختار أحب الكتب وأضعها إلى جوارى .. وأحاول أن أجعل هذه الكتب عشرة أو عشرين على الأكثر .. وبعد ذلك أضع بقايا الطعام والخضروات والفاكهة فى صندوق ... ثم أغسل الحلل .. وفى نفس الوقت لا أترك شيئاً على الأرض .. فلا بد من تنظيف البيت .. لا بد أن نتركه نظيفاً كما تسلمناه نظيفاً — أمى هى التى تقول ذلك — مع اننا يوم تسلمناه لم يكن نظيفاً . فقد كان مليئاً بالصراصير والنمل والفئران الصغيرة والذباب والبعوض أيضاً . وخصوصاً فى دورة المياه والسقف ..

وعندما نظرت فى الغرف اكتشفت أن أمى قد ربطت المراتب والمخدات والألحفة .. وجميع الملابس .. وأن كل شىء جاهز تماماً لأن تجيء سيارة وتنقله ثم سمعت دقات على الباب ورأيت عدداً من الرجال . واحد سألنى . ماما هنا ؟

— أنت مين ؟

— هى تعرفنى .

— هى لا تعرفك . انت مين ؟

— يا سيدى إنها تعرفنى . قل لى ادخل .. الله يهديك .

سمعت ماما تقول له : إتفضل يا حاج ! .

ونظر الرجل ناحيتى وهو يقول لى : مش قلت لك .

تضايقت من هذا الرجل .. ووجدت ثلاثة آخرين قد دخلوا وراءه أيضاً . وكانت أمى تتوقعهم . ولذلك لاحظت انها قد غيرت ملابسها .. فكل شىء يتم بسرعة وفى صمت ..

وفتحت لهم أمى باب غرفة الدجاج .. فهم الذين سوف يشترون الدجاج والبط

والأوز والأرانب .. وبسرعة امتدت أيديهم إلى الأقفاص التي احتبست فيها الطيور ..
وبسرعة حملوها وبسرعة خرجوا .. وكان لابد أن نقوم معًا بعملية تنظيف لهذا المكان
الذى تخرج منه رائحة الدجاج ومخلفاته .. ووجدت مقشاة كبيرة ومقشاة صغيرة وعدة
مقاطف .. وبسرعة امتلأت المقاطف .. وحملتها إلى خارج البيت .. وألقيتها بعيدًا .. ثم
طلبت منى أمى أن أتى بتراب جاف .. وأن أنشر هذا التراب في مكان التراب الذى
نقلناه.. وكنت اندهش كيف يعيش هذا العدد الهائل من النمل والصراصير .. وكيف أن
القطران قد اتلفت بعض الكتب .. وحطمت بعض الأقلام .. وكيف أن إحدى القطط قد
قفزت من أعلى الشجرة وخرجت بسرعة وفي فمها ثعبان صغير .

ولأول مرة تشير أمى إلى آثار الثعالب والذئب التى كانت تتسلق الجدران وتهبط وفي
مخالبها صغار الدجاج والبط .. وكانت آثارها غائرة على الجدران ..

وسألتنى : هل تخاف لو رأيت ثعبانًا ؟

قلت : لقد رأيت أبى يقتله بيده ..

قالت : انظر إلى الركن البعيد إنه ثعبان قد ابتلع فأرًا .. وهذا الانتفاخ في بطنه هو الفأر
الذى ابتلعه .. إن الثعبان لا يخيف إذا ابتلع فأرًا .. إنه يكون نائمًا . ولذلك من السهل
قتله ..

قلت : لا تقتليه .

قالت : لن أفعل .. إننا مسافرون ..

ولا أكاد أسمع كلمة « مسافرون » هذه حتى يهتز جسمى كله .. وتلاحظ أمى ذلك
فتقول لى بسرعة : شد حيلك لا تدعنى وحدى .. أريدك أن تكون قد فرغت من كل شىء
قبل مجيء والدك ..

- متى يحضر ؟

- بعد ساعة .. ساعتين .. إن شاء الله لابد أن يحضر ..

- إلى أين يا ماما ؟

- بلد أحسن من هذه البلد .

- أين ؟

- مصر .

- ولن نعود هنا أبدًا ؟

- لن نعود ..

- أبدًا ؟

- أبدًا ..

- ولماذا ؟

- الظروف يا ابنى ..

- ولماذا لا يسافر الناس مثلنا ؟

- كل واحد له ظروف ..

- ولماذا ظروفنا نحن فقط هي التى تجعلنا نساfer من حين إلى حين ..

- هناك اناس كثيرون مثلنا يا ابنى .

- مثل من ؟

- اناس كثيرون انت لا تعرفهم .

- بل أعرفهم .

- انت لا تعرفهم !

- أعرفهم وأحبهم أيضًا . وأنا كأنى واحد منهم !

- من هم ؟

- العجر !

- عيب لا تقل ذلك وإلا غضب منك أبوك .. هل أبوك مثل العجر .. هؤلاء اللصوص ..

إن والدك رجل محترم .. والناس كلهم يحترمونه .. ويحبونه .. وأنت تحبه .. ونحن لا

نعيش فى خيمة .. وأنا لا أضرب الودع وأسرق الدجاج .. ولا أبوك قاعد أمام الخيمة يربى

الكتاكيت .. عيب اياك أن تقول الحكاية دى مرة أخرى .. أوع .. إذا والدك سمعها فلن

ينساها أبدًا . إياك !

ولم يدق أحد بابنا .. كأن الناس جميعًا قد عرفوا أننا مسافرون أو أننا سافرنا .. فلم يأت أحد .. لا بائع اللبن .. ولا جارة واحدة جاءت تسأل أو تطلب شيئًا أو تأتي بشيء .. كل الناس يعرفون أننا مسافرون إلا أنا .. لا بد أن أمي لم تشأ أن تقول لي ذلك حتى لا أصاب بالدوخة أو الانهيار الذي يصيبني في كل مرة .. ولا والدي قال لي .. وكان من المفروض أن يجيء بعض إخوتي اليوم صباحًا . ولكن أحدًا لم يظهر .. وأهم من ذلك اننى اتفقت مع أختي على أن نذهب معًا إلى السوق وسألت أمي : أختي لن تحضر اليوم ؟ قالت . لن تحضر .

- وهل عرفت عنواننا في مصر .

- ليس بعد ..

- وأين نسكن في مصر ؟

ضحكت أمي وهى تقول : وهل أنا أعرف مصر .. في مصر والسلام ! .

وتمنيت لو اننى وجدت شيئًا يجعلها تضحك .. فوجهها يضىء .. كل وجهها .. فهى

تضحك من كل قلبها .. ولأن ضحكتها نادرة فهى جميلة جذابة ..

وعدت أقول لها : هل نسكن في الدور العاشر ؟

- العاشر ١٩ .

وضحكت وضحكت وعاتت تقول : ولماذا العاشر .. والأول عيبه ايه ؟

- يا ماما زهقت من الدور الأرضى .. لم أصعد سلمًا في حياتى . لم أنظر من بلكونة ..

لم أر الناس من فوق . كلهم ينظرون لي من فوق .. في الدور الأرضى يشاركننا الكلاب

والقطط .. وتدخل الكرة من الشارع والناس يخبطون علينا الباب ذهابًا وإيابًا .. ونحن لا

نرى الناس قبل مجيئهم .. ولكن عندما نكون فوق فنحن نرى الناس من فوق ونعرفهم .

ونكلمهم .. ويمكن السلالم تجعلهم لا يجيئون ولا يوجعون دماغك .. ومن البلكونة

يمكنك أن تشتري الخضروات بدلًا من أن تذهبى إلى السوق ..

وضحكت وهى تقول . ولو كنا في الدور العاشر فكيف اشتري الخضار ؟

- أنا الذى أذهب إلى السوق .

- ألم تكن تريد كلبًا صغيرًا .

- بل أريده فورًا .

- لو سكنا في العاشر فإن الكلب سوف يقع من البلكونة ويموت !

- لا داعى للكلب !

وضحكت أمى كثيرًا حتى جاءت الدموع في عينيها ..

يا حبيبتي يا أمى .. لو كنت أعرف كيف أجعلك تضحكين . ولكنى لست مثل عزيز الذى يزغزغ أمه حتى تضحك .. وتصرخ وتطلب من إخوته أن ينقذوها لأنها سوف تموت من الضحك .. وتجىء أخواته يضربنه .. لو كنت أعرف ذلك .. مع الأسف لن أرى عزيز من اليوم .. لا عزيز ولا أخواته البنات .. ولا سامى .. ولا فاتيما .. ولا نبيلة - نبيلة هذه تلميذة فى المدرسة الثانوية رأيتها مرة واحدة وفى هذه المرة وجدت فى عينيها ما لا نهاية له من الكلام .. لقد ضبطتها تتابعنى .. فتلخبطت فى السير .. ولما رأيتها مرة أخرى .. كانت تريدنى أن أقرب أكثر وأن أتحدث إليها .. ولكنى لم أفعل .. ولن أرى فىكى .. فيكتوريا كانت تلميذة ولكن فضلت أن تبقى فى البيت .. لأنها سوف تتزوج .. وهى قريبة عزيز من بعيد . وهى فى غاية الحيوية . دائمة الابتسام . وفى كل مرة ترانى تقول لى : هالو .. انت فىين ؟

وأضحك وأقول لها . هالو ..

وأمضى فى طريقى فتنادينى وتقول لى : عاوزة أكلمك .. مستعجل على إيه ؟

وأعود إليها لتسألنى عن أشياء كثيرة لا تخطر لى على بال . مثلاً . هل كنت فى السوق .. هل رأيت الرجل الذى يبيع الكتب الفرنسية .. وهل محل الساعاتى مفتوح .. وهل أعرف إدوارد الذى يجلس فى المحل .. هل رأيت أمس ..

وحكايات عندها كثيرة جدًا .. فإن وجدتنى لا أرد عن الأسئلة تروى هى القصص والحكايات .. وهى لطيفة .. فى مثل طولى وأكبر منى قليلاً .. وهى إذا قعدت لفت ساقًا حول ساق .. وإذا تكلمت فإنها تقترب منى أكثر وأكثر .. هذه طريققتها فى الكلام .. وإخواتها يروننا ويبتسمون ولا يقولون شيئًا . ولاحظت إنها ظريفة مع كل الناس .

وكننت قد أعددت لها حوارًا قلته لنفسى عدة مرات .. وكان فى نيتى أن أدعوها إلى المكتبة العامة لتقرأ وتتكلم هناك .. ذهابًا وإيابًا .. ولم أجد الشجاعة .. هى الأخرى لن أراها .. لم أودع أحدًا ..

ولا أعرف ما الذى يقال . ولماذا ؟

فلمست مربوطًا ولا مرتبطًا بأحد .. كأنهم جميعًا عسافير على شجرة .. رأوا شيئًا متحركًا .. فطاروا جميعًا .. ذهبوا .. اختفوا .. ماتوا وماتت الشجرة .. كأنهم تراب عالق بملابسى .. نفضت الملابس .. تباعدت ذرات التراب . كأنهم مسامير ودبابيس جذبهم مغناطيس وفجأة انعدمت الجاذبية .. تساقطوا متباعدين .. كأنهم ريش فى جناحى طائر كبير .. هذا الريش لم يثبت فى جناحيه .. وإنما ريش ألصقوه بالصمغ .. وظل الطائر يرتفع حتى اقترب من الشمس .. فذاب الصمغ وتطاير الريش وسقط الطائر ..

كأنهم ثمار على شجرة . نضجت الثمار فجأة وفى وقت واحد . فسقطت كلها على الأرض .. وليس بعد النضج التام إلا العفونة .. فسقطت الثمار قبل أن تتعفن .. أو كأنها ثمار قطفها قبل نضجها سكين خفية .. قطعت رقابها .. فسقطت قتلى ..

كأنهم جميعًا حبات من الأرز أو القمح فى جيب .. والجيب انقطع فجأة وسقطت حبات القمح كلها على الأرض .. فلا نظرت إلى جيبى ولا مددت يدي .. ولا فكرت فى أن أسمع سقوطها ولا رأيت جثتها .. اعتدت على ذلك .. اعتدت على تساقط الأشياء والناس بعيدًا .. اعتدت أن أكون بعيدًا .. وأن يصير القريب بعيدًا .. بل لم يكن القريب قريبًا أبدًا .. ولذلك فلا شعرت بأنه قريب ، ولا ندمت على أنه صار بعيدًا .. إننى مثل عسكرى المرور تقترب منه السيارات لكى تبتعد .. وتقترب البعيدة لكى تبتعد مرة أخرى .. وهو يرقب ويرصد ويسجل أرقامها .. اعتدت على ذلك فلا البعد له معنى ولا القرب ولا القرابة ..

* * *

وجاء الليل بسرعة ..

أو أننا دخلنا الليل .. أو تسللنا إليه .. أو كأن الليل ثوب أسود فضفاض سقط على الدنيا ..

ودق الباب .. وكان والدى .. هل كان أنحف أقصر .. كيف أراه كذلك . كيف أحسست به كذلك .. وبسرعة نظرت إلى يدي .. إنها أصغر .. إلى ذراعى إنه أقصر . إلى وجهى فى المرأة إنه شاحب .. نظرت إلى أمى .. فوجدتها هى الأخرى مختلفة الطول والعرض .. ما الذى جعل كل شىء يبدو أصغر . أبعد .. نظرت إلى السقف وجدته أقرب .. تلمست وجهى .. لست محمومًا .. اقتربت بسرعة من والدى : هل أنا محموم ؟
- لا .

- ولكن أشعر بسخونة فى رأسى .. وعرشة فى جسمى .. ورغبة فى القىء ..
- قل لوالدك ..

وكان والدى قد سمعنى .. فقال لى : كل مرة تسافر يكون هذا شعورك .. لست مريضًا يا ولدى . ولكنه الخوف والقلق وإحساسك بأنك سوف تبعد عن أحبائك وأصدقائك .

ولم يكن ذلك صحيحًا .. فلا عندى أصدقاء ولا عندى أحبب .. وإنما هم زملاء فى المدرسة أتردد عليهم .. وأتذكرهم وتدفعنى أمى إلى أن ألتقى بهم وأتحدث وأظل على صلة بهم .. وإذا لم تدفعنى أمى إليهم فلن أدق باب أحد .. وأندهش جدًا كيف يدقون بابنا .. وكيف يعتذرون إذا لم يفعلوا ذلك . لماذا ؟ لم أفهم . ولا أمى قالت لى معنى ذلك ولا والدى .. ولا اهتديت إلى ذلك بنفسى ..

ونادتنى أمى بصوت غاضب : تعال .. انت الذى ألقيت بهذه الصورة فى الزبالة ؟
واقتربت وأرتنى صورة لى مع زملائى فى المدرسة .. بمناسبة نهاية العام الدراسى .
فهزرت رأسى إنى فعلت ذلك لأننى لا أعرف لماذا أحتفظ بها وأين أضعها . وما معناها ..

واقترب والدى وقال لى : عندما تكبر وتتحدث عن أيام الطفولة والشباب سوف تجد ان لهذه الصورة معنى .. وسوف تحدث بها زملاءك وبعد ذلك أولادك وأحفادك .. انت تحتفظ بصورة فى كتبك .. انها صورتك .. وصورة اخوتك وصورتى بينكم . لماذا ؟
- لأنها صورتك ..

- ولأنها صورتك أنت أيضًا . فإذا نظرت إليها سوف تقول إنك كنت صغيرًا وكنت مكلبظًا مكشّرًا دائمًا . واننى على عكس ذلك باسم الثغر .. وسوف تنظر إلى وجهك ووجوه إخوتك وتقارن وتقول .. فالصورة لها حكاية كل مرة تراها سوف تجد كلامًا جديدًا .. هذه الصورة هي أنت نفسك في ظروف قديمة .. وكل ما له علاقة بك أنت يجب أن تكون له قيمة عندك .. فأنا لى قيمة عندك ؟
- طبعًا ..

- وأنت لك قيمة عندى وعند أمك .. وأهم من كل ذلك إن لك قيمة عند نفسك .. يجب أن تهتم بصحتك .. وبدروسك ونجاحك وتفوقك ومستقبلك .. أنت ماذا تريد أن تكون ؟
- يعنى ايه ؟

- يعنى عندما تصبح رجلاً ماذا تريد أن تعمل ؟
- لا أعرف .

- لم تفكر .. وزملاؤك هل كانوا يحدثونك عن مستقبلهم ..
- نعم ؟

- ماذا قالوا لك ؟

- واحد سوف يكون طبيبًا وآخر سوف يكون مهندسًا .. أو محامياً أو شيخًا فى الأزهر أو قسيسًا .. وواحد يريد أن يتزوج فورًا ويكون له كثير من الأولاد .. وواحد يريد أن يهاجر وواحد يريد أن يتزوج واحدة أوروبية . وواحد يريد أن يكون غنيًا فى أسرع وقت .. وواحد يريد أن يكون شاعرًا .
- وأنت ماذا تريد ؟

.....

ويعود يقول لى : أنا أعرف ماما لا تريدك إن تكون مثلى .. ولا تريد أن تكون مثل عمك .. ولا تريدك أن تكون ضابطًا فماذا تريد ؟
- لا أعرف .

- تريد أن تقرأ وتقرأ ؟

- نعم .

- وأن تكتب ؟

- لا أعرف ..

- ولكنك حاولت الكتابة .. قرأت لك بعض مذكراتك .. جميلة . وأنا أعتقد انك سوف

تكتب .. أنا متأكد من ذلك .. فأنا أيضًا كنت أحب أن أكتب .. فقط أكتب ..

- ولماذا لا تكتب ؟

- أحيانًا .

- تكتب ماذا ؟

- شعرًا .

- وتصبح غنيًا ..

- هاها .. فهتم الآن .. ماما لا تريدك أن تكون شاعرًا حتى لا تكون رجلاً طيبًا مثلي

ولست غنيًا ..

- هل كل الشعراء فقراء ؟

- بل هناك شعراء ملوك وأمراء ووزراء .. إمرؤ القيس أمير .. والبارودي وزير وهناك

ملوك وخلفاء كلهم شعراء .

- لماذا تقول لى ماما ذلك دائماً ؟

- إنها تخاف عليك أن تنشغل عن دروسك .. وعن تجاحك .. انت تعرف ان ماما كان

لها أخ يحب الطرب والموسيقى والشعر ومات فى سن صغيرة .. انت تعرف .. أريد أن

أقول لك شيئاً بينى وبينك .. هل تعرف بينى وبينك أى لا تقول لأى إنسان .. لا ماما ولا

أختك ..

- أختى ؟

- نعم .. هل تعرف لماذا تحاول ماما إبعادك عن أختك ..

- لا .

- لأن صوتها جميل جدًا ..

- ولكنى لم أسمعها تغنى مطلقاً ..

- لأن ماما منعته من ذلك .. فالناس يقولون إن أختك هذه من الممكن أن تكون مثل أم كلثوم .. واناس يقولون بل صوتها أجمل وصورتها أجمل أيضاً .. ولا بد أن ماما لأنها رأتنى أنا أيضاً أقول الشعر وأرتل القرآن وصوتى جميل وأغنى أيضاً .. فهى تخشى عليك يا ولدى .. إن أمك معذورة . ولكنها لا تستطيع أن تقول لك كل ذلك .. حتى لا تخاف من كل الناس .. وحتى لا تكره كل الناس .. هل فهمت ؟

- نعم .. ولكن لم أسمع أختى تغنى أبداً . أنا طلبت من أختك أن تجيء معنا إلى مصر . وأن تغنى لنا فى السيارة ..

- سيارة ؟

- نحن سوف نسافر بالسيارة .. ولكن بسرعة ماما إتصلت بها وطلبت إليها ألا تجيء ..

- فعلاً .. لم أفهم لماذا عدلت عن السفر معنا .. الآن فهمت .

- ماذا قلت لك ؟ إن هذا سر بيننا نحن الرجال ..

نحن الرجال — قالها والدى وهو يعنى كل حرف فى هذه الكلمة . ثم ضغط على يدي وعلى ذراعى وعلى كتفى ..

وجاء صوت والدتى من الداخل تقول إنها جاهزة وإنه لم يبق شىء فى البيت . لقد حملوا كل شىء إلى سيارة لورى .. ومن الغريب اننى استرحت فى الاستماع إلى والدى ، فلم أر أحداً من الشياطين .. ولا لاحظت ان صاحبة البيت تجلس بيتنا وفى يدها المفتاح .. وأن سيارة وقفت بعيداً .. وبسرعة كل شىء تم .. السيارة تحولت إلى صندوق دخلناه وأغلقت علينا الأبواب . المقاعد جلدية .. أمى بينى وبينها بعض الكتب .. أما ساعة الحائط فقد حملتها على ساقى والدى فى المقعد الأمامى .. ودار موتور السيارة .. وكأنها قطعة من الظلام تشق الظلام . أو تزحف على الظلام أو تخوض فى الليل .. نظرت ورائى وجدت تراباً يتطاير .. شظايا الظلام .. فتات الليل .. تراب كأنه ينهال على أيام مضت .. أو كأنه ساتر ترابى حتى لا أرى ما كان .. وأمامنا أضواء تروح وتجيء .. وبيوت

مضاعة .. وكأننا واقفون وهى التى تجرى .. تهرب .. تتوارى .. تتراجع .. تتلاشى ..
مشاعرى لا أعرف كيف أصفها .. هادئ .. إلى جوار أمى وأبى .. لست إلى جوارهما
تماماً .. بينى وبين والدى لوح زجاجى .. دائماً هناك مسافة .. هناك حائل .. عائق ..
فاصل .. دائماً والدى هناك بعيداً .. لا أرى إلا جانباً منه .. من وجهه .. من جسمه .. من
صوته .. هو الآخر ظل .. ظلال .. ضباب .. قطعة من الليل لها شكل قريب جداً من ملامح
والدى .. وأنقل عيني إلى والدتى .. ملابسها سوداء .. المنديل على رأسها أسود .. وجهها
شديد البياض .. الحزن على وجهها .. الصمت .. الصبر .. الأسى .. اليأس .. الخوف الذى
استقر واستكن . ومن حين إلى حين ترمقنى أمى بنظرة .. وإلى الساعة الكبيرة التى
حملتها على ساقى .. الساعة كالسيارة كل شىء فيها يموت . ففى الساعة يموت
الزمان . وفى السيارة يموت المكان .. وكل شىء فى علب وصناديق .. السيارة صندوق
والساعة صندوق وملايسنا فى صناديق .. والبيوت واقفة على حيلها كأنها صناديق ..
الدنيا كلها معلبات .. والعلاقات بين الناس أيضاً .. جافة .. أو مسلوقة . بلا طعم .. لا
تفسد . لا تضر .. ولا تنفع ولا مذاق لها ..

كنت أنام واصحو .. هكذا أتخيل .. ولكن من المؤكد أن أمى قد نامت .. تراجعت إلى
الوراء واستغرقت فى النوم .. مرهقة .. حياتها شاقة .. لا أعرف كيف تعيش . من النادر
أن أراها سعيدة أو أسمعها تقول ذلك .. مسكينة تقف أمام الوابور بالساعات تحاول أن
تصنع طعاماً .. أحسن طعام . ولكن المسكينة لا تكاد تضعه فى بطنها ، حتى تعيده ..
ويكون لذلك صوت وصراخ .. لا تأكل ما تصنع يدها .. فلا يبقى فى معدتها إلا القليل من
كل شىء .. وعلى هذا القليل تعيش .. فإذا غضبت فإن الذى ينزل من بطنها يكون له لون
الدم .. أو هو الدم .. وهى لا تفرح بأى طعام مهماً كان شهياً .. فالنتيجة معروفة .. وجاء
الدكاترة وذهبوا وهم يقولون كلاماً متشابهاً معدتها عصبية .. مصرانها عصبى .. كلها
عصبية .. هذه حالها ، وليس لها علاج .

ولكنها الآن نائمة .. ونظرت عبر الزجاج إلى والدى يبدو انه نام أيضاً . فوالدى يتباهى
بأنه أسرع الناس فى النوم . وكان يطلب إلينا أن نعد من واحد لعشرة إذا دخل السرير ..

فلا يكاد نصل إلى خمسة حتى يكون استغرق في النوم تماماً ..
عندى فرصة نادرة أن أرى أبى وأمى معاً .. فليس إلا قليلاً جداً أن أجدهما معاً .. وأن
أجدهما صامتين . لا أحد يقول ولا أحد يرد .. ولا شكوى منى .. ولا من أى أحد ..
لا بد أن هذا هو القرف .. فأنا في حالة من الصمت .. وفي حالة من الضيق .. وفي حالة
من العجز .. ولا أقول الخوف .. فلا شيء أخاف منه .. فأنا لا أعرف أى شيء عن هذه
الرحلة .. ولا عرفت قبل ذلك عن أية رحلة .. أو مغامرة أو مخاطرة ، وإنما أسمع هذه
العبارة دائماً : أعمل حسابك .. سوف نلطم متاعنا ونسافر إلى بلدة أخرى .. بعد غد ..
لماذا ؟ لا أسباب ! إلى أين ؟ لا أعرف ! ومعنى ذلك أن مثل هذه الأسئلة لا معنى لها .
وإذا كان لها معنى فعند والدى .. وعند أمى .. وليس من المفروض أن أعرف .. لأننى إذا
عرفت فلن يغير ذلك من خط السير .. أو الظروف أو القدر .
أمى قالت مصر .. والذى قال مصر . إذن هى مصر . فما هى مصر .. لا بد أن تكون
مدينة أكبر من المنصورة عشرات المرات وعماراتها أعلى وأضخم .. واناسها مختلفون ..
ولا بد أن بها مكتبات أكبر .. وزملاء أكثر .. وإذا سكننا في دور أعلى فهذه هى المعجزة .. أنا
قلت معجزة ؟ .. نعم أنا الذى قلت ذلك لأن سكنى الدور الأرضى قطعة من العذاب ..
الجدران متقاربة باردة .. والجير يتساقط من السقف .. كأن السقف يريد أن ينطبق على
الأرض وتتحول الغرفة إلى مدفن .. وكم حاولت أن أتقى البرد .. فكنت أضغ مكتبى في
وسط الحجرة . ولكن الغرفة باردة . وكنت أرتدى البالطو والروب وكل ما عندى من
ملابس .. وتظل الغرفة باردة .. ثم اهتديت إلى أن وضعت حصيرة بينى وبين الجدار ..
وظلت الغرفة باردة .. فلففت الحصيرة حولى .. وظلت الغرفة باردة .. وارتديت الجورب
الصوف والطاقيـة الصوف .. ولم أعرف طعم الدفء .. وكأن البرودة في البيت قد انتقلت
إلى الدنيا كلها .. فكل شيء بارد جامد .. حتى أيدي الناس عندما أضافحها أجدها
باردة .. ويجدون يدي أكثر برودة .. إلا يد أختى .. فهى دافئة . وكثيراً ما وضعتها على
خدى .. وأحياناً فوق قلبي .. وهى عندما تضع يدي على خدها تشكو من البرودة ..
ومددت يدي إلى يد أمى ولمستها برفق حتى لا تصحو .. ووجدتها دافئة .. وصحت

أمى من نومها وظهرت على وجهها ابتسامة اختفت بسرعة .. ثم فتحت عينيها لتقول : انت
تفعل ذلك دائماً .. حتى وأنت نائم .. تمد يدك إلى يدي .. نم يا ولدى .. حاول أن تنام ..
أمامنا مشوار طويل ..

انظر يميناً وشمالاً . كأننا في زورق يهتز بشدة .. مع سماع أصوات الصيادين ..
ويخيل لى أننى سمعت أصوات الدجاج .. فسألت أمى إن كان معنا دجاج .
فهزت رأسها بما معناه نعم . إذن فالدجاج فوق السيارة .. وهو آمن من الثعالب
والذئاب ..
ونمت ..

وتوقفت السيارة مرة واحدة .. ومن النافذة نظرت .. إنه مكان غريب .. البيوت لها
لون خاص .. عالية .. كبيرة .. ولها أبواب من حديد .. وأسوار من حديد .. والكلاب لها
نباح مختلف . والناس أكثرهم بالملابس البيضاء .. وعرفت فيما بعد انهم الخدم
والسفرجية .. وهناك سيارات تروح وتجيء ولا تتوقف .. السيارات نظيفة لامعة ..
والناس لا ينظرون ناحيتك إذا نظرت إليهم .. ونزلت .

وكان لابد أن أحرك قدمى .. حتى ينقلوا الصناديق من السيارة .. هناك اناس
انتظرونا .. انتظروا والدى .. فعندما نزل انحنوا على يده يقبلونها .. وسوى والدى
ملابسه .. وأمى أيضاً .. وأشار والدى أن أتمشى وأتفرج بعض الوقت .. لكى أعرف
المكان .. الأرض مرصوفة نظيفة .. كل بيت له حديقة .. وأصحاب الملابس البيضاء
كثيرون ..

وقعت في مشكلة كبيرة جداً ..

أريد اجابة سريعة عن معنى وجود هؤلاء الناس ذوى الملابس البيضاء .. لماذا هم
كثيرون وماذا يفعلون في البيوت .. وأين أصحاب هذه البيوت .. لا أحد في الشباك لا أحد
في البلكونة لا أحد أمام الباب .. أين الناس .. هذه مشكلة .

والمشكلة الأصعب هى : هذه الرائحة التى تنبعث من البيوت .. ما هذه الرائحة .. من
أى شىء تكون .. طعام ؟ حلوى ؟ عطور ؟ أدوية ؟ هل هى رائحة الناس .. فلا أكاد أمر

أمام بيت إلا تخرج منه هذه الرائحة الغريبة .. وعلى الرغم من أن البيوت كلها ذات روائح.. إلا أن هذه الرائحة أقوى في بعض البيوت . فما هي ؟
الشوارع واسعة جداً .. والدنيا هادئة جداً.. هذه إذن الزمالك.. لا أعرف عنها أى شىء.. ولكن ربما سمعت الاسم مرة أو مرتين .. ولكن الاسم فخم فخم له موسيقى غريبة.. ووقع ساحر.. ولم أعرف ذلك إلا فيما بعد عندما كنت أقول: اننى أسكن الزمالك..

فلا أكاد افرغ من هذه الكلمة حتى أرى النظرات تفحصنى من فوق لتحت فلا بد أن سكان الزمالك لهم مواصفات خاصة لا يجدونها في هيئتي .. ما الذى يجدره .. وما الذى لا يجدره .. ولكنى صادق عندما أقول اننى أسكن الزمالك .. وكنت أستعين بواحد تعرفت عليه وأصبحه في كل مكان ليؤكد اننى أسكن الزمالك .. كأننى محتاج إلى من يقسم على صدق ما أقول .. فما الذى يجعل الناس لا يصدقون .. ربما اننى لا أتقل بسيارة .. أو أن ليس لى مصروف كبير .. أو إنهم لم يروا بيتنا ولا والدى ولا والدتى .. ولكننى أسكن في الزمالك .. أو أسكن الزمالك .. محتاج لأن أقسم بالله العظيم اننى أسكنها ..

ومشكلة جديدة . لماذا وجوه الناس لامعة ؟ أى نوع من الماء ؟ أى نوع من الصابون ؟ أى نوع من الطعام ؟ هل هم من جنس آخر لابد إنهم من جنس آخر وإلا ما سكنوا الزمالك .. وكانت لبيوتهم هذه الرائحة الغريبة .. وإلا ما كانت لهم سيارات وحدائق ونوافذ لا ينظرون منها وبلكونات لا يشترتون منها الخضار .. ثم لا يوجد بائع خضار .. ومشكلة أخرى : ما الذى يعمل هؤلاء الناس لتكون لهم مثل هذه الحياة ..

وكانت هذه الأسئلة تلتف حول رقبتى .. تلتف حولى كلى .. ولذلك فأنا لا أمشى في الشارع وإنما أنا أدور حول نفسى .. لعل أقلت من هذه التساؤلات التى هاجمتنى .. وهذه سيدة .. شكلها مختلف .. جسمها .. وجهها .. ذراعها .. ساقها .. شعرها .. أهم من كل ذلك مشيتها .. فلم أر أحداً يمشى هكذا .. مشية موسيقية لها وقع على الأرض مع اهتزازات غريبة .. لأول مرة أرى شيئاً كهذا .. وواحدة ثانية .. وثالثة .. وأطفال صغار ..

بيض .. شعورهم ذهبية والعيون زرقاء .. والخادمت سمرات ويرتدين فساتين
بيضاء أيضاً ..

ولا يوجد أطفال في مثل سنى .. فالناس اما صغار جداً أو آباء .. أما الشبان الصغار
فلم أر واحداً .. لا بد أن الأطفال هنا .. والشبان في مكان آخر . أنا الذى أقول لنفسى . ولا
توجد عبارة لا تنتهى بكلمة . افندم ..

اتفضل افندم .. افندم ماذا تقول . افندم يا افندم ..

ووجدت مقعداً عند مدخل أحد القصور . وجلست . وجاء واحد من أصحاب
الجلاليب البيضاء والعمامات البيضاء وجلس إلى جوارى .. وسألنى فقلت له من أنا ..
وكان هو البواب ..

وسألنى . جنابك ابن مين يا افندم ؟

قلت له : هل يوجد هنا أطفال في مثل سنى ؟

- افندم موجود ..

- أين هم الآن ؟

- في المدرسة .. أو في النادي ..

- متى يعودون ؟

- قبل الغداء .

- متى الغداء .

- في الثانية ..

- كل الناس هنا يتناولون الغداء في الساعة الثانية .. في وقت واحد .

- نعم يا افندم .

- ألا يوجد أحد يتغدى قبل ذلك .

- يوجد .

- أو بعد ذلك .

- طبعاً .

- إذن كل إنسان حر يتعدى في الوقت الذي يجب ..

- ولكن هذه فوضى .. لابد من النظام يا أفندم .. الطباخ له مواعيد .. والسفرجى ..
والسواق والبواب .. لأنه لابد من الاستعداد للعشاء .. والعشاء له مواعيد .. كل شيء
بنظام ..

- والناس الذين يرتدون الجلابيب البيضاء بالضبط ماذا يصنعون ؟
- أفندم ؟

- إننى أراهم دائماً في الشارع أليس لهم عمل ؟
- طبعاً لهم عمل .. إنهم الذين ينظفون ويكنسون ويغسلون ويرتبون البيت .. ومنهم
الطهارة .. والسفرجية .. طبعاً الطباخ لا يمكن أن يكون سفرجياً في نفس الوقت ..
- لا أفهم .

- ليس معقولاً أن الطباخ يطبخ الطعام وهو الذى يضعه في الأطباق وينقلها بعد ذلك
إلى السفرة ويرتب الفوط والشوك والسكاكين والأكواب .. هذا شغل السفرجية ..
والسفرجى لا يكنس ولا يغسل لأن هذا شغل الخادم أو الخادمة .. وهو لا يستطيع أن
يقوم بفسحة الأطفال .. فهذا شغل الدادة ..

- الخادم والسفرجى والطباخ والدادة والبواب .
- أه والشوفير كمان .. السواق ..
- السواق !.

لكننى لم أر السائق الذى نقلنا إلى الزمالك .. كل هذه المسافة .. كل هذه الساعات وأنا
أنقل عينى بين أمى وأبى وكتبى والساعة على ساقى .. ولم ألاحظ أن للسيارة سائقاً ..
- أمال جنابك عندك ايه ؟

- يعنى ايه ؟

- طبعاً .. فيه سواق وسفرجى وطباخ وداده .. وبواب ..

- هل هؤلاء هم الأولاد الذين تحدثت عنهم ؟

- هؤلاء خواجات ..

-ومتى يجيء المصريون ..

- حالاً .. لماذا تنهض .. هل تعرف واحداً منهم .. أين تسكن .. ومن هو الذى تسأل عنه . وأنا أعطيه عنوانك أو تليفون جنابك لكى يطلبك .. تحت أمرك يا أفندم .. أفندم . وجنابك .. وتحت أمرى .. تليفونى .. وعنوانى .. وما جدوى أن أعرف أحداً منهم أو من غيرهم .. فكلها كم يوم ويجيء الليل بسرعة وتدخل تابوتاً له عجالات يفوص فى الظلام .. ونصبح قطعة سوداء فى ليلة سوداء فى عربية سوداء والناس نيام ونحن أيضاً .. لعل فى الليل أنسى النهار ومن عرفت وما عرفت استعداداً لأناس جدد .. جدد بعض الوقت أعرفهم لكى أنساهم .. أو من الضرورى أن أفعل ذلك .. يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر ... بعد سنوات من تابوت إلى تابوت امتدت حياتى كل ليالى الطفولة .. ومن المؤكد كانت ألوف الليالى ، ولم تكن هناك طفولة واحدة ..

من أنا : إحدى مقذوفات من الماضى إلى المجهول .. زجاجة ألقاها بعض البحارة من سفينة تغرق .. وفى الزجاجة استغاثة .. لعل أحداً يدركهم — كل الزجاجات قد أدركها الناس بعد أن غرقت السفينة وأصحاب الزجاجة .. وبقيت الرسالة دليلاً على ماض أليم .. وعلى أن هناك أملاً غير معقول فى النجاة .. وهناك اناس يفضلون أن يكونوا الزجاجة وأن يكونوا هم الرسالة التى لا يدركها أحد ..

ومن كل هذه الأنواع من الغرق كانت طفولتى ..

ومن كل الذين أوشكوا على الغرق .. والذين أعدوا الزجاجة .. ومن الذين وضعوا فيها رسالة إلى المستقبل .. ومن الذين ألقوها ومعها كل آمالهم فى النجاة .. فأنا خوف أسمى ورضاً أبى .. وقلقى .. فى سجن زجاجى .. صوت زجاجى .. صدى زجاجى !

لم أتصور لحظة واحدة أن أجد نفسى وحدى فى البيت - أى فى غياب أمى ولم أتصور ان تغيب أمى لاي سبب .. حتى اذا مرضت فهى تبقى فى البيت .. وحتى عندما تذهب إلى المستشفى أو إلى الطبيب فبعض الوقت . وقبل أن تذهب إلى عيادة الطبيب تكون قد أعدت كل شىء قبل ذلك بيوم .. الطعام أعرف مكانه .. وإذا سألت عنها احدى صديقاتها فماذا أقول .. وإذا لم تسأل فمن الواجب أن أذهب إليها .. ولا أقول إن ماما مريضة .. وإنما أقول إنها ذهبت للعزاء . وفى إحدى المرات قلت ذلك فسألوها عن الذى ذهبت للعزاء فيها . فكان ردها : أنه لم يكن عزاء وربنا لا يأتى بسوء لاحد - وإنما هو الذى أخطأ - أى أنا الذى أخطأت .

فأمى لا تريد أن يقال إنها مريضة أو يسأل احد عن مرضها .. أو يلاحقها بالسؤال عن صحتها وارسال الأطعمة أو الشاى والسكر الذى يجب أن ترده بنفس الكمية أو أكثر منها ..

وحتى عندما مات خالى لم تتركنى وحدى . وإنما طلبت منى أن أذهب معها وإلا آتى بكتب .. لا داعى لذلك . وهى تعرف مدى حبنى للكتب ثم أنها هى حريصة على ألا أضيع وقتى . ولما سألتها قالت إنها تخاف من الحسد ..

وكانت تقول لا تأكل مع أحد .. أنا سوف آتى لك بالطعام .

ولكن هذه المرة سافرت أمى لان احدى أخواتها مريضة جدا .. وأنها تريد أن تراها قبل أن تموت .. ووجدت أمى قد ارتدت فستانا أسود .. ومنديلا أسود .. حتى المناديل

التي في جيبها لها أطراف سوداء .. ثم أنها نزلت إلى السوق واشترت سكرًا وشايًا
وصابونًا .. وجاءت سيارة وأخذت أمي إلى حيث أختها .. وقبل سفر أمي كان والدي قد
حضر .. هو الذي سوف يبقى معي في البيت في غياب أمي . مفاجأة أخرى ! فهذه هي المرة
الأولى التي أكون مع والدي .. صباحًا ومساءً . وكنت في غاية الاضطراب .. كأنني أراه
لأول مرة .. ولا أعرف كيف أبدأ الكلام معه .. ولا أعرف هل أذهب إلى المدرسة .. هل أبقى
في البيت .. ما الذي يجب أن أفعله .. كأنه رجل غريب .. ورحت أرقب والدي بمنتهى الدقة
والعناية .. أنه مختلف تمامًا عن ماما .. أنه أهدأ .. وحركته أبطأ .. ثم أنه ليس مستعجلًا
على أي شيء .. وظللت أنتظر ما الذي سوف يفعله في الافطار وفي الغداء . وكيف نمضي
الوقت معاً ..

إذا دق الباب كان هو الذي يسبقني إليه .. ويجيء اناس يسألون عن أشياء لا
أفهمها .. ثم يتركون خبزًا ساخنًا وبيضًا .. ويجيء من يحضر الفطير المشلتت الساخن
والقشدة وعسل النحل .. ثم يتهامسون . ويقوم والدي بإعداد الطعام .. ويضع الفطير
المشلتت في طبق كبير .. ويضع القشدة في طبق . والعسل في طبق ويطلب أن نجلس معاً ..
وفي نفس الوقت يكون قد أعد الشاي بالنعناع ..

وقلت . أحب أن أكون معك ..

- ممكن أن أكون معك وزملاؤك معنا أيضًا .. على كيفك .

- ولكن لماذا ؟

- أريدك أن تكون مبسوطًا .. وحتى لا تشعر بأنك وحدك ..

- ولكن أنا مبسوط وأنا معك ..

ولم يكن هذا شعوري بالضبط .. فأنا أشعر بأنني غريب عن والدي .. وأنه هو أيضًا
غريب .. وكنت أنظر إليه وهو يأكل .. وأنظر إلى أصابعه .. إلى وجهه .. أنه أبيض أحمر
وعيناه خضراوان . وله منظار أبيض .. وله شارب وشعرات بيضاء هنا وهناك في رأسه ..
وعيناه صافيتان .. ونظراته ثابتة هادئة .. وليس في عينه أي نوع من القلق .. وقال لي : أنا
سوف أكل معك رغم أنني مصاب بمرض السكر ..

وكانت هذه هي المرة الأولى التى أعرف أن والدى عنده سكر .. وشرح لى معنى الإصابة بالسكر .. وقال ضاحكا : لن تصاب بهذا المرض .. وإنما بعض أولادك فهذا المرض يصيب الاجداد والاحفاد .. فقد كان جدى مصابا بالسكر .. وهذا المرض يجىء من الاسراف فى تناول السكريات . أو يجىء من الحزن الشديد أو يجىء بالوراثة .. وأنا لا أعرف أى هذه الاسباب قد أدت إلى اصابتى بالمرض .. ولكن اعتقد أنه الهم والحزن يا ولدى ..

يقول : الهم والحزن ..

إذن فهذا الهدوء على وجه والدى وهذه الخفة والمرح ليست إلا شيئا ظاهريا .. أو ليست إلا محاولة لنسيان مرضه .. أو هو نوع من السلوك التعويضى ليخفف عنه السكر أو حتى لا يصاب بما هو أكثر من السكر ..

وسألته : وهل ماما عندها سكر

قال : لا . الحمد لله ..

سألته : ولن تصاب بالسكر ..

قال . إن شاء الله لن تصاب يا ولدى

قلت: إن جدى كان قويا .. ولم يكن مصابا بهذا المرض ..

قال . الحمد لله أن السكر لن يصيبك إن شاء الله .. هل تحب الفطير .

- جدا .

- سوف آتى به كثيرا ..

- وأذا بعثت إليك فاعط زملاءك الذين تحبهم .. لانهم لا يعرفون كيف يصنعونه فى

المدن .. فى الريف فقط ..

- حاضر .. ومتى ستبعث ذلك ؟

- عندما اسافر

- اليوم ؟

- لا .. بعد ثلاثة أيام عندما تعود ماما ..

وأسعدنى أن يبقى والدى ثلاثة أيام .. أريد أن أقول له كثيرا وأن اسمع منه .. ولكن لا أجد شيئا أقوله .. أننى فى غاية الاضطراب .. مع أن والدى عندما يكون مسافرا اتخيل حوارات طويلة معه .. واتخيل نفسى على صدره .. وفجأة سألت والدى : بابا .. هل الانتحار حرام ؟

- الانتحار ما هذا الذى تقول يا ولدى . ما الذى جعلك تسأل عن هذا الشيء الفظيع .. طبعا حرام .. ولكن لماذا هذا السؤال يا ابنى . أزعجتنى !
- مجرد سؤال ..

- ولكن لماذا .. طبعا حرام جدا .. ومن يفعل ذلك يدخل جهنم وبئس المصير .. اعوذ بالله .. تعال اقترب منى يا ولدى ..

والقيت نفسى على صدره وجعل يضع يده على رأسى ويقول : سلام قولا من رب رحيم .. سلام قولا من رب رحيم .. ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين .. ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين .. والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .. والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .. ورجعناك إلى امك كى تقر عينها ولا تحزن .. وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضر . وكشفنا ما به من ضر وكشفنا ما به من ضر.. وثوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم فنجيناه وأهله من الكرب ونجيناه وأهله من الكرب العظيم .. تعرف هذه السورة ..

- نعم .. سورة (الأنبياء) ..

- الله يفتح عليك .. قل معى .. بسم الله الرحمن الرحيم .. اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون .. ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون .
وقلت . لا هية قلوبهم ..

قال : لاهية بالفتح وليس بالضم ..

قال مرة أخرى : بسم الله الرحمن الرحيم ..

قلت : لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا . هل هذا الا بشر مثلكم افتأتون

السحر وأنتم تبصرون .. قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم ..
ولاحظت أن والدي ظل منزعجا طوال اليوم . وفجأة قرر أن نتناول غداءنا في بيت احد
أصدقائه .. ثم طلب مني أن أغير ملابسي لأننا سوف نخرج ونقوم بعدد من الزيارات ..
وكما نظرت إلى وجه والدي وجدت شحوبا وقلقا في عينيه ..

حتى الكلام الذي بينه وبين أصدقائه طوال اليوم كان موجها لي .. والكلام كله عن
وسوسة الشيطان الذي يهمس في أذن الإنسان ليعصى ربه .. وإنه في كل مرة يشعر
الإنسان إن همس الشيطان قد ارتفع يجب أن يستغفر الله من كل ذلك .. وأن يقرأ سورة
« الأنبياء » ففيها كل ما أصاب الأنبياء من عذاب .. ثم كيف نجاهم الله من كل ذلك ..

ثم حدث شيء فظيع غير متوقع ونحن نتناول طعاما في بيت الحاج عبد اللطيف وهو
من تجار الغلال ومن أحب الناس إلى والدي جاءت زوجته بعد أن بدأنا الطعام وسلمت
واخفت جانبا من وجهها وسألها الحاج عن سبب غيابها فقالت : والله يا حاج مصيبه
كبيرة !

- خير إن شاء الله .

- خير يا حاج .. الحمد لله على كل شيء .. انه فريد ابن الدكتور شوقي .. الولد شرب
زجاجة يود .. وكان سيموت فيها .. ولكن ادركوه على آخر لحظة ..
- لماذا ؟

- يا سيدى إنه يحب بنت الجيران ويريد أن يتزوجها ولكن والدته رفضت لأنها تريد
أن يتزوج بنت أختها ..

- والله بنت أختها أجمل .. ويتمناها أى إنسان .. ثم إنها كانت زميلته في الجامعة ..
وغنية وفي غاية الكمال ..

قال والدي . والله حرام ..

وقالت هى . يمكن الانتحار ليس حراما عند الاقباط ..

قال والدي : حرام في كل دين ونهايته جهنم وبئس القرار .. ما رأيك يا حاج .

قال الحاج حرام والعياذ بالله . والله أن لا أفهم يا سى محمد لماذا ينتحر هؤلاء

الشبان .. هذه هي المرة الثانية التي اسمع فيها عن شاب حاول الانتحار .. قبل ذلك سمعت عن ابن المأمور جودت .. قالوا إنه مريض .. وأنه دخل المستشفى وذهبنا نسأل عن ذلك .. ولكن احدا لم يقل لنا ماذا جرى له .. واحد قال . معدته . وواحد قال: ضيق في التنفس .. وواحد قال : أصابة في دماغه بعد أن سقط من البسكلت .. والحقيقة أن الولد المسكين انتحر .. لقد امسك سكيننا وقطع عرقا من يده .. وظل ينزف حتى أغمى عليه وادركوه في آخر لحظة .. والسبب تافه جدا فقد ضربه أبوه قلمين أمام زملائه لانه بليد ولا يذاكر .. فأسرع الولد واتى بسكين وأغلق على نفسه باب حجرته .. وبعد ذلك كسروا الباب .. وانقذوه في آخر لحظة ..

اما الاضطراب الذي أصاب والدي ففظيع .. وقد رأيت اللقمة ترتجف في يده . ولا يعرف ما الذي يفعله وهو يحاول أن يتفادى النظر ناحيتي .. ولكنني وجدت الرعب في عينيه .. ويبدو أن والدي تأكد من أنني لم أكن أقصد الا مجرد السؤال .. ولم تساورني أية فكرة من هذا القبيل .. وهذا واضح في هدوئي وصمتي .. واستمراري في تناول الطعام دون أن ارفع عيني .

وفي الطريق إلى البيت سألتني والدي . ما الذي اقرأ هذه الأيام ..
فقلت : قصة بوليسية ..

فضحك والدي هو يقول : لا بد أن البوليس اطلق النار على القاتل ..
فقلت : قبل أن يدركه البوليس فقد انتحر .. وعلق نفسه بحبل من السلم ..

واستراح والدي وقال : إنه رجل مغفل .. لم يكن هناك سبب لان يقتل نفسه .. ولو سلم نفسه لدخل السجن بضع سنوات وخرج يستأنف حياته بصورة أفضل .. ولكن مادام قاتلا فهو يستحق الإعدام .. ولكنه استعجل إلا إذا كان في حالة جنون .. لقد أصابة الجنون فقتل نفسه .. فله العذاب في الدنيا والآخرة .

وكان والدي يحاول أن يطرد الموضوع تماما من دماغى .. يريد أن يطمئن على أن هذه الفكرة قد قرأتها وإنها لم تخطر على بالي .. بعد أن تحدث والدي عن الحزن الذي أصابه بمرض السكر .. ولم يصب والدي بعد .. ولعله حاول أن يعرف بالضبط ما الذي

جعلنى اتحدث عن الانتحار .. هل أنا أيضا قد ضقت بهوموم الحياة .. بمتاعب أمى
ومتاعب والسدى .. الحياة الشاقة الحزينة التى نعيشها جميعا .. أو هل هى الكتب
الفلسفية التى بدأت اقرأ فيها رغم أننى لست فاهما تماما لكل ماتقع عليه عيني .. أو أن
هذه الفكرة قد تولدت فى الوحدة والعزلة والانطواء والبعد عن الناس .. والقلق والشعور
الدائم بالغربة .. وبأن لا شىء يمسكنى .. لا ارض تحتى .. ولا البيت ولا هو يشغلنى
بحوارات طويلة بينى وبينه .. لقد ظل يستعين بأصدقائه جميعا على قتل هذه الفكرة
وإبادتها نهائياً ..

فهو دائم التلاوة للقرآن .. وصوته جميل .. والآيات التى يختارها من سور مختلفة
الدلالة . وتدعو إلى الصبر والإيمان .. واقتراب الفرج .. ثم أنه كان يغنى أيضا وهو
يصنع الشاي .. وصوته جميل أيضا ..

وفى الليل عندما أنام مبكرا يجرىء ويغطينى .. وكلما وجدنى قد تمددت تحت اللحاف
والبطانية رغم حرارة الجو يضحك . ثم ينحنى يقبلنى على جبهتى ويتلو آيات من القرآن
الكريم .. ثم يخرج ..

وفى الصباح يفتح كل النوافذ والباب .. ولأول مرة أنظر من النافذة واكتشف أن البيت
يقع عند طرف احدى الحدائق .. شىء عجيب أننى لم أفكر فى دخول هذه الحديقة .. ولا
خطر لى أن افتح النافذة .. ولما انفتح الباب .. وباب آخر مواجه له ، كان الهواء مندفعاً .
وقد أدى فتح النوافذ والابواب إلى أن تغيرت رائحة البيت .. أن الهواء ينعش .. فهذه
الابواب والنوافذ المفتوحة تجعل البيت أوسع .. وتجعل السقف أعلى .. فالافق والسماء
والحقول كلها اضيفت إلى البيت .. وجاءت الاصوات والنداءات ورائحة البرسيم والزهور.
ورائحة الدخان ثم رائحة الطعام من بيوت مجاورة .. هناك أكثر من علاقة تربطنا
بالآخرين : الاصوات والروائح .. والذين يدقون الباب رغم أنه مفتوح ويسألون عن
ماما.. ويسلمون على بابا ثم إذا وجدونى سألونى عن حالى فى المدرسة .. أو ما الذى
اقرؤه اليوم .. أو أن كنت زرت زميلى فلانا لانه مريض .. أو لانه عاد من السفر .. أو لان
أخته تزوجت .. الدنيا كلها تدخل من الباب والشباك !

www.alkottob.com

توقعت شيئاً غريباً أن يحدث .. لا أعرف ما هو .. مع أن حياتنا ليست فيها أحداث ..
 فهى تمشى وليس لوقع أقدامنا صوت على الأرض ، ولا لأصواتنا صدى .. ولو أغمضت
 عيني في الطريق فلن اصطدم بأحد .. لاننى شبح .. أو ظل .. أو اننى وهم .. أو اننى
 جلباب ملئ هواء .. ملئ فراغاً .. وفي بعض الاحيان كنت أدق بطنى بيدي .. فقد توهمت
 في بعض الاحيان اننى بلا بطن .. بلا معدة .. بلا قلب .. بلا أحشاء .. ولا أعرف من أين
 جاء هذا الشعور ولا حتى ما معناه . وكنت دائم النظر إلى جسمى وإلى أجسام الناس ..
 وأذكر أننى نهضت من نومى في حالة من الفزع لان احد الاطفال ضرب الكرة ناحيتى
 فدخلت بطنى وخرجت من الناحية الأخرى .. حتى الجلباب نفذت منه دون مشقة .. كأن
 جلبابى من نسيج العنكبوت .. شىء غريب هذا الشعور وهذه المعانى ..
 ولكن النظرات التى لم ألقها من أبى وأمى تدل على أن هناك شيئاً ما يقولانه دون أن
 اسمعه .. حتى لا اسمعه ..

واقترب منى والدى وقال تعال نخرج .. فأنا أريد أن أجلس معك ..

- الله .. تجلس معى ؟

- تعال ..

وتعلقت بذراعى والدى .. وتركت الباب مفتوحاً ونظرت إلى الباب الذى لم أتركه
 مفتوحاً قط .. ولكن هذه المرة تركته دون أن أبالى بغضب أمى .. أو كأننى لا أبالى بالبيت
 كله مادمت مع أبى ..

ولا اعرف كم طال الطريق .. ولكن والدى اتجه إلى احد المطاعم وقال . هنا سوف
نجلس ونتناول غذاءنا ، فماما لا تستطيع اليوم أن تعد لنا طعاما .. وأنا اتفقت معها على
أن نجلس معا ثم نعود إليها ..

أول مرة أذهب إلى مطعم .. أول مرة اسمع من والدى أنه يريد أن يجلس معي ..
ويريد أن يكلمني وأن يكون ذلك في مطعم بعيدا عن البيت .. ويكون الكلام أثناء الطعام
وهو الذى يريد أن يتكلم .. وكنت سعيدا أن أجلس إلى والدى وأن أراه وأن استمع إليه
وحدى وجهها لوجه .. فلم اجلس إليه وجهها لوجه .. وإنما دائما أراه على السرير .. أو أراه
يرتدى ملابس أو أراه داخلا أو خارجا .. ولكن جالسا معه وفترة طويلة شىء جديد ..
مثير ..

وسألنى : ماذا تريد أن تأكل ؟

- لا أعرف

- هنا كل شىء .. لحمه وفراخ وسمك وأرز ومكرونة .

- كل هذا

وضحك والدى وهو يقول اختر أحسن هذه الاشياء

- ما ستأكله أنت .

- اذن اختار لك مكرونة وسمكا مقليا وصلصة وبطاطس بالدمعة . موافق ؟

- نعم .

ورحت املا عيني من والدى .. أن والدى وجهه أبيض احمر مشرق .. وله عينان
خضراوان هادئتان تماما وشعره أسود .. وجبهته متوسطة .. وشفثاه ممتلئتان .. وعنقه
طويل .. ويضع عطورا جميلة هادئة .. ويدها ناعمتان .. واصابعه أيضا .. وله قميص
بزرير ذهبية فى الاكمام . وله ساعة ذهبية بسلسلة تتدلى على الصدري .. وله طربوش
أحمر غامق ..

قلت : يا بابا هل نحن فقراء

- لا ..

- لماذا عندي هذا الشعور ؟
- من الذى تراه غنياً من أصدقائك ؟
- لم أفكر فى ذلك ..
- هل لا تجد الطعام فى البيت ؟
- أجد الطعام ..
- إذن لسنا فقراء !
- ولكن البقال يطلب منى فلوساً .. وصاحب الأجزخانة .. لماذا لا تدفع لهم فلوسهم ..
- لأن ماما هى التى تدفع .
- ولماذا لا أدفع أنا ؟
- لأن ماما أعطتك الفلوس فى إحدى المرات فجاءك شحاذ فاعطيتها كلها له .. أنت نسيت ؟
- هذا حدث ..
- وحدث مرة أخرى .. أن جاءك شحاذ وكانت تمشى وراءه زوجته وأولاده وانتظروك عند باب المدرسة .. لانهم يعرفون أن قلبك طيب .. وبكى الرجل وراح يقبل يديك .. فأعطيته المصاريف المدرسية .
- هذا صحيح .
- ولذلك فوالدتك لا تعطيك أى مبلغ من المال حتى لا يخدعك هؤلاء الشحاذون النصابون ..
- لماذا ماما مريضة دائماً ؟
- أنها ترهق نفسها فى شغل البيت .. وترفض أن يقيم معكم فى البيت أى خادم أو خادمة .. أنا حاولت كثيراً ولكن ماما ترفض ذلك .. حتى خالتك مرة أتت معها بخادمة .
- ولكن ماما طردتها ..
- لماذا ماما تخشى أن أكون فقيراً ؟

- هي تحبك وقلقة عليك ..
- يعنى لن أكون فقيرا ؟
- لا .. إن شاء الله .
- من هو الفقير يا بابا ؟
- هو الإنسان الذى لا يجد طعاما ولا ملابس ولا بيتا ولا يستطيع أن يذهب إلى المدرسة ولا يقدر على شراء الكتب والادوية ..
- إذن نحن لسنا فقراء ولكن لماذا أنت تقول كلاما وماما تقول كلاما آخر .. أيكما على حق .
- ماما على حق .. وأنا على حق أيضا ..
- ولكن ماما لا تقرأ الكتب التى تأتى بها أنت .. وقد طلبت إليها أكثر من مرة أن تقلب فيها وسوف نجدها جميلة ومسلية .. ولكنها رفضت ..
- ماما تخاف أن تنشغل بها عن الدراسة .. فماما ترى أن أخوتك الذين انشغلوا عن الدراسة لم يكملوا تعليمهم .. وهى لا تريد لك هذا المستقبل ..
- لماذا لا تقنع ماما برأيك هذا ؟
- حاولت ولكنها مصرة على موقفها ..
- اذا أنا قرأت هذه الكتب ، ارضيتك وأغضبتها .. فكيف أكون أبنا لكما أنتما الاثنان وأكون هكذا مختلفا ..
- انظر إلى أية شجرة يا ولدى .. هذه الشجرة خرجت من بذرة وضعت فى أرض سوداء .. وهذه البذرة عاشت على الطين وعلى الهواء وعلى الماء .. ومع ذلك فالشجرة مختلفة تماما عن الماء والهواء والطين .. هذا طبيعى يا ولدى .. ولكن عندما تكبر سوف يتسع وقتك لكى تفكر ويكون لك رأى خاص .. أنا عندما كنت صغيرا كنت احب أبى واحب أمى .. وكانا يتشاجران ويختلفان واجد نفسى حائرا بينهما .. وكان والدى يقول لى . أنت عاوز إية .. فأقول عاوز العب فى الشارع .. فيقول . العب .. وكانت أمى تخاف من الخناقات المستمرة مع أخوتى وأولاد عمى ..

- ماذا أكون في المستقبل ؟
- ليس الآن يا ولدى .. عندما تحصل على الابتدائية .. سوف تفكر أين تذهب ..
- ماما تريدنى وزيرا .. يعنى ايه ؟
- ماما لها ابن خال وزير وهى ترى أنه أعظم إنسان فى الدنيا .. وهى تريدك أن تكون أعظم منه .. أنها أم .. وتحب لابنها كل شىء ..
- أخى الاصغر هل أنت تحبه !
- طبعا
- وماما أيضا ..
- ولكن لماذا لا يخرج معى .. ويلعب معى .. ؟
- أنه مختلف عنك .. ويجب أن يبقى دائما إلى جوار أمه .. وهى تحب ذلك ..
- ولماذا ماما تحبنى فقط .. وأنت أيضا لا تحب أخوتى .. وتحبنى أنا أكثر من الجميع ..
- بل احب كل أخوتك .. وأنت أكثر .
- لماذا ؟
- والله يا ابنى لانيك أطيب . لانيك مجتهد .. لانيك ذكى .. لانيك على خلق .. لان عندنا احساسا بأنك سوف تعوضنا عن كل أخوتك .
- يعنى اعمل ماذا ؟
- يعنى تكون بالضبط كل ما نتمناه ، لكل الاولاد .. هذا عشمى فى الله سبحانه وتعالى ..
- ياالله بنا .. لقد تأخرنا .. ولايد أن نسافر حالا ..
- نسافر ؟
- نعم .. هات يدك .. هات .. سوف نذهب إلى بلد احسن .. سوف يكون لك بيت أوسع .. واصدقاء أكثر .. بلدة جميلة .. وفيها مكتبة كبيرة .. وبالقرب من البيت رجل يبيع كل أنواع الكتب .. وقد عرفت أن صديقك سامى سوف يسكن فى البيت المجاور لنا ..

* * *

ولم اعد استمع إلى ما يقوله والدى ..

ولا أعرف كيف وصلنا بهذه السرعة إلى البيت . ووجدنا الباب مفتوحا . ووجدنا والدى قد ارتدت ملابسها السوداء وجلست على احد المقاعد .. والمنديل على رأسها أسود.. ووجهها ازداد بياضا وهدوءا .. ونظرت والدى إلى أبى ثم اعادت النظر واقتربت منها واحتضنتى وراحت تقبلنى .. وتقول كلاما لا أعرفه .. ولعلها أرادت أن تطمئننى .. وتلاحقت الاحداث بسرعة .. وجاءت سيارة وقفت أمام الباب .. وجاء السائق وفتح الباب فدخلت أمى وأنا من بعدها ثم والدى . واستقرت ساعة الحائط على ركبتي .. كأنها تابوت سوف ادخله .. أو كنت فيه وخرجت منه .. أو أنه الحوت الذى سوف يبتلعنى تماما كالنبي يونس عليه السلام .. رحت أرى البيوت والأشجار .. فكل شىء أبعد وكل شىء يتحرك بعيدا .. يمشى فى عكس السيارة .. واضع رأسى على كتف والدى . ثم على كتف والدى .. وأرى البيوت سحابة يعلو ويهبط .. أو موجا يحيط بالسيارة من كل جهة.. كأن السيارة قذيفة محشوة بشرا .. وكنت وأنا فى السيارة كأننى الذى أجرها وأنا فى داخلها .. أو كأنها تمشى فوقى ..

وانظر إلى أمى لقد نامت ..

وإلى أبى لقد نام هو أيضا ..

وإلى الساعة التى على ركبتي إنها هى الأخرى قد نامت ..

وفجأة وقفت السيارة أمام بيت جديد ..

اذن لقد نمت أنا أيضا .. وصحونا على شوارع خالية من الناس .. وبيوت خالية من

الناس .. والسماء خلت من الشمس .. والأرض خلت من التراب ورأسى خلا من أى فكر ..

وقلبى من أى خوف ..

وكل شىء قد وقف هناك بعيدا فى حالة استعداد وانتظار لأى شىء ؟ وأنا وقفت

كأننى باب فى بيت .. كأننى بيت فى شارع .. كأننى شارع واقف على حيله .. كأننى ظل

لانا .. كأننى صدائى .. كأننى واحد بين أنا وهى وهو والآخرين .. أو كأننا جميعا .. فى

انتظار أمر بالتحرك من المجهول إلى المجهول !

كتب المؤلف

- ١١ - على رقاب العباد
١٢ - ديانات أخرى
١٣ - وكانت الصحة هي الثمن
١٤ - الغرباء
١٥ - الخبز والقبلات
(ج) قصص :
١ - عزيزى فلان
٢ - هى وغيرها
٣ - بقايا كل شىء
٤ - يا من كنت حبيبي
٥ - قلوب صغيرة
٦ - شارع التهنيدات
٧ - فوق الركبة
٨ - هذه الصغيرة (وقصص أخرى)
٩ - عريس فاطمة
١٠ - يوم بيوم
١١ - إنها الاشياء الصغيرة
(د) نقد أدبى :
١ - يسقط الحائط الرابع
٢ - وداعا أيها الملل
٣ - كرسي على الشمال
٤ - ساعات بلا عقارب
٥ - مع الآخرين
٦ - شىء من الفكر
- (أ) ترجمة ذاتية :
١ - فى صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ - عاشوا فى حياتى
٣ - إلا قليلا
٤ - طلع البدر علينا
٥ - البقية فى حياتى
٦ - نحن أولاد العجور
٧ - من نفسى
٨ - حتى أنت يا أنا
٩ - أضواء وضوء
١٠ - كل شىء نسبى
(ب) دراسات سياسية :
١ - الحائط والدموع
٢ - وجع فى قلب اسرائيل
٣ - الصابرا (الجيل الجديد فى اسرائيل)
٤ - عبد الناصر - المفترى عليه
والمفترى علينا
٥ - فى السياسة (٣ أجزاء)
٦ - الدين والديناميت
٧ - لا حرب فى أكتوبر ولا سلام
٨ - السيدة الأولى
٩ - التاريخ أنياب وأظافر
١٠ - الخالدون مائة - اعظمهم محمد
(صلى الله عليه وسلم)

(و) مسرحيات كوميدية :

- ١ - مدرسة الحب
- ٢ - حلمك يا شيخ علام
- ٣ - مين قتل مين
- ٤ - جمعية كل واشكر
- ٥ - الأحياء المجاورة
- ٦ - سلطان زمانه
- ٧ - حقنة بنج
- ٨ - العبقري
- ٩ - الكلام لك يا جارة

(ز) مسرحيات مترجمة :

* للأديب السويسري فريد ريش

ديرنمات :

- ١ - رومولوس العظيم
- ٢ - زيارة السيدة العجوز
- ٣ - زواج السيد مسيسى
- ٤ - الشهاب
- ٥ - هي وعشاقها

* للأديب السويسري ماكس فريش .

- ١ - أمير الأراضي البور
- ٢ - مشعلو النيران

* للأديب الفرنسي جان جيروودو :

- ١ - من أجل سواد عينيها

* للأديب الأمريكي آرثر ميللر :

- ١ - بعد السقوط

٧ - لو كنت أيوب

٨ - يعيش .. يعيش ..

٩ - الوجودية

١٠ - عذاب كل يوم

١١ - طريق العذاب

١٢ - وحدي .. ومع الآخرين

١٣ - مالا تعلمون

١٤ - لحظات مسروقة

١٥ - كتاب عن كتب

١٦ - أنتم الناس ايها الشعراء

١٧ - أيها الموت .. لحظة من فضلك

١٨ - أوراق على شجر

١٩ - في تلك السنة

٢٠ - دراسات في الأدب الأمريكي

٢١ - دراسات في الأدب الألماني

٢٢ - دراسات في الأدب الألماني

٢٣ - فلاسفة وجوديون

٢٤ - فلاسفة العدم

(هـ) رحلات :

١ - حول العالم في ٢٠٠ يوم

٢ - بلاد الله خلق الله

٣ - غريب في بلاد غريبة

٤ - اليمن ذلك المجهول

٥ - أنت في اليابان وبلاد أخرى

٦ - اطيب تحياتي من موسكو

- ٦ - مذكرات شاب غاضب
- ٧ - مذكرات شابة غاضبة
- ٨ - جسمك لا يكذب
- ٩ - اثنين .. اثنين
- ١٠ - الذين هاجروا
- ١١ - غرباء في كل عصر
- ١٢ - أظافرها الطويلة
- ١٣ - هموم هذا الزمان
- ١٤ - الحب الذى بيننا
- ١٥ - عذاب كل يوم

(ط) دراسات علمية :

- ١ - الذين هبطوا من السماء
- ٢ - الذين عادوا إلى السماء
- ٣ - القوى الخفية
- ٤ - أرواح وأشباح
- ٥ - لعنة الفراعنة

* للأديب الامريكى تنسى وليامز .

- ١ - فوق الكهف

* للأديب الامريكى يوجين أونيل .

- ١ - الامبراطور جونس

* للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:

- ١ - تعب كلها الحياة

* للأديب الفرنسى اداموف :

- ١ - الباب والشباك

* للأديب الاسبانى أرابال

- ١ - ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية :

- ١ - الحنان أقوى

- ٢ - من أول نظرة

- ٣ - طريق العذاب

- ٤ - الوان من الحب

- ٥ - شباب .. شباب

رقم الايداع: ١٩٩١/٣٩٤٥
الترقيم الدولي: ٦-٠٠٦٥-٠٩-٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع حواد حسي - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس ٣٩٣٤٨١٤
بيروت . ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

www.alkottob.com

البقية في حياتي!

لوحات تذكارية على جدران الطفولة

كانتني حجر متحرك ، يشكل ويتلون لأنه يتحرك .. ولأنه يتحرك فلا يثبت عليه العشب .. عشب الأمان .. وزهور المودة .. وتمرات الحب .. والناس أنواع : اناس يمكن تحريكهم واناس يستحيل تحريكهم .. واناس ولدوا متحركين ..

كانتني ولدت على ظهر سفينة .. وأظن شبابي اتعرف على الموج والشاطئ والرياح ..

كانتني سحابة صغيرة جاءت من بعيد لتسقط امطارا في أماكن مختلفة لاتعرفها .. كانتني بطاقة شخصية سطرها الأول : اسمي : فلان .. موطنه : مجهول .. نهاره : قلق .. ليله : أرق ..

أد لو كانت الأرض قد هدأت قليلا .. أد لو سكن الحجر قليلا .. أد لو استقرت الحروف في السطور في يد مرتحلة ..

إن ميلاد طفل واحد خائف هو موت للحب والعدل ..

إن مستقبل كل إنسان في ماضيه .. ففي الطفولة كل الودائع ، وفي الشباب كل القروض ، وفي الرجولة فوائد الودائع والديون ..

وفي الطفولة تحسن مثل يونس عليه السلام الذي ابتلعه الحوت .. ليست معجزة للحوت .. ولكن المعجزة أن تبقى أحياء في بطن الحوت .. وأن تخرج منه وتحاول العمر كله أن تلتع الحوت .. والحوت هو : القدر .. الناس .. أوجاع الطفولة .. تحديات الشباب .. حكمة الرجولة ..

وعندما تنقلب على الطفولة وتحاول تحجيمها وتخطيطها وتعليقها لوحات تذكارية على جدران الطريق ، فهذه هي بداية الحرية والحكمة ..

وقد حاولت صادقاً .. وكل ما كتبت هو شيء من الفكر الشفاف والفن الجميل .. أروع ما كتبه الكاتب الكبير أنيس منصور في سيرته الذاتية .. التي بدأها في كتبه العديدة : في صالون العقاد كانت لنا أيام .. وعاشوا في حياتي .. والإ قليلا ..

ثم هذا الكتاب :

البقية في حياتي

لوحات تذكارية على جدران الطفولة

أنيس منصور

To: www.al-mostafa.com

www.alkottob.com